رواية

مكتبة النخبة

# دفاتر القرباط

خالد خليفة

نوفل

رواية

# دفاتر القرباط

خالد خليفة

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2020 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© **هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2020**
بناية أنطوان، الشارع 402، المكلّس، لبنان
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com www.hachette-antoine.com facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine twitter.com/NaufalBooks
لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **Shutterstock** ©
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**

رقم الإيداع (النسخة الورقية): 978-614-469-522-7
رقم الإيداع (النسخة الإلكترونية): 978-614-469-425-1

# الدفتر الأوّل
# خيام وموسلين وغرابيل

هادي العنّابي مُقرفص في الزاوية، يُراقب الغرباء ويتذكّر سنوات غربته الثلاثين التي عاد بعدها إلى العنّابية رجلًا مختلفًا، نضرًا، نظيف اليدين دومًا، وفي حقيبته الكثير من الأشياء التي لم يرها أحد، تكلّم عن أشياء كثيرة لم يستوعب أحد شيئًا منها، قال: «إن الحديد يطفو فوق سطح الماء ويسير كالدوابّ محمّلًا بالبشر والقطن والسمسم، وإنه شاهد مكان دوس رِجْل الرسول محفورة على مرمر في متحف إسطنبول، وإن السلطان ينكح كلّ يوم امرأة، وإن أكثر من خمسمئة رجل وامرأة وطفل ماتوا خلال ساعتين في دمشق حين صدر الفرمان بإبادة الأسرى المجمّعين في أحد الخانات الكبيرة الواقعة في الطرف الشرقي للطريق المؤدّي إلى بغداد، والقتلة لم يكونوا أكثر من عشرين رجلًا، مسلّحين بحدائد صغيرة تطرح الأسرى أرضًا بطلقات وتترك وراءها رائحة بارود، وهي تقذف اللهب من أسطوانات ممدودة إلى الأمام كمنقار ديك رومي».

من ذلك المجلس، نهض جدّي سويلم الرابع وأحضر طستًا مملوءًا بالماء وضع فيه قطعة حديد غرقت فورًا وسط ضحكات العنّابيين وصراخ هادي بأنّ ذلك الحديد يدعى مركبًا وذلك الماء بحرًا، قالوا الرجل مجنون.

هادي العنّابي مقرفص في الزاوية يراقب الغرباء ويتذكّر، لن يستطيع أن يعبُر الدرب الشرقي، حيث المدينة والأضواء التي أحبها. هادي العنّابي مات بعدما دهمه الجنون وبدأ يأكل أعشاب البراري منقّبًا عن جبلٍ من ذهب في الجهة الغربية من القرية كان يعتقد بوجوده مع هياكل عظمية لقافلة ضلّت طريقها، وهي تجمع الخراج فدهمها سيل جارف وأغرقها وهدّد بيت مال الخليفة عبدالملك بن مروان بالإفلاس.

احتفظ العنّابيون بقبّعته المدوّرة وعصاه اللامعة المنتهية برأس وحش خرافي مغلق الفم، فتحوا حقيبته فوجدوا فيها أشياء غامضة تخشخش وتتبدّل

ألوانها وأقمشة غريبة.
العنّابيون استعاذوا بالله وأحرقوا كلّ شيء، وأنا ما زلت أبحث عن أصول الحكاية وسط ركام تاريخ يُروى مصادفة... عن بشر زائلين وخرائب.
لا تستطيع الحيرة أن تستوطن مخيّلتي، والأسئلة المغامرة التي ترتدّ تعلّمني أن أهادن قليلًا كي أجمع أصول الحكاية... بيوت، زرائب، تراب وتبن أبيض، قليل من القشّ والأغصان اليابسة، طوبة فوق طوبة ترتفع الجدران شرهة للكلس، ومسامير معظمها لتعليق الثياب والسجاجيد الملوّنة المستحضرة من مكّة مع قوافل العائدين المتباركين بمياه زمزم وبالحجر الأسود الصقيل.
رفوف لوضع أطباق النحاس الملمّعة بالقصدير والمركونة لأيّام الولائم العابرة، بيوت وأزقّة ضيّقة، زرائب أغنام تجاور إسطبلات البغال التي تجاور غرف النوم، كلّ شيء مخطّط كي تسمّى هذه الخرائب قرية أو مكانًا مأهولًا تعترف به المناطق المجاورة ودوائر الحكومة التي تطالب بجزية مديري المناطق وموظّفي الحكومة العابرين مع الدرك الذين ينهبون الصمت والطمأنينة بوقع حوافر خيلهم الرشيقة وجزماتهم التي تخشى الغبار كثيرًا.
العنّابية ضائعة وسط البراري، وبين أصابع شبه الجبال التي تحيط بها من الجهات الثلاث والمفتوحة على الجنوب بأراضٍ جرداء ومغاور، لم يتنبّه أحد إلى هذه البصقة على حدّ تعبير أحد الولاة حين قامت الحكومة في العهود العثمانية بتسجيل سكّانها المقدّرين بأكثر من أربعمئة نفر بحسب إحصاءات العام 1783، ولا يريدون الانتظام في أيّ سجلّ حتى سجلّ المساعدات الممنوحة للقرى الموالية للسلطان الأعظم.
بعد هذا المسح الشامل للبشر والأشجار والكائنات الأخرى من أغنام وماعز وبغال جرباء وأحصنة، حتى الدجاج لم تستطع الأقنان حمايته من الأرقام المتساقطة على الدفاتر السوداء الكبيرة، بعد هذا بثلاثة عشر عامًا ضلّت إحدى الدوريّات طريقها المعتاد ودهمها المساء أمام باب أوّل البيوت، تملّكت أفرادها الدهشة حين نظروا في الوجوه المسمّرة كموميياءات فُتحت أكفانها للتوّ، قرية لم تسمع بالكثير ممّا حصل للبلاد ولا تتدخّل بشؤون القوافل، وفهمت الدوريّة من أحاديث السكّان الذين أكرموا وفادتها، أنّ العالم يغلق حدوده بعد ذلك الدرب المتعرّج الذي يبتلع أولادهم وقد لا يعيدهم إلّا بعد سفر طويل.
عادت الدوريّة مع موظّفي المسح الشامل المتثائبين بملل أبدي، معتقدين أنّ الهواء في هذه البقعة يحمل مخدّرًا ويحيط الغرباء بقوّة نبذ مغناطيسية، تكثفت الحملات وانعقدت ألسنة السكّان الذين كانوا لفرط دهشتهم يلمسون العسكر ببزّاتهم ويستغربون الجزمات الطويلة اللامعة في ضوء الشمس الربيعية كالمرايا.

استجاب العنّابيون في البدء لكلّ الأسئلة المطروحة خائفين، وبعدما أيقنوا أنّ هذه الدفاتر المهترئة ستخلق شركاءَ جددًا لهم في محاصيلهم بدأوا يخاتلون ويغلقون الأبواب في وجوه الموظّفين الذين هدّدوا بالحكومة والعسكر المستعدّين لتكسير الأبواب وخلع أسيجة الزرائب وإطلاق الأسماء الجديدة التي أضحكت السكّان طويلًا.

بعد رحيل هؤلاء الموظّفين مع دفاترهم، تحادث العنّابيون وقرّروا الاحتفاظ بأسمائهم متناسين الألقاب المضحكة المدوّنة في قرار رسمي وممهور بخاتم الحكومة المركزية، واكتشفوا أنّ اللائحة تحمل في معظمها أسماء الأموات الذين استقرّوا في المقبرة الجديدة منذ نصف قرن.

العنّابية مرّة أخرى ألوان مبعثرة، وغبار كان ينفضه أبي محمد سليم عن دروع سلاحفه التي لا أعرف متى بدأ يجمعها ويملأها تبنًا أبيض لإغراء العناكب كي ترمي شباكها، وكان يردّد العناكب مقدّسة حمت الرسول وضلّلت المشركين.

أمي توافق وتبسمل ثمّ تحوقل، وهي ترى دروع السلاحف تصطفّ على الرفوف والعناكب مبتهجة بهذا الأمان، وكنت أرى ثياب أبي المغبرّة ويداه تعملان في تنظيف درع سلحفاة، فأقف في الباب بثيابي الخشنة أمصّ أصابعي وأغيب في تلك الألوان.

عالم لم أستطع فكّ رموزه، اخضرار واصفرار وعمود غبار ينزل من طاقة السقف المفتوحة بشكل مائل، أبي لا يتكلّم كثيرًا كعادته ولا يردّ على هزء أمي وتهديدها بأنّها ستقذف كلّ شيء إلى المزبلة وتخلّص الرجل من جنونه، وأخواتي فاطمة وعائشة وزليخة يتهامسن فأسمع هسيس ضحكاتهنّ وهنّ مبلّلات بالماء، فاطمة في الثامنة عشرة، أحبّ عينيها السوداوين ووجهها الأسمر الصافي وضحكتها وهي تدلق ما في علبتها من ماء في البرميل الكبير ومن ورائها عائشة الأصغر بسنة واحدة، ثم زليخة بمحاولتها اليائسة أن تكبر قبل الأوان، وتأنيب أمي لها ألّا تترك خصلات شعرها مفرودة من تحت الغطاء الأسود المدقّق بخرز أزرق.

أدخل منزلنا الواسع، ودروب العنّابية صامتة، يغطّيني الغبار، وذكريات بيوت مهجورة، زليخة وعائشة وحيدتان بعد رحيل فاطمة مع زوجها إلى بيروت حيث يعمل، قالت له أمي أنّ بيروت مدينة كبيرة والغرباء لا يرحمون أحدًا. فاطمة ابتهجت بالأثواب الناعمة التي أحضرها علي في حقيبة جلد بنّية أثارت أقفالها الأنيقة انتباه زليخة فبقيت طوال اليوم تعبث بها لتفتحها، تبتهج بملامسة نعومة جلدها ثمّ تعيد إغلاقها، فاطمة استدعت عائشة وزليخة وأغلقت الباب والشبابيك في الغرفة العلويّة وفردت أثوابها.

لبست جميع الأثواب، البرلون الأحمر والبرلون الأزرق أثارا فضولها بعريهما الفاضح وتعالت ضحكاتها عالية حتى وصلت إليّ وأنا أجوس في أرض الحوش الواسع وأدخل غرفة جدّتي، فاطمة تشرح لهما وتضحك، في ما بعد قالت لي

زليخة أنّ عائشة أيضًا لبست جميع الأثواب ووضعت أحمر الشفاه وأحبّت ملمس البرلون الناعم على جسدها وتنهّدت، وفي المساء جاء علي مع أهله، جلسوا في صدر الغرفة، وكان أبي في المقابل صامتًا غير آبهٍ بكلّ ما يحصل وخالي أبو الهايم الذي استدعته أمي، وأنا قرب العتبة أرى أمي المرحّبة البشوش، القوية وهي توافق على كلام خالي الذي أثنى على أخلاق علي، قائلًا أنّنا أهل أوّلًا وأخيرًا، والبنت مخطوبة له منذ سنة والزواج مناسب وأنّ إصرار أمي على ألّا تتغرّب فاطمة ويعود علي ويشتري قالب بيتون أو يشارك فيه قد صرفنا النظر عنه، فهو الرجل، والمرأة تلحق به أينما كان، أثنى الجميع على كلام خالي وأبي أثنى أيضًا، وفي اليوم التالي نزلت أمي مع فاطمة بصحبة علي وأمه وأبي علي إلى حلب، كي يكملوا تجهيز العروس. صباحًا، استيقظتُ على الجلبة وهم يُحَضّرون أنفسهم للسفر، فاطمة بثوب أبيض منقوش بورود حمراء مقصّبة، ضيّق يبرز ثدييها والجزء العلوي من رقبتها، وغطاء رأسها الأسود الجديد يبرز جمال وجهها بتدويرته النضرة.

من النافذة، رأيت أمي وهي توصي عائشة بي وبالجدّة وبالدار، وتحمل في يدها بقجة فارغة وتلحق بالسيّارة التي تُزَمّر منتظرة قدومها، عائشة تراني نازلًا من الغرفة العلويّة، حيث أحبّ الاستمتاع من هناك بمشهد الغرف السبع المصفوفة بانتظام مشكّلة الدار الواسعة، ومع أبي الذي لا يمانع أن ألمس دروع سلاحفه وأنام قربه وقربها.

عائشة في طريقها إلى غرفة جدّتي، حاملة الفطور وثيابًا نظيفة، أسمع صوت جدّتي الناعم، الهادئ، الواثق المرتجف قليلًا، وهي تحادثها من الداخل، أنا على العتبة وعائشة ترتّب ربطة الرأس لجدّتي التي يطالعني وجهها أينما ذهبت، وجهها الذي يختزن في تغضّناته أفراح الجميع وأحزانهم، مهملة أغلب أيّامهم المتكرّرة بانتظام كوقع أقدام ثقيلة على بلاط، فتغيب عن ذاكرتها التي تبعث الحيرة من عدم اقتراب النسيان منها، كأنّها صخرة غرانيت في عراء مطلق نقش عليها بإزميل فولاذي مدبّب التواريخ والوجوه والأسماء والروائح. جدّتي ليست لنا فحسب، كانت مباحة للجميع، جميع العنّابيين، ملّحت أجسادهم قبل أن تلفّهم بالخرق البالية، بوجهها الكتّاني المغبرّ عبرت أعمارهم جميعًا، وما زالت مثار جدل حول عمرها وعدد الغائبين الذين ودّعتهم وما زالت تنتظرهم، كأنّها ولدت مع الطوبة الأولى لهذه الخرائب، ولن تنتهي إلّا مع النشور وقيام عنّاب من رماده.

على العتبة، أقف وأراقب الحائط المطروش بكلس أبيض، جدّتي تنهض من نومها، مجلّلة بهذه الرهبة التي أراها في عيون الآخرين، فأقترب منها، تحتجّ عائشة وتحاول أن تمسكني من يدي لتبعدني منها، وتقول انهض فجدّتي تريد أن تفطر، تشير لها أن تتركني، وعائشة تغمزني كي أنهض فلا أنهض.

أحبّ ألوان ثيابها ورائحة يديها وهي تمسك بشعري، وعيناها تُفهمان أبي أن يكفّ عن عاداته السيّئة ويكبر ليصبح رجلًا مهابًا كجدّي أو في الأقلّ كأعمامي،

الذين رحلوا. أبي يجلس على العتبة ويحدّق في الفراغ، جدّتي لا تتكلّم إلّا قليلًا جدًّا، لا تخرج من غرفتها إلّا إلى مزار عنّاب الذي يعتقد الجميع أنّه الأب الكبير الذي استقرّ في هذه الأرض ومنح هذه السلالة شرعية الوجود.

جدّتي تروي الحكاية للمتحلّقين حولها. أحبّ النور المنبعث من يديها وأسمع الخرافات التي تروى عنها وأستمتع، بعد ذلك بدأت أؤمن بأنّ لها صلة حقيقية بكلّ ما يُحكَى عنها. كنت ذلك الذكر الذي يتهادى بذكورته، حاملًا هذا الإرث الكبير الذي بدأ يكبّلني وأنا أنسى رائحة البراري التي تفوح من مسامّي.

عادت أختي فاطمة مع أمي مساءً. أوصلهما علي ووضع الأكياس والبقج على عتبة الغرفة الكبيرة ثمّ عَرّج على غرفة جدّتي، قبّل يدها بوقار، تمتمت بأدعية طويلة وابتسمت حين رأت حيرته قبل أن يغادر مستأذنًا.

فاطمة انتظرت رحيله وغمزته، رأيتها تغمزه وهو يبتسم قبل أن يخرج من الباب الكبير شاكرًا دعوة أبي للعشاء، حملت الأشياء إلى الغرفة العلويّة، طردتني ولحقت بها عائشة وزليخة ثمّ بنات أخريات لا أعرفهنّ، أمي تضحك وهي تعبر أرض الحوش حاملة صحن تفّاح بيدها إلى غرفة جدّتي، أنا قرب جدّتي وأمي تروي كيف أنّها أجبرتهم على شراء أربعة شراشف، وثلاثة أثواب، وأشياء همست لجدّتي بها فضحكت وبان لي فمها العميق وأسنانها المحمرة، أمي أحضرت لي أيضًا بنطالًا وقميصًا ولجدّتي أشياء كثيرة لم أتبيّنها، أخبرتها عنها فهزّت رأسها، أصوات البنات في الغرفة العلويّة تثير فضولي والروائح المتسرّبة من الشقوق تأخذني إلى عوالم البهجة المفترضة.

قالت لي زليخة أنهنّ ألبسن فاطمة عروسًا وكانت جميلة، صفّفت أثوابها الجديدة وأرواب البرلون والألبسة الداخلية التي انتقتها بذكاء، لم يخطر في بالهنّ أنّ هذه الأشياء حين تُلبس تبرز الفرج بهذا الجمال، لم تقل زليخة كلّ الأشياء، لكنّني كنت أرى تنهّدات الأخريات، خصوصًا عائشة التي أعادت لبس سوتيان أكثر من مرّة وقالت لأمي أنّها تريد مثله تمامًا، ولمّا قالت لها حين تتزوّجين، احتجّت وقالت أنّها لن تتزوّج إذا بقيت أمي تردّ الخاطبين بحجّة أنّها تريد مطرحًا كيّسًا لها، وأنّها ستعيش وستغدو كبيرة ودميمة ولن تتزوّج كما تتزوّج العوانس برجال كبار أرامل أو على ضرّة، وهدّدت بأنّها لن تتزوّج إلّا من تراه مناسبًا، كانت عائشة في تلك الأيّام القليلة السابقة لعرس فاطمة مختلفة، مهمومة، مشغولة دومًا، متعبة من أعمال المنزل، ويوم العرس جلست قرب فاطمة وبُحّ صوتها، وجدّتي زغردت وغنّت وابتهجت. دخولها الغرفة العلويّة بصحبة خالي أبي الهايم الذي تفوح منه روائح طيّبة، حليق الذقن ومبتهجًا، أثار حماسة النسوة فتعالت الزغاريد، نهضت فاطمة بثيابها البيضاء ووجهها المطموس بالكريم وقبّلت يد جدّتي التي بدت أكثر شبابًا وجلست على كرسيّ وضع خصّيصًا لها قرب العروس.

جلستُ في حضن جدّتي وأتت أمي تنهرني كي أخرج، قالت أنّني أصبحت شابًّا، إلّا أنّ وجود خالي الذي جاء كي يبارك لفاطمة جعلني أتعلّق بيده وأذهب

معه إلى الغرفة الكبيرة التي جلسنا فيها مع الرجال المقرّبين، حيث كنت أسمع دويّ الطبل في دار أبي علي. لذّة أن تقتحم تجمّعًا نسائيًّا كهذا، حيث كلّ شيء يدعو للهيجان... صدور النساء وشعورهنّ والرغبة المتفجّرة في العيون التي تطالع ذكورتك وتستبيح عريك المكتوم، بدا لي منظر علي مضحكًا، وهو يدخل من باب بيتنا آخر الليل بصحبة إخوته ووالده وأصدقائه، ثمّ وهو مصمود قرب أختي على كرسيّ خيزران وُضِعَت فوقها مخدّة طويلة، وهو يطرق رأسه خجلًا من هذه الرغبات النسائيّة المسفوحة أمامه والمثيرة. أمه زغردت طويلًا، ثمّ نهضت فاطمة فسلّمت على أبي وقبّلت يده، ثمّ سلّمت على خالي وقبّلتني، كانت رائحتها لذيذة، ورأيت دموعًا في عينيها وهي تحتضن عائشة وزليخة ثمّ أمي وطفرت الدموع حين وقف علي وفاطمة أمام جدّتي التي نهضت وباركت هذا الزواج بكلمات قليلة لم أسمع منها أيّ شيء وسط هذا الهرج.

خالي أبو الهايم كان فاتنًا، وكنت أراه يتدلّه وسط النساء وهو يرقص ويغمزهنّ فتحمرّ وجوههنّ، رحل الموكب واكتشفت أنّ ثيابي الجديدة قد اتّسخت ولم يعد لها ذلك البريق الذي افتخرت به أمام أولاد العنّابية وأنا أعلّق ميدليّتي في عروة البنطلون ثمّ وأنا أفتح الأزرار العلويّة للقميص وأعيد إغلاقها من حين لآخر، ورأيت أختيّ وأمي يبكين ثمّ يضحكن ثمّ يستعددن للنوم بترتيب جديد، أختاي صعدتا إلى الغرفة العلويّة بعد أن نظّفتاها من وقع الأقدام وأنفاس النساء.

أبي لملم دروع سلاحفه في صندوق من التنك، ولم تمهله أمي كي يعيد ترتيبها فأخذته إلى الغرفة الكبيرة وفرشت له وسطها، أخرجت شراشف نظيفة من الصندوق العتيق، قالت لي زليخة في ما بعد أنّ عائشة كانت طوال الليل تئنّ وهي تمسك بفرجها وتتلوّى، وزليخة تحت الغطاء الخفيف في فراشها خائفة، قالت زليخة أنّ عائشة لم تهمد حتى أذان الفجر وكان صوتها مثيرًا، أنا قرب جدّتي كنت مبتهجًا بأسرارها، وابتسامتها. لم تنم حتى نمت وسمعتها تهدهدني كما كانت تفعل دومًا، إذ إنّني كثيرًا ما كنت أترك الغرفة العلويّة وأنام قرب قدميها على فراشي الصغير الممدود، ما زالت تلك الرائحة عالقة بي، رائحة طيّبة تنبعث من جسدها، لا تنام حتى أنام ثمّ تستيقظ فتتوضّأ وتجلس متربّعة كأنّها تحادث شخصًا ما، كنت أسمع همهماتها وهي تحادثه، قِيلَ لي في ما بعد أنّ جدّتي تفهم لغة المطر وهو يخبرها بأحوال أبناء العنّابية البعيدين، سألتها حين رأيتها تفتح الباب وتجلس قرب العتبة حين يهطل المطر رذاذًا ناعمًا أوائل الخريف، لم تردّ ولم تعجبني نظرتها، كأنّها لم تسمع، وأيقنت حقيقة أنّها تحادث المطر، لذا كانت أحيانًا من دون سابق إنذار تأمرني بأنّ أغلق الباب في وجهه وتطرق رأسها حزينة ثمّ تنهض لتتجوّل في أنحاء الغرفة، وفي المساء تمنع الزيارات، تخبر الجميع بأنّها لن تستقبل أحدًا، وحين كانت أمي تنظر إليّ كنت أتشبّث ببقائي، وجدّتي كأنّها تستثنيني دومًا فأكون

حارسها، خادمها الصغير، وحافظ أسرارها ومدوّن الحكاية التي لا تدوّن وأنا ما زلت أدور في الأزقّة المتربة ألتقط أنفاس الماضين وأرتّبها، أخطّ على البياض الكلمات، أبعثر المفردات وتتقاطع الجمل فلا أعرف أين تقودني قدماي، أبحث عن أشياء هادي العنّابي وأرسم وجهه صافيًا، طويلًا، نظيفًا، ويديه الأنيقتين بأصابع طويلة، أصل إليه وأقف قربه، أسأله أين البحر؟ فيشير بيده ويقول اجلس قليلًا، أقول له لا وقت لديّ أريد اللحاق بالقافلة الذاهبة إلى البحر.

هادي العنّابي مُقرفص في الزاوية يراقب الغرباء، جالس على كرسيّ وهو يقرأ شيئًا ما، يقول لي من هنا طريق جبل الذهب، أسير وراءه. وهناك، في الفسحة المعدّة لكلّ الاحتمالات، رجال لا نعرف وجوههم، أسأله من هؤلاء؟ فيلكز رجلي أن دعهم، ويحاول ألّا تلتقي عيناه بعيونهم، احفر هنا مشيرًا إلى مكان منخفض، يقول حين استراحت القافلة هنا كانت تحمل في الخروج خراج العراق، أحفر، وهادي يحدّق بعيدًا وينسى، فيسألني ماذا تفعل؟ أذكّره بأنّ الكنز هنا وجبل الذهب يبدأ من هذه النقطة، يضحك ويطلب منّي أن ألحق به، ندخل العنّابية ويجلّلنا الغبار.

هادي العنّابي مُقرفص في الزاوية يُراقب الغرباء، أمضي وحيدًا، الآن يحقّ لي أن أرمي السلام على الرجال الممتلئين بالفراغ والملل، فيردّون السلام ويتابعون التثاؤب في ظلال الجدران، أمامهم الفسحات والغبار والقيظ، في طريقي إلى مغارة أحمد الجمل، حيث استوطن أخيرًا بعد مشاحنات دائمة مع علي الجمل والده ومع كلّ سلالة الجمل، حمل أشياءه في كيس خيش صغير، رتّب مكانه في مغارة قريبة من الدرب الشرقي، تاركًا وراءه كلّ العنّابية، بغبارها وسأم رجالها.

أمام الباب، أو ما يسمّى الباب، تتراءى لي الأشياء، أحمد جالس في مشغله المؤلّف من كرسيّ حجري عليه طرّاحة قطن ذات قماش أزرق جميل وطاولة صغيرة، تتناثر عليها مفكّات للبراغي ودبابيس وروائح سوائل طبّية وفي الزاوية مجموعة فَراشٍ وألوان زيتية ومائية.

ينهض أحمد مرحّبًا كعادته، كالرجال نشرب الشاي ويخبرني بأنّه يفكّر بالسفر وأخبره بأنّني أبحث عن آثار هادي العنّابي، يضحك ويخبرني بأنّ جدّتي أم مسعود تعرف كلّ شيء، ولديها أشياؤه، لكنّها لا تسلّم منها شيئًا ولا يعرف أحد أين تخفيها، ويتابع أنّ أهمّ الأشياء التي تركها هادي خريطة تُبَيّن موقع جبل الذهب الذي كان يعتقد بوجوده، وأنّ العنّابيين كلّهم لا ينسون الموضوع، لكنّهم يخافون أن تصيبهم اللوثة. لأحمد طبع أنيق في التعامل مع الأشياء، عينان حادّتا الذكاء، يدان من ذهب اعتادتا جمع الفراشات والعقارب وأحجار الصوّان في صناديق خاصّة يغطّيها بشبك معدني فارشًا قعرها بالتبن وأوراق التوت غير آبه بشتائم والده الذي كان يعتقد بجنون ابنه محتجًّا على بعثرة التبن وأوراق التوت والتفريط بدود القز، وكان حين يزورنا يصعد إلى غرفة والدي يتأمّل دروع السلاحف ويعرّج على جدّتي التي تخصّه بمكانة خاصّة بين جميع أبناء

جيلنا، فغدوت وإيّاه ورينَي الأسرار، تجلسه قربها وتحادثه، تبقيه للغداء أو للعشاء، وكثيرًا ما كان ينام في غرفتها.

تصاعدت اتّهاماته لوالده بأنّه المسؤول عن موت بدريّة أخته التي قضت نحبها بربو مزمن. كان يجعلها أيّام الشتاء الصقيعية تفتح الباب لتدخل نسيمات هواء عابرة تنقذ تفحّم رئتيها، وعلي الجمل يرفض عرضها على طبيب وعلاجها بخلًا، لا خوفًا من العار الذي كان سيجلّله لو كشفت بدريّة جسدها الذي بدأ يتفسّخ أمام رجل غريب.

صنع أحمد أقنعة خاصّة من أكياس الطحين البيضاء ووزّعها علينا، نحن ستّة رجال صغار، مكثنا في زاوية البيت، الظلام الكثيف ووجوهنا مقنّعة، أحمد شرح الخطّة، قائلًا إن لم تنجح فسأقتله وأخلص منه. عاد علي الجمل أواخر الليل، وأطلقنا جميعًا الزغردة والهمهمة بلغة الجانّ والشياطين الآمرة، زعقنا بأصوات ممطوطة كأنّها آتية من سراديب الأرض، وضربنا الأرض بأقدامنا وحين عجّ التراب قفزنا فوق السناسيل واختفينا، ذعر علي الجمل وارتبط لسانه من هول المفاجأة، دخل إسطبله وانتزع من الأرضيّة صندوقه الحديدي، استلّ منه بضع ليرات وأعاده إلى مكانه، وقبل شروق الشمس كانت بدريّة ملفوفة ببطّانية قذرة على عتبة طبيب المنطقة الذي لم يؤجّل بدوائه المتأخّر الموت الذي سحبها من يديها الزرقاوين بعد شهر ونصف، غضبت جدّتي وبصقت على علي الجمل وهي خارجةً من غرفتها، غسّلت بدريّة وفرشت الكفن بأوراق الحبق وأغصانه، الحبق الذي كانت بدريّة وهي صبية يانعة تزرعه بكثرة بعد موت أمها بشكل مفاجئ بعد أن سكنها مرض غريب لم يمهلها طويلًا، وقِيلَ حزنت على ابنها صالح الذي رحل بعد أن اتّهم بجريمة قتل أحد الرعاة من قرية مجاورة، وأنكره والده فهرب وهو يقسم ألّا علاقة له بما حدث وانقطعت أخباره، بعد ستّ سنوات عرفنا أنّه يعمل مستخدمًا لصبّ القهوة عند شيوخ إحدى العشائر القوية، مقابل الأمان الذي يحيا به وسطهم وأنّه مشتاق إلى العنّابية وإلى إخوته وأم مسعود وأمه.

بعد دفن بدريّة، هرع أحمد إلى الإصطبل، حيث رأى أباه يخرج صندوق نقوده، حفر الأرض وأخذ الصندوق بينما كنت أحرس له الطريق. أعاد كلّ شيء إلى مكانه بعد أن وضع حجرًا ثقيلًا مكانه، وذهب إلى حلب. علي الجمل لم يكتشف أنّ كنزه ضاع منه إلى الأبد إلّا حين رأى أحمد وهو يبني قبر بدريّة، مرمر أسود صقيل وشواهد منقوشة ومحفورة بعناية فائقة، ثمّ وهو يوزّع الصدقات على فقراء العنّابية ليترحّموا على بدريّة التي أصبح قبرها اللامع المرتفع أحد أهم معالم العنّابية. قال لي أحمد أنّ الكنز كان ستّة آلاف ليرة أنفقها جميعها، ولم يخبرني بأنّه ذهب للقاء أخيه صالح ثمّ تقاسما الكنز الملفوف بعناية بأكياس نايلون وأقمشة مهترئة، عاد أحمد أكثر شراسة إلى مغارته محمّلًا بصناديق ألوان وكتب غريبة لم أستطع فكّ رموزها، ومعدّات

فهمت في ما بعد أنّها عدّة نحت ورسم، ومسجّلة تعمل بالبطارية، هدّد أباه بأنّه سيذبحه إن وطِئ عتبة مغارته، أو أصاب قبر بدريّة بأيّ أذًى.

مَلِكُ الليل أصبح أحمد، في ضوء الشموع ولمبة الكاز وصوت المسجّلة الخفيف في الزاوية، يفرد الكتب أمامه ويقرأ بلغة فرنسيّة يجهلها، قال لي أنّه يتعلّمها، ويرسم على كرتون أبيض ويمزّقه، ترهبني أصابعه وهي تفرش الألوان ودخّان سيجارته يتصاعد دوائر تغطّي فضاء الكهف وتستوطن رائحة التبغ الأشياء، غدا شخصًا مختلفًا في نظر الجميع، محترمًا بحذر، ومصدرَ رعب لوالده ولسلالة الجمل، لا يتمهّل حتى يسحب سكّينًا لامعة مهدّدًا كلّ مَن يزعج صمته من أعمامه المدافعين عن أخيهم الذي كاد يفقد عقله. يجلس كلّ يوم في الإصطبل ويتأمّل الحفرة ثمّ يتابع نهاره قرب قبر بدريّة يلامس الرخام الفاخر ثمّ يرفع يديه إلى السماء متمتمًا بأدعية طويلة لا تنتهي.

أجوس في المكان الضيّق، المترامي. ليل العنّابية مخاتل، صاف، بطيء في انسحابه كما كلّ شيء هنا، متمهّل، الحياة والبشر والنبات. تنفّستُ ملء رئتيّ وتركت أحمد غارقًا في كتبه الفرنسيّة بعد أن أخبرني بأنّه بدأ يستطيع فهم بعض جملها. درب العنّابية أراه كأنّه مرصوف بأضواء خفيّة تغريني بالرحيل وترك كلّ هذه البقايا العابثة بالزمن ومفردات الفراغ، كأنّني لا أعرف هذه البيوت المنتصبة أمامي والمُنارة بالأضواء الخافتة وأصوات الساهرين المتباطئة، وحدها شجرة الزعرور تهدل أغصانها القليلة وتبدو حارسة الليل، وتنبئ بصمودها الطويل في وجه العواصف والسيول وتغيّرات الزمن.

مرقد الخفافيش وجلود حمير القرباط الذين ينصبون خيامهم كلّ عام حولها، يعرفون خدوشها ونزواتها التي لا تنتهي، وصايا عنّاب تتساقط من شفتي جدّتي وصوتها يحاصرني، وكنت أظنّ أنّها تساقطت من جيوبي المثقوبة، وضاعت في أوحال الطريق، أسمع قرع نواقيسها فترعبني وتتركني خاويًا، باحثًا عن معنًى لكلّ هذا الذي يسمّى قرابات ومحرّمات ووصايا.

تفرد أم مسعود غطاء رأسها الأسود البالغ طوله أكثر من عشرة أمتار، الغطاء المزخرف الحواشي بالخرز الأزرق والأحمر والأصفر، تنزعه للغسيل، جميعنا نساعدها، تبتسم والأولاد مبتهجون يمسكون بطرف الغطاء ويذهبون إلى آخر الغرفة، عائشة تلملم الغطاء وتضع الغطاء الآخر النظيف على رأسها فتشعّ فرحة، تمسح لها حذاءها الأحمر الجلدي الذي أحضره لها أحد العنّابيين منذ خمسين سنة بحسب ما تتذكّر أمي، قائلة كنت من دون ثديين حين عاد عبّود من سفره البعيد وقال أنّه وصل إلى منبع البحر وصدّق العنّابيون أنّ البحر له منبع، فنجروا عيونهم وفغروا أفواههم وهم يستمعون إلى الأحاديث عن المدن والنساء اللواتي يتكلّمن وهنّ عاريات تحت الشمس، يتمرّغن على الرمل كالبغال التي تحكّ جلودها بالمزبلة، عبّود يمدّ رجليه ويتحدّث بصوت بطيء قائلًا أنّه ترك هناك ثلاث بنات وزوجة ودكّانًا مليئًا بالأقمشة والخرز.

بعد ستّة أشهر، عاد عبّود ولم يحتمل انتظار موته في العنّابية وضاعت أخباره. تفوح من جدّتي رائحة غريبة كرائحة القرفة، تتبارك بها عائشة السمراء ذات النهدين الصارخين، حيث أرى يديها تمتدّان إليهما تداعبهما، تفركهما، مصدرة أصواتًا غريبة، كانت تبدو دومًا منهمكة، شاردة ومبتهجة بنظرات الرجال، هاربة من تلميحات أمي المحذّرة، جميعنا يلفّنا عطر الحنّاء حين تفرد جدّتي جدائلها البيضاء وتهزّها كمن يسرق التوت الشامي قبل أن تلفّ لها عائشة رأسها ليصبح كرة قماشيّة سوداء تتدلّى من مركزها كومة خرز على شكل كلّة حديدية تحملها عظام ناتئة وقدمان تجرّهما ببطء، تعيد تشكيك الإبر والخيطان في أماكنها المعتادة وتردّد نظّفوني، نظّفوني مبتهجة بالعيون المحيطة بها من كلّ جانب، نظّفوني فأقذار العنّابية كثيرة، تنظّفها عائشة ولا تستطيع رؤية أصابع قدميها، تقول كأنّ غشاوة على عيني تصيبني بالعمى أو كأنّ ستارًا من الظلمة والضباب يحيط بأصابع قدميها، تمسك بها وتعدّها فتفلت دومًا، عائشة لم تعد إلى الإمعان طويلًا في تلك الأصابع بعد أن رأت في عينيها نظرة التحذير التي نعرفها جميعًا.

ليل العنّابية له مذاق خاصّ ببرودته، أتدثّر وأغوص في الأزقّة تاركًا ورائي مغارة أحمد، أغوص كأنّني أتجسّس على الأنفاس المتلاحقة، أرى أيادي النساء الخشنة تحيط بآباط الرجال العراة، أسمع الهمهمات، تلفحني حموضة الهواء المشبع بالأنين الشبق وتفرقني أطياف اللذّة التي أحسستها أوّل مرّة حين صعدت الجبل مع الرعيان، أمامنا سلمان قائد متوّج بالشوك، وأحمد الصامت، الشارد مع نسائم أوّل العصر، لم أفهم من اللغط وغمزات سلمان مع ابن حمّود شيئًا إلّا حين رأينا عضوه متدلّيًا في الفضاء وابن حمّود ممسكًا بغنمة بيضاء، رافعًا إليتها محتضنًا رأسها وحشرجات حنجرتها تتناثر مع المخاط المختلط بالتراب، معطّلًا فرارها في البراري التي كانت لاهثة، وتنفتح من دون حدود على آبار الرغبات، غاب سلمان في نشوة صامتة، قابضًا على صوف الغنمة كمن يقبض على خصلة شعر امرأة، منفلتًا على أكتاف عارية والبراري تركض حول الأشقياء الأصغر سنًّا صارخين بسلمان بدهشة طيّبة أبو السين، أو خوفًا من المجهول، زوائدنا انتصبت في عراء اللذّة العابرة وشكّلت مع مكلّابياتنا أعمدة قائمة الزوايا، لم أتخلّف عن دوري ورفعت رأسي في اتّجاه الشمس الغاربة منتشيًا بلذّة الولوج الأوّل والقذف الأوّل، متخيّلًا شكل أنثى تعبر ساحة العنّابية وتطرطشها المياه المندلقة من العلبة ومتابعًا الوهم إلى أن رأيت آخر قطرات السائل اللزج يمتزج بالصوف الأبيض، وسمعت صوت الغنمة مناديًا المجاهيل والبراري أن تستيقظ الآن وتغلّف المساء والجبل وعيون الأغنام المحملقة بهذا العار الذي يتساقط في الجوف الدافئ، الإحساس بالفحولة غمرنا جميعًا فتبادلنا كيس التبغ الوحيد الذي يحفظه سلمان في زنّاره مع خنجر وطلقات فارغة، عرّشت فحولتنا على أسطح المنازل وغمرت دروب العنّابية، أنا أكثرهم جبنًا في القفز فوق السناسيل

وتمجيد أزرار الرمّان النابقة على صدور البنات، أنا الذكر الوحيد في مجمع نساء تملأ أنفاسهنّ الغرف الواسعة الخاوية، طشيش الماء على العتبات له رائحة أنثى متطيّبة، منتظرة الذكر الآسر المضطجع على سرير مفروش بالطيلسان الأبيض وتحت إبطيه أسرار الفحولة، خجلت من عظامي الفارغة وهدوئي المكابر ولم أستطع النظر في عيني جدّتي أيّامًا عدّة، وفي حلب بقّعت الشرشف الزهري بآخر قطرة مني قذفها العضو المرتخي قبل أن أغادر المرأة ذات الوجه الذي أحسسته أزرق ومترهّلًا وأقرب إلى هشاشة الإسفنج، أشعلتْ سيجارتها ورأيت ضحكتها الساخرة من قرويّتي وهشاشتي التي لم تحتمل معها أكثر من لمسة واحدة ودخول واحد، ففتحت النافذة الداخلية وأعلنت انتهاء الجولة بصوت سمعته القوّادة الضخمة الجالسة على طاولة خشبية أمام باب أحد منازل بحسيتا التي ودّعتني متغزّلة بقامتي وفحولتي وأنّها عرفت رغبتي في الفرار نحو العنّابية بحثًا عن سكينة لأعماقي المضطربة، وبحثي عن تلك الذكرى البعيدة حين انحدرنا من الجبل، وفي اليوم التالي، رسم أحمد الجمل غنمة وحين أقام مملكته في كهفه المستقلّ علّق اللوحة على الجدار واشترى غنمة بيضاء ربطها في المغارة المجاورة، وبدت كاللوحة بوجه امرأة جذّابة معلّقة قرب الفراشات والأنواع الكثيرة لأحجار الصوّان وأذيال الحمير، وفي الزاوية الأخرى الغرابيل التي قايض بها القرباط مرّة على ثلاثة تماثيل ورسم بورتريه للقرباطية نشمة، جدّتي تحكي الحكاية وأنا قربها دومًا، بشعري الناعم وصوتي الضعيف، ومن الطرف الآخر أحمد وصمته المكابر.

نحن مدوّني الحكاية والأولاد المتحمّسين، الحافظين لوصايا عنّاب، نتحسّس البساط الممدود وسط الغرفة الكبيرة التي تبدو نقوشه المتداخلة بروعة كأنّها فسيفساء ورثتها جدّتي من عنّاب بعدما أصابه الجدري وقبل أن يتوجّه إلى الجهات الأربع، باحثًا عن أولاده الأربعة. الهواء الصيفي المنعش والصمت المهيمن على العنّابية التي تبدو تحت هذه الوطأة لوحة صامتة أو أمكنة مهجورة بدأت تتبرّم منها عائشة بعدما أتت فاطمة لزيارتنا مع علي من بيروت، بدت وهي تدخل باب الدار الواسع امرأة مختلفة، نضرة، نظيفة، ترتدي ثيابًا جميلة ولا تشبه تلك التي كانت ترتديها، تفوح منها روائح عطر عبقت في فضاء الحوش، تشمّمته حين احتضنتني وقبّلتني وقالت أنّها مشتاقة لي جدًّا وأنّني كبرت، ثمّ قبّلت عائشة واحتضنتها بقوّة وزليخة تتمسّح بأثوابها فتنبّهت إليها وقبّلتها قبل أن تخرج أمي من غرفتها بعد سماعها صوت الضحكات، كانت جدّتي مسرورة، قرأت الفرحة في عينيها، كأنّها غائبة منذ قرن قالت أنّها ستعيّد هنا ثمّ تعود مع علي إلى بيروت، حاولت حمل حقيبتها فلم أستطع وانتبهت عائشة المنهمكة بتأمّل فاطمة التي قبّلت يد أبي غير الآبه كثيرًا بهذا الحضور المفاجئ، هو المُنشغل بدروع سلاحفه وعناكبه والبغلين اللذين عادا إلى الإصطبل مع اقتراب أوّل الشتاء وتحضير التبن والشعير علفًا

للشتاء، خلعت فاطمة المانطو الأزرق الفاتح وتركت حذاءها الجلدي الأسود اللامع قرب العتبة، أمي انشغلت فورًا من دون أن تدري ما عليها أن تفعل، بدت مرتبكة لأنّها لم تسأل عن علي الذي دخل متأخّرًا، متذرّعًا بأنّ الرجال أمام بيتنا أوقفوه وسلّموا عليه، وقالت فاطمة أنّها ستنزل عندنا مع علي لأنّ بيتهما ضيّق وصغير. رحّبت أمي بالطلب ورأيتها تتفحّص بطن فاطمة، فاطمة سمنت قليلًا وأخبرت أمي بأنّها لا تنوي حاليًّا أن تنجب ولدًا، أمي ردّدت كلمات غاضبة ثمّ رأيت يدها وهي ترسم في الهواء أشكالًا لم أعرف ما تعني، وفاطمة بصوتها المنخفض تشرح شيئًا مبهمًا وقربها عائشة تشارك في الحديث كأنّها تناصرها، في ما بعد خلال السهرة أتى أهل علي، إخوته الثلاثة اقتربوا منّي، فتفاهمنا قليلًا ثمّ تشاجرنا وارتفعت أصواتنا، اتّهمت أخاه فواز بأنّه يغش بالكعب ويشلّحني عجو التمر وأنّه يتزاغل مع أخويه ويتآمرون عليّ، فواز يُقسم بالله ورأسَي أبيه وأمه أنّه لا يتزاغل وأنّنا كالإخوة جميعًا، خسرت ثمّ ربحت ثمّ خسرت وكدتُ أغصّ حين رأيت كلّ العجو الذي أمامي أصبح أمامه، رأيت البهجة في عينيه كمقامر عتيد ولم أرَ بدًّا من القول لهم أن يذهبوا من بيتنا وأنا أفاخر ببنطلوني الذي أحضرته لي أمي. بعد فشل خطّتي بطردهم إثر تدخّل والدتي المؤنّب اقترحت عليهم أن نتبارز بالحساب فانسحبوا فورًا من جدول ضرب السبعة الذي كنت أحفظه غيبًا، رأيت خالي أبا الهايم الذي مدّد رجليه مرتاحًا في السهرة وهو يستمع إلى علي ويذكّره بأماكن كان خالي قد زارها ذات يوم، ويغمز علي ليسكت عن طبيعة هذه الأماكن، لكنّ خالي دومًا مفضوح، إنّه يشير لي أن أقترب منه فأترك ضيوفي وأهرع إلى جانبه، يمسّد شعري ويوشوشني بكلمات غامضة لم ألتقطها، الجميع استمعوا إلى علي، كان خجولًا وغالبًا ما كانت فاطمة تكمل الجمل وتأخذ بزمام المبادرة وتقرّر أنّهما سعيدان في بيروت ولن يعودا الآن، وأنّ بيروت مدينة ثراء وعلي سيحاول أن يعمل لحسابه في ما بعد، تململت قرب خالي أبي الهايم وكنت أرى ضيوفي الثلاثة وهم يتثاءبون، بعد ذلك يضطجعون قرب أمهم ويقفون، أمهم أعلنت أنّ السهرة انتهت وشكرت حسن الضيافة ودعت الجميع لزيارتهم، أمي تمسّكت بهم ولكنهم كانوا قد نهضوا جميعًا، أمي بالغت في عبارات المجاملة وكان صوتها عاليًا، وهي تودّعهم خارج أرض الحوش بعد أن طلبت من خالي أن يبقى لأمر مهمّ. تجمّعنا جميعًا حوله، متباهين بأناقته وروحه اللطيفة، فاطمة توشوشه وهو يضحك، عائشة على كتفه تحاول الاستماع إلى ما تقوله فاطمة وعلي يحاول الخروج من عزلته بأن يحادث أبي الذي يخبره بأنّ البغل البنّي يعرج وأنّه أجرى له عملية جراحية في رجله اليمنى وسيفك له الضمّاد بعد ثلاثة أيّام وأنّ الموسم هذا العام ليس كما يرام والأمطار قليلة، أبي تابع شروده بعد ذلك ولم يجرؤ علي على أن يسأله عن أوضاع سلاحفه، لكنّ أبي قال أنّه أتى بسلحفاة من الجبل ذات لون أخضر مبقّع بالبنّي وقد التقط معها ثلاث سلاحفِ صغيرة رتّب لها في الإصطبل مكانًا

في الزاوية البعيدة من المعلف كي لا تطأها حوافر البغلين، كنت أنسلّ كلّ يوم إلى الإصطبل لأرى السلاحف الصغيرة وأرى محاولاتها اليائسة للإفلات من الرائحة النتنة في هذا المكان الحبيس، حيث روث البغلين وبولهما ورائحة التبن المهزوز بغربال ناعم، أمعن في مراقبتها وأمسك بيدي عصا طويلة أغرزها بالرؤوس التي تنسحب فورًا وتبقى الدروع، لا شيء إلّا الدروع الصغيرة وكأنّي أسمع نَعْوَصات تشبه نعوصة الفئران، أبي أحاط مكانها باحترام بالغ أغضب أمي لكنّها لم تقذفها على طول يدها كما هدّدت، وقدّرت أنّها ستثير أبي الساكن وتجعله كتلة غضب أعمى أو أنّها لا تريد أن تحزنه كيلا تخدش عالمه الداخلي وبذكائها تناست الموضوع، كأنّما استأنست بهذه الكائنات التي قالت جدّتي أنّها مباركة ولا يجوز إيذاؤها، وكانت دومًا تعارض عمليات القتل التي يمارسها أبي عليها كي يُفرغ دروعها، استمرّ الحديث وعادت أمي قائلة أنّها حضّرت الغرفة لفاطمة وزوجها كي يناما وفرشت لي قرب جدّتي، نهض علي واستأذن الجميع للنوم، فاطمة قالت أنّها ستلحق به وأنا بقيت متشبّثًا بخالي الذي قال مداعبًا أمي: هاتِ ما عندك. أمي من دون مقدّمات أخبرته بأنّ أم علي لمّحت لها إلى أنّها على استعداد لأن تزوّجه ابنتها أمينة إذا ما أراد الزواج، وتمادت أمي في الرجاء والتمنّي أن ترى له أسرة كباقي الناس، وقالت أنّه تجاوز الأربعين ولم يعد صغيرًا أو مناسبًا أن يبقى هكذا كالطير الحرّ من شرموطة إلى شرموطة في حلب وأنّ أولاده أحقّ بفلوسه، جميعنا صامتون نراقب انفعالات خالي الذي اعتاد هذا الحديث، لكنّه لم يكن ليؤذي مشاعر أخته الكبيرة التي تولّت شؤونه بعد وفاة جدّتي، أنهت أمي حديثها وأرادت أن تستمع إلى خالي الذي أشعل سيجارة، وطلب من عائشة أن تعدّ له قهوة فنهضت بسرعة كأنّها استبشرت خيرًا بطلبه هذا، مدّد رجليه كأنّه يبحث عن الكلمات المناسبة ليخبرها بأنّه لا يريد الزواج الآن ومصيره أن يقتنع بهذا ويعود إلى صوابه، وأردف أنّ هذه العروس لا تناسبه فهي لا طيز لها ولا أثداء. انفجرت عائشة بالضحك ثمّ تلتها فاطمة وأنا كالأبله أيضًا ضحكت، أمي انزعجت قليلًا وأعادت محاولة إقناعه ومناقشة الأمر معه بهدوء وحكمة كطفل صغير ترجوه أن يخفّف طيشه، أبي انسحب إلى فراشه الممدود في الزاوية وسمعنا شخيره بعد دقائق، من تحت اللحاف رأيت رجليه اللتين يصرّ على عدم تغطيتهما كي تتنفّس فسوخهما. خالي يحبّ قهوة عائشة وجميعنا نحبّ أريحيّته وطبعه المرح وثيابه النظيفة والأنيقة التي ينتقيها بعناية فائقة من أفخم محالّ حلب حين يذهب كعادته بعد الموسم ويعود محمّلًا بحقيبة هدايا لأخواتي وأحذية جديدة لي ولأبناء خالتي السبعة ولأختيه وصهريه، كنّا نحبّ كرمه ولا نفهم سبب انزعاج أمي وخالتي من عزوبيته، السهرة امتدّت وعائشة وزّعت الفناجين على الجميع باستثنائي، وسمعته يقول لأمي أنّه بعد صبحة لن يتزوّج، أمي تعيد المحاولة اليائسة وتخبره بأنّها لن تتوانى عن أن تخطب له التي يرغب فيها، وزيادة في المداعبة قال لها أن تخطب له نشمة، أمي كأنّها تريد

أن توصل الحديث إلى هذه النقطة فسمعتُ صوتها يعلو مندهشًا مستنكرًا: – مين نشمة القرباطية؟!

فأجاب خالي:

– نعم، أنا أريد هذه.

أخواتي قهقهن وخالي ابتسم، أمي ضربت كفًّا بكفّ وتمتمت: – أنت ستبهدلنا!

ارتشف خالي القهوة وحمل علبة تبغه، طالبًا تأجيل الموضوع إلى الشتاء المقبل، وهو يفكّر جدّيًّا بالزواج هذه المرّة، في ما بعد أخبرتني زليخة بأنّ أمينة قالت لها أنّها تحبّ خالي أبا الهايم وتتمنّى أن يخطبها، وقالت أنّ فاطمة كانت لا تترك علي ينام حتى الصباح، وهي تخبطه على صدره حين يتراخى في الفراش وصوت تنهّداتها وصل إلى مسامع جدّتي أم مسعود التي استدعتها وعلّقت في رقبتها شيئًا يشبه الحجاب كي يحفظها ويخفّف شهوتها، كما عرفت في ما بعد أنّ لأختي طقوسًا خاصّة في الجنس كانت تجعل علي أضحوكة ورجلًا عاجزًا عن مجاراة شهوتها وإرضائها، وأنّ جارتها اللبنانية في بيروت تعلّمها كلّ يوم شيئًا جديدًا وتعطيها مرهمًا تدهن به فرجها وساقيها وحلمتيها اللتين لا يكاد يلامسهما المرهم حتى تتفتّقا وتشمخا في عراء اللذّة، وهمست أمي لعلي إن حبّلها ستهدأ وتنشغل بالولد، أطرق رأسه بخجل كأنّه عارٍ تمامًا الآن أمام حماته التي اكتشفت كلّ شيء طوال الأسبوع الذي انتهى ولم نحسّ به كما قالت أمي وهي تودّع فاطمة وتعدّد وصاياها أن تصون بيتها وزوجها ويعودا بسرعة وألّا يتأخّرا في إنجاب ولد يملأ عليهما حياتهما، هامسة في أذن علي كلمات لم يسمعها أحد بينما كانت فاطمة مشغولة بحديث جانبي مع عائشة وزليخة. جدّتي أيضًا قبّلت فاطمة وأعطتها زجاجة صغيرة، أوصتها بأن ترميها في بحر بيروت من دون أن تفتحها. أتى الكثيرون لوداعهما، السيّارة الوحيدة كانت تزمّر وتستعجلهما، اختلطت الأصوات وكنت من بعيد أراقب هذا الحشد من الأقارب كأنّي أراه أوّل مرّة أو كأنّه سيراهما آخر مرّة، وفي ما بعد عرفت أنّ العنّابيين لا يوقنون بعودة مَن يسافر، كلّ مسافر غائب ولن يعود إلى أن يثبت العكس، دربهم المؤدّي إلى حلب سمّوه درب الغياب وتطيّروا منه كثيرًا، الكثيرون فُقِدوا وتركوا آثار خطواتهم الضائعة، لا يستطيع مُقتفو الأثر أن يقتفوها لأنّها تنقطع عند إسفلت الطريق الرئيسي إلى حلب، وقبل أن يعبّد هذا الطريق كانت آثار خطواتهم تضيع عند ضفاف نهر عفرين المنحدر من الحدود التركية وهناك يضيع كلّ شيء وتعود الأنفاس هي الجديرة بالالتقاط.

حالة من الذكرى تتلبّسني الآن، وأنا أحاول رسم شكلٍ جديدٍ للأزقّة وللنوافذ ولصمت الحجارة في ليل العنّابية. أتجاوز باب بيتنا الواسع العريض ذي الأقواس الحجرية المتعالية ليفسح مكانًا لدخول الرجال الممتطين ظهور البغال والعائدين من حرث الحقول، أتابع طريقي تاركًا خلفي أنفاس أمي وهي

تحاول أن تفتّش في صدر أبي عن صدًى لأيّامه الماضية حين كان رجلًا لا يجمع الدروع ولا يهتمّ بتكاثر السلاحف ولا يغريه كثيرًا أن يرقد قرب بغله مريضًا، وبيده فانوس صغير مراقبًا آلامه ومصغيًا إلى أنفاسه، أمي تحاول أن تتذكّر تلك الأيّام التي كان فيها أبي ابنًا مهابًا لأم مسعود، حين كان يوغل الليل كانت تقترب من رائحة تبغه وترجوه ألّا يطيل النظر في الفراغ، كان الأمر طبيعيًّا بالنسبة إليه ولم تستغرب جدّتي التحوّل الذي رافق أبي من شابّ وسيم صارم إلى رجل كهل لا توحي كهولته بشبابه، أمي تعيش على تلك الذكريات حين كان يأتيها ليلًا، يأمرها بأن تضع المياه على النار كي يستحمّ، بعد أن يكون قد بلّل كلّ شيء، مسامّها وشراشف فراشها وشعرها وأصابعها ويتركها امرأة ممتلئة لذّة، قبل أن تتبلّل العتبة ويمدّ رجليه كي تحمّمهما ثمّ باقي جسده وتنشّفه وتطيّب جسده برائحة ما زالت جدّتي حتى الآن تزوّدهما بها، تشمّمتها مرّة واعتقدتُ أنّها رائحة صنوبر عتيق مسكوب مع ماء الورد. شعرت أمي بأنّ أبي بدأ يهرم مبكرًا، كانت تركض إلى جدّتي وترجوها أن تشرح لها، الجدّة تطأطئ رأسها وتقرأ في البساط المتداخل الألوان وتتمتم أشياء سحيقة كأنّها أناشيد أو مقامات أو حكاية ترويها لنفسها، أمي لم تستطع أن تثني جدّتي عن عزمها، فلا يهدأ قلقها وتظلّ تذكّره بعاداته القديمة فتعرّيه وتوغل فيه، تلمسه، تطلّ من عينيه نظرة حزينة لا تفهم مغزاها مطلقًا، لا يتكلّم شيئًا سوى عن سلاحفه ودروعها ثمّ في ما بعد عن البغل الجديد الذي أحضره من البازار بعد أن قايضه بأربع غنمات وستّين ليرة، غضبت أمي وقالت ضُحِك عليه، وسألته هل أحضرت حصان عنترة؟ لم يجبها، فقط حمل الماء الساخن والليفة ونظّف جلد البغل ثمّ نشّفه وداوى قروحًا صغيرة في ظهره من آثار البردعة ثمّ أوصى على سرج جديد مزيّن بشناشيل.

كنت أسرح أمام أبي عليه، وأشعر براحة كبيرة حين أركب بمفردي على ذلك السرج، البغل يخبّ بهدوء إلى البئر كي تسقيه عائشة وتمسح رأسه، أراقب الفتيات على البئر يتسابقن لنشل الماء وأسمع ضحكات أعماقهنّ، والماء يبلّل شعورهنّ ويطرطش أثوابهنّ، كما أسمع النكات الغامضة والأحاديث المنفردة كأنّ البئر مكانٌ لتبادل الأسرار.

العنّابيون يجتازون الدروب مشيًا حول البئر أو يجلسون في الظلّ يتبادلون علب التبغ ويراقبون النساء. كنت أرى ما يسمّى البهجة وأحس بغموض تلك العوالم التي لم أفتح كلّ أبوابها، أراقب أحمد الجمل من بعيد، وإذ أدخل مغارته أحسّ بتوحّده مع المكان، فيه رائحته وغموضه، الأطياف كأنّها تحاصرني في الليل. الذاكرة سلاسل سوداء تحاصر حلمي، أريد أن أنسى وأعيد بناء هذه الأزقّة، أنفاس البيوت وبهجة أن أرى عائشة تمسح وجه البغل، وعينا أبي تضحكان حين ترتفع شتلة ريحان صغيرة زرعها في أحد الدروع، أو حين يجلس قرب جدّتي ويصمت الاثنان، لم أرَ أحدهما يتكلّم مع الآخر قطّ، تحدّق فيه تارة وفي البساط تارة أخرى، وعندِما لحظت أمي ذلك، ظنّت أنّ

غضبة أم مسعود قد حلّت عليه فجعلته مخبولًا وغير مكترث. كانت له تجارة ناجحة نوعًا ما، يسرج بغليه عابرًا منطقة عفرين ببيوتها الساكنة ونهرها الهادئ، يصعد في اتّجاه راجو، يحمّل بغليه فحمًا ويعود إلى حلب، مرّة كلّ أسبوع، تربطه علاقات جيّدة بتجّار الفحم في حلب، وفي ما بعد اقتنى عربة بأربعة دواليب حديدية يجرّها البغلان إيّاهما اللذان اعتادا صحبته وعرفا دروبه جيّدًا، وهو اعتاد تنظيفهما في النهر كلّ يوم أربعاء حين يتوقّف في البازار مبتهجًا بأصوات الباعة وألوان ثياب النساء المبتهجات بالكتّان و البازينا وروائح البهار. النقود القليلة التي جمعها من تجارته كان يخفيها في مخبإ سرّي تركه مكشوفًا بعد أن أخرج ما جمعه من نقود واشترى أرضًا في طرف العنّابية الشرقي قال أنّها تكفي لستر العائلة من الحاجة، باع العربة واحتفظ بالبغلين، ومن دون أن تفهم أمي ما يحدث كأنّه غير الرجل الذي تحبّ رائحته وهو ينهض كي يستحمّ، ترتخي عضلاته ويجلس في الفراش عاريًا يدخّن سيجارته الملفوفة وأمي العارية ترتوي، ترقّ في أعماقها ذكرى تلك الليالي التي لم تتكرّر إلّا نادرًا حين يفلت أبي من طقسه الغريب ويعود في لحظات ذلك الرجل القديم، قال لأمي اشتريت أرض جمعة وهي تكفيكم. بدأ يزرعها جلبانًا وعدسًا ثمّ في موسم آخر حنطة وشعيرًا، وفي الثالث يقطينًا وبندورة ولوبياء وبامية، كنت أرى أزهارها الصفراء الكبيرة ثمّ تفتّح ثمارها وهي ترمي قشرتها الشفّافة كامرأة في طور البلوغ، ويوم فتح خزانته السرّية وتركها مهملة لأمي لتضع فيها الإبر والخيطان ومحارم للمخاط، توجّه إلى غرفة جدّتي وجلس على العتبة متخلّيًا عن عادته الجلوس قربها، وراح يتحدّث عن أخبار أعمامي الغائبين وأولادهم الذين لا أعرف منهم سوى أبناء جمعة الذي هاجر إلى دمشق بعد أن باع الأرض، اشترى منزلًا في الأطراف وعمل بوّاب بناية، ورحل معه أولاده الأربعة الذين كانوا يدخلون بيتنا كلّ يوم ويثيرون ضجيجًا لا ينتهي بخروجهم ورحيلهم، يطرشون الكلل على الحيطان وينهرون البغلين في الإصطبل كي يرفسا ويشحجا كالأحصنة، ويتمادون في الركوب على الخواريف وسوْقِهَا كالحمير التي كانوا يقطعون آذانها ويبيعونها للقرباط. لا تنتهي جلبتهم وانزعاج أمي إلّا حين تنهض جدّتي وتصرخ بهم أن تعالوا، عندها يتحلّقون حولها، توبّخهم، فيطرقون رؤوسهم ويتبادلون التهم، يقتربون منّي ويُسَمّونني المدلّل الوحيد، أخو البنات، وأنا لا أستطيع أن أجاريهم حين أراهم يشمّرون عن مكلّابيّاتهم ويمسكون بقضبانهم ليبولوا مرّة على شكل نافورة ومرّة على شكل مربّع ومرّة على شكل دائرة، تاركين وراءهم الغبار وشتائم الناس في الطريق وعصا عائشة التي تلحق بهم وتنقضّ على مؤخّراتهم شاتمة ومهدّدة عكس أمي التي لا تتكلم خوفًا من أبي وسلاطة لسان امرأة عمّي التي يقال أنّها كانت تزغرد حين ترى عضو عمّي منتصبًا، كان اثنان منهم دومًا في قائمة المفصولين من المدرسة والكسالى، وحين كان المعلّم يذكّرهم بأنّني أصغر منهم ومع ذلك أعرف أكثر منهم، ينتظرونني في الاستراحة وتبدأ معركة غير

متكافئة لا تحسم إلّا في غرفة جدّتي التي توبّخهم فيخافون من غضبها معلنين هدنة قد تستمرّ طويلًا، بعد ذلك نخرج سويّة لصيد العصافير وسرقة كواديس العدس من البيادر والتعفيس في الطين وتلويث بسط الجامع أو سرقة أحذية المصلّين يوم الجمعة وبيعها في ما بعد مقابل سكاكر وشلّة غزل بنات أو كيس صغيرٍ من الفستق المملّح، رحل أولاد عمّي ولم أعرفهم حين رأيتهم في ما بعد، إذ كبروا جدًّا وتعانقنا كرجال، وأتت امرأة عمّي فسلّمت عليّ وقبّلت رأسي وسألتني عن أهلي وجدّتي والعنّابية، محاولة إيهامي بأنّها تتقن العيش في العاصمة فقدّمت لي القهوة في فنجان نظيف، وعلى الصينيّة كأس ماء صاف.

أمي أحسّت بأنّ مؤامرة تُحاك ضدّها بعد رحيل عمّي وصمت أبي وفقدانه إلفته، وملاحظتها أنّ أبي وجدّتي لا يتكلّمان كأنّهما يتهامسان بلغة سرّية خاصّة بسلالتها التي يقال أنّها ابنة عنّاب الكبير والباقية الوحيدة من السلالة، حافظة للوصايا والممتلكة لأسرار الحكاية التي تُليت على ألسنة الجميع وحفظها كلّ العنّابيين قبل أن يحفظوا أيّ شيء آخر. لم يطل الأمر كثيرًا حتى صعد أبي إلى الغرفة القبلية ورتّب مكانًا مناسبًا لدروع سلاحفه ونظّف الإصطبل لمبيت جديد لبغليه. ما زالت الحكاية ترنّ في ذاكرتي كأنّ أبي ما زال حتى الآن رجلًا مولعًا بالشاي الثقيل ولفّافات التبغ والسفر والتجارة وإحضار شلحات البرلون التي تتمزّق بين يديه وهو يعرّي أمي ويحتضنها كزوبعة تكنس كلّ شيء دفعة واحدة، اللغة السرّية التي يفهمها أبناء السلالة فحسب هي أكثر الألغاز التي أثارتني، وفي ما بعد بدأت أقترب رويدًا رويدًا من مفاتيح جدّتي المغلقة، أفهم كلّ شيء من دون أن تتكلّم وعرفت أنّني مدوّن الحكاية، وأحمد الجمل حافظ الأسرار وملوّن المشهد الذي بدأ يتّسع ويتكشّف لكلينا. أمي شكت أمرها إلى جدّتي، قالت أنّ أبي بدأ يتغيّر ولا تفهم سرًّا لهذا التغيّر، وأنّه في الليل لا ينام، يبقى ساهرًا حتى الفجر، جدّتي لم تفصح كثيرًا ولم تطمئنها بأنّ الأمر عابر وسيعود كما كان رجلًا. حين يترك المكان وراءه تبحث أمي عن روائح تبغه وجسده، ازداد الأمر سوءًا يومًا بعد آخر إلى أن اقتنعت أنّ خبلًا مَسّه أو أنّ أحدًا كتب له حجابًا وقلب كيانه، فذهبت إلى شيخ تُرْوى عنه الأساطير في إعادة الغائب وفكّ السحر.

صباح أحد الأيّام حملت بيدها ديكًا أبيض كان فخرًا لسرب دجاجاتنا، عبرت الطريق غير الطويل سيرًا على الأقدام مع خالتي وامرأة ثالثة من صديقاتها اللواتي لا أعرفهنّ، شرحت له الأمر فالتبس الأمر على الشيخ، حتى اطمأنّ إلى أنّ جدّتي لا تعلم قدومهنّ والأمر سيبقى سرًّا، نهض إلى صُرّته وفتحها، أمر خالتي والمرأة بالخروج إلى باحة الحوش، أمي سمعت ابتهالاته ورأت البخور وهو يتصاعد ليعبق في الغرفة، جحظت عينا الشيخ وأخبرها بأنّه مسحور وأنّ امرأة من القريبات كتبت له حجابًا، وأنّه سيكتب لها حجابًا تعلّقه في مكان عال يمرّ من تحته كلّ يوم، وتَشْكُل معه مصارين خروف يابسة ولا

بدّ أن ينتهي الأمر ويعود كما كان، رجلًا للسلالة المهابة وسيّد أمي التي تركت الديك الأبيض مقيّدًا في أرض حوش الشيخ وعادت فرحة، متفائلة، وانهمكت بالحجاب الصغير الذي حملته بين يديها كتميمة مقدّسة، طلبت من حمدو مصران خروف أبيض، حمدو الذي كان يعمل قصّابًا ومغسّل أموات، أتاها بالمصران يابسًا كما اتّفقت معه، علّقته فوق البوّابة العالية لحوشنا في مكان غير مرئيّ، صعدت إلى السطح ومن هناك تسلّلت إلى القنطرة المزخرفة، حفرت له مكانًا وعلّقته وباتت تراقبه وهو خارجٌ من البوّابة رافعة كفّيها إلى السماء متمتمة بأدعية وآيات كريمة من الصمديّة وجزء من سورة البقرة حفظته كي تتمّ صلاتها في ما بعد، أمي لم تصلِّ إلّا بعد أن بدت امرأة مهمومة، حزينة، أقرب إلى الهرم بجسمها الجهم وعينيها اللامعتين بسوادهما المغبرّ. بعد أن أتمّت وصايا الشيخ بدأت تنتظر، أحسّت وهي تتابع ضمّ قلائد البامياء بأنّ جدّتي غاضبة منها وأيقنت في ما بعد أنّها تعرف كلّ شيء، أيقنت ذلك حين رأتها متحاملة على جسدها في الخروج من باب غرفتها إلى أرض الحوش، حيث ألقت نظرة طويلة على البوّابة العالية وعادت إلى غرفتها مرّة أخرى تسندها عائشة وتبارك هذا الخروج الذي كان أحد دلائل عافية جدّتي وقوّتها، وأحد أفعالها النادرة أيضًا. المصران ازداد يباسًا والحجاب كساه الغبار وأبي خرج ودخل كثيرًا، أكثر من مئة مرّة، العدد الذي حدّده الشيخ لفكّ سحره، ولم يُزِدْهُ الزمنُ إلّا ولعًا بدروع سلاحفه وفي ما بعد بالصمت، حين يجلس مع جدّتي ويتابعان حديثًا سرّيًّا، كنت أرى أمّي تمعن النظر في الباب العالي، الغبار غطّى الحجاب والمصارين وأفقد أمي بهجة الوقوف ومراقبة مروره من تحت القنطرة. أحببت التمعّن في تلك النقوش التي لا يعرف أحدٌ تاريخًا حقيقيًّا لها إلّا حين بدأ أحمد الجمل يثيره هذا التداخل الحروفي، كنت أقف تحت القنطرة وأرى هذا العلوّ وارتباك أمي الذي ألفته في ما بعد ونسيت موضوع ذهابها إلى الشيخ وانشغالها دومًا بهذه القطيعة بين أبي وجدّتي أم مسعود، لم تستطع أن تفهم سرّها رغم محاولاتها الكثيرة حين تتخلّص من بقايا نظراته الذكية وهي متمدّدة بعريها قربه في الفراش الذي لم يعد يبتهج كثيرًا بملامسة جسديهما وأنفاسهما وشهقاتهما، أمي شكت لخالي أبي الهايم الذي أنهى تشييد منزله بعيدًا من العنّابية مستمتعًا بابتعاده من السِّير اليومية المتداولة بملل يحسّ بأنّه سيخنقه، وتكرار حاول أن يجد تفسيرًا له حين يرى العنّابيين يروون حوادثهم ودقائق أخبارهم أكثر من مرّة، كأنّ الوقت أكذوبة، وأبو الهايم بعد أن رحلت صبحة ترافقها نظرات أمها الكريهة ويدها المهدّدة بأنّها إن حاولت عصيان زوجها فستذبحها وسترمي عظامها للكلاب، مذكّرة بسيرة النحس أبي الهايم الذي أحسّ بهشاشة كونه وحيدًا بعد رحيلها، وسيرتهما التي لم تكفّ العنّابية عن التخييل في تفاصيلها، كأنّه هارب اختار ركنًا بعيدًا، وبنى غرفتين حوشهما له سياج واطئ فيه الكثير من ذوقه، والأشجار القليلة التي وزّعها على أطراف السياج تمنحه صفة المملكة المستقلّة ذات النوافذ العريضة والباب الذي لا

يغلق، يدور في أرجائه، منتظرًا قافلة تأخّرت لتغيّر رتابته السائدة، وينشغل عن التثاؤب ودوزنة الناي بغرس الأشجار الصغيرة وفي غير موسم الغراس، متأكّدًا أنّها ستموت ذابلة، ممتطيًا بغلته دائرًا حول العنّابية كناطور السهول القاحلة التي لا تُنبت سوى البلّان واقفًا قرب شجرة الزعرور الوحيدة في البرّية الشرقية، مقسمًا أنّه سيمتلك نشمة حتى لو أصبح قرباطيًّا يبعثر عمره في خيام مثقوبة وقذرة وحمير تعرف كلّ الدروب وتدمع عيناها حين ترى الأعمدة قد حُزمت إيذانًا برحيل آخر، أو حين ترى جلودها منشورة تحت الشمس الحادّة.

كنت أحبّ رائحة أثوابه وألتقط كلماته الأنيقة، وهو يحاول أن يقول لي ذلك الدرب هو مصير وخلاص لا بد منه، مشيرًا إلى درب الغياب، ومنهمكًا برعاية شؤوني حين أجلس قربه وأتلعثم بالكلمات والأناشيد التي نحفظها في المدرسة، مقلّدًا له المعلّم وهو يردّد بصوته الخجول والناعم أنّنا قذرون وأنّ في هذا العراء لا يعيش سوى الحمير، وفي ما بعد وهو يتكلّم لنا عن العلم الذي يرفع بيوتًا لا عماد لها والجهل الذي يهدم بيوت العزّ والكرم. المعلّم الذي لا يعرف سوى التأفّف والتذمّر والخوف من مفتّش التربية حين يأتي كلّ فصل مرّة، أو مرّتين، يقف أمام المدرسة بسيّارته الجيب ويجلس في المقعد الأخير للصفّ المباح للغبار والهواء، مستمتعًا بتلعثمنا ونحن نردّد الأناشيد والمحفوظات، متناولًا آباءنا وشاتمًا أمّهاتنا حين نمدّ أظافرنا الطويلة وننشق مخاطنا. المفتّش بنظّارته المعدنية اللامعة يوقّع دفتر المعلّم المرتبك ويتهامس معه قليلًا، ويرحل بطريقة استعراضية كقائد عسكري تفقّد جنوده وأزرار بزّات ضبّاطه، تاركًا مدرستنا المؤلّفة من غرفتين طينيتين واحدة لننحشر فيها كالبهائم ونقعى كالصيصان على مقاعد باردة وسبّورة مثبّتة بمسمارين كبيرين، والغرفة الأخرى لسكن المعلّم المشمئزّ دومًا من روائح جلودنا وغباء أهلينا حين نقذف له كلّ يوم بطعام مكرور، بصحون ألمنيوم متّسخة الحوافّ رغم محاولات أمّهاتنا الاعتناء بالوجبات. يضحك خالي أبو الهايم حين أقول له أنّ الأستاذ قال عنّا بهائم، سلمان ردّ عليه بأنّه أيضًا بهيمة وكاد يحطّم فكّه حين أمسك به من قميصه ونحن نصيح مبتهجين بمشهد الأستاذ وهو يهدّد بالشرطة التي حضرت في اليوم التالي تطلب سلمان، ورئيس الدوريّة يهدّد بعصاه أنّه إذا أمسكه سيحطم أضلاعه. بعد الحادثة، عرفنا أنّ الأستاذ موظّف دولة والدولة قويّة تملك عصيًّا وسجونًا ويحقّ لها أن تأخذ الخراف وتسوق العنّابيين إلى المخفر كي تقول لهم أنتم كلاب وبَجَم وأولاد حرام تبيعون العدس للتجّار وتخفونه عن الدولة، تاركة العنّابيين في ندم عميق يوم كشفوا دروبهم وقبلوا بسجلّات مهترئة حين ضلّت تلك الدورية دربها فأكرموا وفادتها وندموا لأنّهم لم يكسروا رؤوس رجال المساحة الذين أتوا وحدّدوا التخوم ووزّعوا الأشجار على هواهم، تاركين الحيرة تعشّش في أدمغة العنّابيين وخدوشهم.

خبّأنا سلمان إلى أن حصلت المصالحة بينه وبين الأستاذ بعد أن ذبح أبوه أربعة ديوك وباس رأس الأستاذ الذي خاف من تهديدات سلمان البعيد والفارّ والمختبئ في أحد الأزقّة التي لا يعرف إلّا الله ما تقول حين ينام الناس، وبعدما أيقن أنّ سلمان سيترك المدرسة غير راضخ لقانون إلزامية التعليم، فارًّا إلى البراري مع أغنامه ومواويله التي تجعل الحجر يحنّ كما يقول خالي أبو الهايم حين يُجلسه قربه ويعزف على نايه، تاركًا الفضاء لصوته كي يعرش ويصل إلى بيت صبحة في القرية المجاورة التي لا تغلق الباب كي تتشمّم تلك الرائحة العطرة المنبعثة من العنّابية، تاركة زوجها الذي يجب أن تطيعه، يشخر ويرفس اللحاف.

كأنّنا كبرنا فجأة، أو كأنّنا أوغلنا في العمر أكثر ممّا يجب. العنّابية... مرّة أخرى، هواء حبيس، رئتي متفحّمة تبحث عن روائح قديمة وعن ظلال قوافل كانت تبهجنا، تُغَيّرُ جَهَامة المكان وتجعله سلسًا، عذبًا ومولعًا بالمفاجأة. قمر لا أراه، أسير تحته. قمر مظلم أسيرُ تحته كأنّ أطياف ثياب القرباط سكنتني، أحالت هواجسي إلى حقائق كنت أفرّ منها، باب واحد للدخول في اللحظات المسكونة بقلق لا أعرف مصدره، أرفع الستارة وأدخل، أحمد متمدّد على أريكته يدخّن كأنّه في استراحة لذيذة، أطلب منه ألّا ينهض وأنفلت في المكان، الكتب مبعثرة، الألوان والريش ومحنّطات أحمد ولوحاته.

على الطاولة، كتاب باللغة الفرنسيّة مفتوح على الصفحة 187 وفي الصفحة المقابلة صورة من القرن السابع عشر، رجال في مشرحة وأمامهم على الطاولة جثّة مفتوحة، أحمد يدخّن ويحدّثني عن حلمه بتحنيط امرأة.

الوهن يدبّ في أوصال أحمد، فأدرك أنّ المكان مارس غوايته وبهتت أشكاله، قال أنّه أمسِ كان مع أبي الهايم وتحادثا طويلًا حول موسم القوافل وأسعار الغرابيل ووعده أبو الهايم بأن يصنع له نايًا من العظم. الضوء خفيف منبعث من لمبة الكاز ورائحة الاحتراق تجعل الهواء ثقيلًا ومُمِلًّا وممتلئًا بالإحباط، تشمّمته بكلمات أحمد وقراءته بالسواد المطلوس على لوحة معلّقة، حيث تبدو نقاط لامعة قال أنّها آخر ما رسم، وأنّ هذه النقاط اللامعة هي ما تبقّى له، كانت العناكب في الزوايا تمتدّ وتستطيل من دون أن تستأذن وتضفي على المكان بهوتًا وإحساسًا بالفراغ والهجر، خارجًا من كهف أحمد الجمل، من منزله، من مرسمه، وهو ما زال متمدّدًا يمارس غواية الملل، نجوم باهتة وقمر لا أراه، ألمح ظلاله ودروب العنّابية أزقّة مرسومة بعناية مهملة. البرّية الشرقية، شجرة الزعرور الوحيدة، أنفاس أبي الهايم، ووقع خطوات بعيدة كأنّها ترنّ الآن في أذنيّ فألتفت لألتقط الصوت أو الصدى أو أتشمّم الروائح التي هاجت وانبعثت فجأة في فضاء مفتوح على اللامعنى والاحتمالات المربكة لحضوري وسط كلّ هذا الذهول الذي انتابني حين كانت البرّية الشرقية تنبثق هكذا فجأة بمهرجان ألوان لذيذة، خيام مرقّعة، ألوان تبهج خالي فتلتمع عيناه، تشفّ روحه هو المنتظر دومًا البوّابات المتفحّمة أن تفتح

لتخرج من ظلامها مواكب نور يعرفها، يسير في محاذاتها، يغطّيه غبارها وتلتمع عيناه دومًا ببريق فلتان، تؤلمني الصور الباهتة في هذا الليل المجلّل بقمر أسود ونجوم باهتة اللمعان، يؤلمني هجْرُ دار أبي الهايم المتروكة هكذا للعابرين، تؤلمني ذكرى ذلك الصيف حين كنت أتعلّق بيده وهو ينظر إلى الدرب الغربي كأنّه ينتظر وميضًا أو شيئًا ما عاد يحتمل غيابه تحت أكداس لحظاته الموسومة بالبهتان، كلّ يوم كان ينتظر إلى أن انتصف الصيف، وذات صباح تأخّر عن موعده السابق، عجّ الدرب الغربي بالقافلة، غبار تصاعد إلى السماء مع انتشار الخبر في أزقّة العنّابية، القرباط...، ... القرباط، كلّ الاستعدادات لقدوم هذه القوافل الضرورية لمحاربة السأم، بحميرها وألعابها، بنسائها وحُوَاتِهَا، بالأشرطة الكئيبة ومهرجان الألوان المنثورة هكذا فجأة في برّية مستباحة، تسمع البيوت ضجيجها مع اقتراب نهيق الحمير وقرقعة السطول الفارغة، بتداخل الأصوات المبهمة للغات لا تخرج إلى السطح النتن. تعبر القافلة العنّابية مبتهجة بوصولها ممزّقة بكارة الضجر المستبدّ بالأشياء، ناثرة التحّيات لمن صادفه الحظّ باللقاء الأوّل، البرّية الشرقية في أراضيها الجرداء وصخورها اللامعة تتغطّى بأحمالهم المتعبة وتظهر المخيّمات... خيام... خيام تُذَكّر بتشرّد طويل، عمره من عمر الأرض، يحلّون كلّ صيف في طريقهم إلى الشرق كأنّهم يقتربون من منبع الشمس التي تربطهم بظلّها صداقة غامضة، نصف ساعة أو يومًا أو قرنًا بأكمله، لا يهمّ الزمن كثيرًا في هذه الفضاءات المضبوطة على الظلّ، تنتصب مدينة، قرية أو مخيّم سرعان ما يقرفص على قدميه، ليخرج عَوّاد من خيمته مُعلِنًا أسعار الغرابيل وأسنان الذهب، مُخرجًا من جيبه ساعة لا تفارقه ليتأكّد كعادته أنّ كلّ شيء مرتّب بعناية وأنّ الزمن في هذه الفوضى قد بدأ، وأبو الهايم ينهض من انتظاره الطويل ليتأكّد من غبارهم وروائحهم التي يعرفها تمامًا حين تفوح في سماء العنّابية فتلتمع عيناه بسعادة ويفرك يديه، قال لسلمان الذي بدا رجلًا قبل أوانه أنّ نشمة تَمَلّكته وأنّها سلبت ما تبقّى منه وأنّه سيتزوّجها وسيكتب لها الأرض الغربية باسمها، لبس ثيابه النظيفة المطويّة بعناية في صندوقه التنكي ودلق من زجاجة الكولونيا فعبقت بها الغرفة وأحاطت به، وكعادته في الأعوام السابقة خرج من منزله كأنّه يطير أو كأنّه اكتشف الخلاص أو دهمته العذوبة ورحلت أطياف الخيبة. كنت أراه يقدّم فروض الترحيب، يقبّل رجالهم ويسلّم على نسائهم ممازحًا أطفالهم وصباياهم، يمضي أغلب أوقاته في خيامهم ويكرم وفادتهم في منزله حتى أصبح الناطق الرسمي لمجمع بشري ذي دواليب متحرّكة ولا يحتاج إلى أيّ إعلان أو دبلوماسية أو إذنٍ كي يشمّروا مكلّابياتهم ويتبرّزون تاركين سيقانهم للهواء وأنوفهم تتحسّس روائح المكان، يتساءلون جميعًا أبو الهايم عنّابي أم قرباطي؟ وهم يهمسون بحذر وصوت منخفض. هل حقيقة نحن أولاد عمّ؟ كاتمين الخوف من جدّتي ومدركين أنّ الهواء يُخَرْبِشُ لها كلّ الهمهمات، وأنا أركض في العراءات المكشوفة متقمّصًا

شكل الفراَشات المنفلتة كأنّي أبحث عن مدوّنات عتيقة تتساقط من أفواههم حين يرتفع الغناء وضجّة الطبول، أرى خالي متمدّدًا في الخيمة وحوله رجالهم، يثيرني أطفالهم الذين يشبهوننا ولا يشبهوننا، كأنّني أتساءل حقيقة عن بهجة الانتماء إلى هذه الكتل المقذوفة خطأ من الله في دروب دائمة لا تغريها البيوت والثرثرة بالثبات، تعرفهم الجغرافيا جيّدًا ولا يضلّون الطريق، يقسّمون الأماكن والفصول بحسب رزنامتهم التي يعلّقها عَوّاد في صدر الخيمة، والفصول بين المواسم والعوانس والأرامل المهجورات، تنتظرهم القرى وحواشي المدن كأنّهم ضرورة للحياة وليسوا جربًا أو بعوضًا طارئًا يحلّ كالأوبئة، نساء بصدور مفتوحة وأقمشة منّسخة، أحذية بلاستيكية مخيّطة بخيطان فاقعة الألوان، صبايا تتدلّى من أنوفهن أقراط وتدويرات النحاس بأشكال آلهة مجهولة وعلى صدورهنّ البارزة تنتشر الإبر والخيطان وأكوام الشكّالات كمشجب أو كعربة صغيرة متنقّلة، يُقايضون القمح والشعير والعدس والعنب بالصحون والأشياء الناعمة من أمشاط وأزرار مُنافسين الباعة المتجوّلين على حميرهم البيضاء العالية وبسطاتهم المتحرّكة، من دون استئذان ينصبون خيامهم المتعدّدة الألوان، العديمة الألوان ويقتسمونها بطرائق غامضة، من الصعب إدراك قرابات هذا الموكب العجيب الذي يفور بالحركة كمياه معدنية منبثقة من الأرض ومندفعة في الفضاء اللامتناهي، ومحرّماته، في الليل يفقدون ذاكرتهم جميعًا فيخلطون حصيلة نهارهم ويضطجعون من دون أن يتذكّروا من يتبادل الجنس والموت مع مَنْ، وحين تُوَجّه لهم تهمة اللاانتماء يغضبون ويهشّون الذباب عن أنوفهم المزكومة بالمخاط، موضّحين أنّهم عشيرة كبيرة جدًّا منتشرة في كلّ أنحاء العالم، يعرفون أفخاذها جيّدًا ولا يخطئون بأنوفهم وآذانهم التي تلتقط السمع من مسافات بعيدة حين يتخاطرون بالروائح، والريح تحمل بريدهم، ويتباهون بشيخهم الكبير الذي يعتمر المنديل الأبيض النظيف ويجلس على الطنافس المخملية، يغسل يديه بالماء الساخن المنسكب من إبريق فضّي لامع، يرعى شؤونهم ويحفظ قوانين عشيرتهم، يراقبهم بوساطة جواسيسه ويستمع إلى تقارير كلّ قادة المخيّمات، يبطش بالخارجين عن الأعراف، يقطع آذانهم ويضمّها إلى القلادة الموجودة في صدر خيمته بعد أن يجلبهم مربوطين بالحبال ويحقّق معهم، يروي الكبار منهم لأهالي العنّابية المسترخين على الطرّاحات أو في ظلال الجدران، قصصَ قتل وثأر تحفل بها سجلّاتهم ويبتهج العنّابيون بهذه المخيّلة التي تشكّل فسيفساء الأحداث، في إحدى الليالي تكلّم عَوّاد محاولًا تحذير خالي من تماديه في الاقتراب أكثر من نشمة وحدّثه عن الملكة التي غامرت وتخطّت الحدود، يسمّونها ملكة وهي ملكة يا ابن العمّ وخالي ابن عمّهم، حاميهم في المشاكسات الصعبة مع العنّابيين وصديقهم الأثير سنوات طويلة، لا يعرف أبو الهايم سوى أنّه كان كلّما أتوا حمل أمتعته وجلس عند أقدامهم وفي ما بعد في خيامهم مبعثرًا نقوده وأزمانه على

ضفافهم، رسم الليل صورة لملكة، امرأة مزدهية بفتنتها، لها عينان واسعتان وصدر واسع ينبق منه نهدان لم يخلقا إلّا للصراخ، أجمل قرباطية، الكلّ يريدها حتى الشيخ وأولاده، لم تبرعم بعد وكان الشيخ يعدّها لتترك كلّ شيء وتتفرّغ للفنّ أو تصبح زوجة محترمة بعد أن تكون قد تعمّدت بالرحيل الدائم، عشقت شابًّا خفية عن نظر أمها وهربت معه عابرة الحدود وتاركة وراءها ألعاب الصّدف والكحل والأثواب الطويلة المزركشة.

بعد ذلك، تأكّد غيابها وخطيفتها للجميع مع ذلك الشابّ الذي كانت تحادثه أمام باب منزله أكثر من المعتاد، بحسب ما أكّدت قرباطيات شامتات مؤكّدات أنّهنّ رأينه يحوم حول خيمتها كلّ ليلة عند أطراف المدينة، ولا يبتعد من المخيّم إلّا مع طلوع الفجر، وأنّها دخلت منزله مرارًا، وقالت قرباطية عجوز للشيخ وهو يستمع إلى أقوال الجميع: إنّ بطنها قد بدأ يكبر. أغلق الشيخ ملفّاته وأعلن بعد ستّة أشهر حملةَ بحث سرّية استمرّت خمس سنوات داخل البلاد وخارجها إلى أن صادفها أحد المكلّفين المَهمّة قرب مدينة أصفهان في إيران، فذبحها وعاد برأسها الذي ظلّ معلّقًا داخل الخيمة منطفئ العينين إلى أن نخره الدود وجعله بطّيخة عظمية فارغة، وخطفت إحدى القرباطيات ولدها بعدما عاد به زوجها وبعدما يئس أو أيقن أنّ دمها الذي شاهده منسابًا على السجّادة الممدودة في الصالون الواسع، والذي بقّع البرادي، وأيقن أنّ دمها ذهب هدرًا ولن تستطيع قوانين الأرض أن تُعيدَ له ملمس جسمها الناعم ويديها الناعمتين وروحها المخلصة، أتت به القرباطية طفلًا يضجّ بالحياة فسُمّيَ غريب وهو صورة عن أمه ورجل مقرّب من الشيخ، يمارس غواية النساء صاحبات النفوذ برشاقة جسمه وعينيه الواسعتين وأناقته حين يتبختر بألبسته الغالية ولغاته الثلاث التي يُتقنها.

من أعماق أبي الهايم، كانت تنبثق يد نشمة البهيّة ملوّحة له، ويُجاهد بعد أن يرحل القرباط نسيان تلك الفتاة التي نَمَتْ مبكرًا – أربع سنوات وهو يحلم بنشمة – يفكّر، ويذهب في الخفاء إلى مضاربهم مُدّعيًا الشوق لعوّاد والرجال الآخرين، وفي الشتاء يجتاحه العشق حتى أظافر قدميه اللتين تزرقّان إن أطال المكوث في العنّابية من دون أن يحزم حقيبته في جولة جديدة للبحث، لا يعرف أحد من أين يبدأ وأين ينتهي ليعود بعد ذلك، إذ يبدو للعنّابيين مجهدًا وعيناه لا تستقرّان، كنت أراه أكثر حزنًا حين يمسك نايه ويعزف... يعزف... والعنّابية تغرق إلى أن يعودوا ويتعطّل كلّ شيء في العنّابية، الهواء والدروب والجهات ويغدو المشهد مفتوحًا على احتمالات جديدة تستعدّ لها العنّابية في اليوم التالي فتبدأ مراسم الاستقبال. القرباطيات يدخلن البيوت مرحّبات بأنفسهنّ حاملات السطول الفارغة وعلى الظهور تتدلّى وجوه مُغبرّة تُدعى أطفالًا موسومين بالخرز والأحراز والأنوف الموشومة، يسألن عن الصحّة وأخبار الغائبين، يترحّمن على الأموات ويفتحن صُررهنّ ويقذفن بالأعشاب الطبّية والشكّالات والخيطان وصحون الألمنيوم والفضائح والرغبات الخفية،

والودع، يغمزن الصبايا والعجائز المتصابيات ويتفاهمن بلغة خاصّة، كانت أختي عائشة تُتقنها وهي تسحب نشمة من يدها إلى الغرفة العلويّة ثمّ تُغلق الباب. الصمت يعُمّ المكان، زليخة تلحق بهما وتتشبّث بالدخول، في ما بعد تنضمّ بنات جيراننا إليهما في الغرفة وتصدح في أرض الحوش الضحكات العالية والضجيج في الظهيرات القائظة، تفلت الكلمات المحذّرة، ثمّ تهدأ الأصوات قليلًا لتنفجر في ضحكة جماعية واسم نشمة يتصاعد فيهيج البغلان في الإصطبل، وأبي يحدّق من نافذة غرفته ويعود إلى قيلولته، تطيل نشمة المكوث. في الأزقّة، ينتظرها المراهقون والرجال ليتفحّصوا جسدها الملفوف والممتلئ قليلًا، تغنج بمشيتها المثيرة، تهزّ مؤخّرتها وردفيها وهي تطأ الأرض كدجاجة حبشية، ومعها تتصاعد حركة الشرايين وتلتمع العيون التي تلتقي بعينيها المغبرّتين قليلًا في دورانهما الدائم ولمعانهما الذي لا يخبو، نهداها البارزان من تحت ثوب الموسلين الأصفر وحلمتاها المتدفّقتان بشبق جامح حلمُ كلّ ذكورة العنّابية التي لا توفّر أحدًا منها إن أعجبها العرض، تدخل أوّل خرابة مهجورة بعد أن تقبض النقود وتدسّها في كيس قماشي أبيض معلّق في صدرها، تستند إلى الجدار وتمنح شفتيها في قبلة طويلة، أو تقرّب خدّها لقرصة أصابع تنغرز في اللحم ككمّاشة، لا تسمح لأحد بتجاوز هذه الحدود المرسومة مهما بلغ الثمن، تضحك كطوفان حين تصرخ الذكورة ملتاعة، راغبة، هائجة أن تتمدّد وتتمدّد كي ينغرز العضو وتنتهي مهزلة القطرات الملوّثة لفضيلة المكان، مريحة الأجساد البرّية المنخورة بالرغبة والهذيان، تعلن نشمة أنّه عالواقف أحسن يا عيني وتفلت كزئبق أخضر أو كأفعى دهمتها الثقوب المسدودة، تفلت من بين أياديهم الممسكة بها بقوّة، الذكورة تمتزج بعرق الفحيح الشمسي الهابط من عواميد الظهيرة، تتصاعد وتكتشف سماءاتها المغلقة، ونشمة تفرّ كالضوء ضاحكة ومُعَدّلَةً وضع كيسها الذي لا قرار له وأصوات النيكل الذي تحبّه، بعد ذلك تجلس الذكورة وتخرج القضبان وزوائد اللحم، تتلوّى الذكورة شاتمة نشمة والأغنام والدجاج المتجسّسُ على نشيجهم والمحدّق ببهتان المشهد فتقُذف بالحصى والروث اليابس كلّ الكائنات المتحرّكة في هذه الخرابة الساكنة، والظهيرة تلد ذبابة خضراء كبيرة تنسج حلقات غنائها فوق رؤوسهم والذكورة تدلق بسوائلها الحارّة خارج الأنابيب ثمّ تسترخي وتتمدّد وتغدو الأجساد مستعدّة لتحليق طويل. شفاه مكتنزة بعسل البراري، ظهيرات متماوجة، وجذوع تتثنّى وأحمد الجمل يرسم هلام أجسام على بياض اللوحة، أرى الريشة وهي تهوي بنزق كأنّها تريد نثر كلّ الألوان دفعة واحدة، أرى خطًّا أحمر فأزرق فاتحًا، وأحمد يتابع غائبًا عنّي وعن الفضاء المثقل بالضجيج والفحيح، الأصفر جانب الأحمر فالبرتقالي ثمّ الأزرق، ثمّ النوافذ المفتوحة على اللاشيء، الريشة مرّة أخرى تغطّي كلّ شيء وأحمد كأنّه يتعبّد غائبًا، بعيدًا... أبواب منازل غامضة، وأثواب صفراء، صدور متلامسة، حلمات شفّافة بلون الكرز ثمّ أرى الريشة تلوّنها بالأزرق، حلمات زرقاء

ومؤخّرات متمايلة، سنابل ونوافذ خلفية ورجال حزانى عائدون من الحصاد، وبغال متعبة تفوح من مناخيرها رائحة التبن المبلّل ببخار الماء، البغال تتابع الصعود في الدرب، وفي اللوحة تقرفص، وقرباط منفلتون في الأمكنة، يشيحون الستائر وتقرقع صنوجهم معلنة المقامرة بالرجولة غير المكتملة، في زاوية اللوحة يدقّق أحمد بهدوء عبر عينين مكابرتين، حزينتين، خائفتين، لم أر البنفسجي والأسود يبرزان حدقة ثمّ أخرى، أحمد غائب عنّي وأنا أسمع أصوات الفتيات، عائشة يتعالى صوتها مبحوحًا كرغبة مقتولة ونشمة بصوتها النحاسي وهو يعلن حقائق لا أستطيع التجسّس عليها فأهرع إلى غرفة جدّتي التي تطقطق سبحتها وتكتب رسائل لا أعرف بأيّ لغة ولمن تضعها في زجاجات فارغة بانتظار من يرميها في البحر، أرى يديها تخربشان في الهواء وترسمان حموضة المكان ثمّ فمها وهي تبتسم لي كي أقترب لتهدأ لواعجي أو تنهي انتظاراتي، أتأمّل الزجاجات، الرسائل، وأتذكّر أنّ الغائبين ما زالوا يراسلونها ولا تنسى أحدًا منهم، أيّ ذاكرة جعلتكِ سيّدة المكان وحارسة الخدوش والأعماق الدفينة، كأنّي أخاف من روائح الأنثى المتسرّبة من شقوق الباب في الغرفة العلويّة وهذا الهياج الذي يريد هدم الدرج لفتيات يتعاركن من دون أن أدري سبب خروجهنّ مسرعات من تحت القنطرة المتدلّي منها المصران وقد أصبح قديدًا والحجاب الذي ضاعت ملامحه ولا يزال أبي يعبر إلى غرفته حيث دروع سلاحفه، وإلى الإصطبل حيث البغل البنّي الذي عرف الغنج كثيرًا بين يديه وهو يمسح له حوافره كلّ يوم وينظّف له المعلف ويزيد الشعير المطحون له، مضيفًا قليلًا من الكسبة منشغلًا بتلميع السرج استعدادًا للسقي على حافّة البئر. مياه نظيفة وأصوات نساء تجعل البغل مبتهجًا مزدهيًا بحوافره وسرجه الملمّع، أختي عائشة تلاحق نشمة وتهمس في أذنها كلمات لم أسمعها، ثمّ تعود نشمة لتهمس في أذنها كلمات أخرى فتلتمع عينا أختي، يبتهج صدرها، يخفق، تشرئبّ حلمتاها وأراها أكثر رغبة في الماء فتهرع إلى البئر كأنّها تقفز، حجل يقفز إلى الماء، يا للماء حين يبلّل أجساد النساء، وحين يطرطش وجه عائشة فتقول آح من البرودة واللذّة! رائحة عرفتها في ما بعد، أن تحتضن امرأة مبلّلة بالماء أي أن تحتضن ذاكرة الربّ، وتغرق في الرذاذ اللذيذ أي أن تغرق في متاهة. في زاوية اللوحة، كان أحمد يحاول أن يوهج اللون البرتقالي مرّة أخرى، لا ينفتح المشهد ونوافذ الكهف مغلقة... الكهف من دون نوافذ، الأنفاس المتصاعدة تتساقط على الكتب المتناثرة وملاحظات الكائنات التي تزداد يومًا بعد آخر، أحمد ما زال غير آبه، غارقًا بين الكهف والدرب إلى غرفة جدّتي أم مسعود... من تحت القنطرة، يعبر ويحدّق في بلل عائشة والباب أسمع صريره، أرافقه وأرى جدّتي مبتهجة وضاحكة وسعيدة يحدّثها وتحدّثه يقول لها أنّه أزال الغبار عن قبر بدريّة الذي يبحث علي الجمل عمّن يشتري رخامه عَلّه يستعيد جزءًا من نقوده ويخبرها بأنّه سيقتله لا محالة ويرمي جثّته للكلاب، جدّتي بصوتها الخفيض تؤكّد أنّ بدريّة في الجنة تلاعب

الحوريّات وتفترش العشب بثوب أبيض وأنّ صالح بخير. أحمد يعرف هذا، أحسستُ بأنّه يراه كلّما غادر العنّابية في اتّجاه الشرق منحرفًا عن درب الغياب، وحين نخرج أقول له رأيت هادي العنّابي أمس مقرفصًا في الزاوية يراقب الغرباء ويدخّن الغليون وقد أجابني أنّه متعب وسنتابع البحث عن جبل الذهب، وأنّه لم ير الحديد محمّلًا بالقطن والسمسم والبشر فحسب وإنّما ركب في المركب المدعوّ سفينة ومخر عباب الذي يدعى بحرًا والتقط من الماء زجاجة فيها رسالة أم مسعود قرأها وعاد إلى العنّابية، ينظر أحمد إليّ كأنّه يتساءل هل كانت أم مسعود ترى هادي العنّابي؟! وأعرف أنّه يعرف أنّها هي التي أمرت بأن تُحفظ أشياؤه المبعثرة وما زالت تحتفظ بالخرائط لديها. كأنّ الأمكنة تتهدّم الآن ورائحة الماء تفوح في أرض الحوش الواسع، زليخة تقلّد عائشة وتبتهج بالماء حين يطرطشها وأسمع صوتها الطفولي العذب وفي ما بعد أراها تحاول اللحاق بها، كأنّهما تتبعان أثر القرباط وتتشمّمان روائحهم التي انتشرت في هواء العنّابية وعلا صياحهم في كلّ أزقّتها معلنين عن بضائعهم الجديدة، أو كأنّهما تبحثان مرّة أخرى عن خطوات نشمة التي اتّفقت الذكورة على أنّ أحدًا لم يتحسّس لحمها الطري أو يلجها كما كان شائعًا، إذ كانت تحتاط بواقيات ولا تدخل إلّا إلى الأماكن القريبة والمكشوفة التي تسمح بالفرار وفي عزّ الظهيرة، لا تسمح للذكورة أن تحاصرها، حتى سلمان الذي بدا متعبًا حين عاد من مشواره الأسبوعي مع قافلة التهريب التي يقودها محمّلة بالشاي وبعض المسدّسات الصغيرة وهو يخترق بها الحدود التركية ليعود محمّلًا بالملابس والحرامات والصابون، أنزل أحماله وقبّلني، نهضت من قرب خالتي التي كانت تبكي وتتذكّر أبا الهايم ووجهه النضر الذي بدا لها كقماشة سوداء أو كفزّاعة، قال سلمان بعد أن أتت زوجته بالشاي أنّه ما زال يحسّ بخيبة أمل لأنّه لم يستطع التقاطها في وقت متأخّر من المساء وكان يعتقد أنّها تحزم سروالها بشريط فولاذي معقود عند البطن وتحتاط بواقيات من الصوف السميك، ما يجعل فرجها بعيدًا من الملمس بعكس جسدها اللامع بسمرته تحت ثوب الموسلين الأصفر، وقال أنّه حزين لأنّه لم يستطع أن يجد أبا الهايم وأنّه ما كان يجب أن يتورّط مع القرباط، سلمان أصبح عاقلًا ومهرّبًا، فَقَدَ رخامة صوته العذب، وكان حزينًا لأنّ جدّتي غير راضية عن عمله وتسمع صياح زوجته في الليل حين كان ينهال عليها ضربًا بحبل معلّق في صدر غرفته لأنّها لا تعرف التلوّي كصاحبته التركية التي ينام عندها حين يضطرّ للمبيت في تركيا، وهمس لي أنّ هيلانة التركية تفحم سبعين زلمة.

تعود نشمة روحًا هائمة وجسدًا مصقولًا في خيالات الذكورة، حذر وذكاء مبالغ فيه أحيانًا، إذا تأخّر إيابها إلى أوّل المساء تطلق لحسراتها العنان بصوت عالٍ يسمعه الجميع إمّا لطرد الأشباح وخوف الاغتصاب أو لإثارة العنّابيين المثارين من دون مثيرات قال سلمان أنّه حين علم بعشق خاله أبي الهايم ابتعد، وإلّا لكان جعل جسدها ألف قطعة، وأضاف أنّ طعم حلمتيها عذب، حلو،

ولم يحاول تحطيم واقياتها حين جرّها من يدها إلى الخرابة بعد أن كمن لها حتى خرجت من بيت أبي سالم، يده فوق فمها وذكورته توتّرت وخرجت من عقالها، دارت، لفّت خصرها بقوّة أصابع تتّقد غضبًا ورغبة، انتفضت نشمة متلوّية للإفلات من هذا الأخطبوط، رجاها ألّا تخاف، وقال لها أن تدخل كي يتفاهما بهدوء وصوتها المكتوم يقاوم، يقول لها خذي ما تريدين، طنجرة نحاس، ألمنيوم، كيس شعير، غنمة وخروفًا، نشمة تقاوم ويفلت نهدها بين أسنان سلمان يتأرجح ثوانيَ كافية كي يغرق باللذّة سنوات، تفلت هاربة وقد تمزّق جزء من ثوبها وكشفت تدويرة رائعة لكتف سلس وآثار أصابعه التي بصمت عليها بالعشرة، قالت أنّه قحب وأمه قحبة وملأت العنّابية زعيقًا وشتائم اضطرّ بعدها لأن يهرب إلى البراري كي لا يواجه خاله، الذي ما إن رآه حتى صفعه وأقسم ألّا يتكلّم معه، وأبوه بدأ يفكر بتزويجه فورًا ويستر عرضه، أبو الهايم قال له إلّا نشمة وأدرك سلمان أنّ خاله حقيقة متلبّس بهذه الفتنة وهذا الفلتان الآسر، وطلبت أم مسعود أن يأتي أبو الهايم وسلمان، ورأيت دمعة تنحدر من عينها وأخرى حين خرج الرجلان بكامل رجولتهما وإشراقهما وسط دهشة العنّابيين، حين بدأ أبو الهايم يضيّق على نشمة ويوبّخها أمام عَوّاد، يوصي عائشة بألّا تدخلها الدار ونشمة يدهمها شعور لذيذ وهي تراه يخلع روحه قطعة قطعة بين يديها ويدنو منها بعد حديث طويل، ويعرض عليها الزواج، مصرّحًا بأنّه يحبّها. الحقيقة التي أدركتها منذ أكثر من سنتين حين بدأت تستيقظ من نومها وترى تفتّحها المفاجئ، ضحكت نشمة وأخبرته بأنّها قرباطية لا تصلح له، هي راحلة دومًا لا تستطيع أن تصبح عنّابية كما اقترح عليها ولا أن تخطف معه إلى بلاد لا يعرفها سوى الله، حيث تفرد كيس الحنّاء وتحنّي أصابع قدميها ثمّ تنظّف جسمها المتعب كي تتهالك بين يديه وتذوب كعطر وردة، نشمة عادت تحمل السطل وكيس بضائعها وتحت ثيابها صُرّة صغيرة لا تفردها إلّا في الغرف المغلقة وبين أيدي الصبايا أو النساء اللواتي يتأمّلن هذا الجمال مداعبات حين تمرّ على مجالسهنّ أمام الأبواب أو في ساحات البيوت، هامسات لها أنّ عريسًا ينتظرها إذا وافقت، فتردّ ضاحكة كقطار عبثت الريح بمفاتيحه وأطلق صافرته الأولى ولم يسكت: أنّ الحياة هيك أكْيَف. وتتابع طريقها بأسنان ذهبية تلتمع في ثغرها كمنارة مضيئة، بينما العنّابيات يعدن لتقشير الفاصولياء والثوم وللثرثرة التي تملأ الجوانب وتتساقط مساء على العتبات فيلملمن أغطية رؤوسهنّ وينفضن ثيابهنّ تاركات أماكنهنّ شاغرة يستدلّ عليها من بقايا الكلام، يهرعن إلى النوم بينما تحت شجرة الزعرور تتراقص النار وتفوح رائحة البرغل من القدور الضخمة وتتعالى الأصوات المعدّة لمساء القرباط المسكون برائحة الزبيب والبهار ومجون الضحكات الهازئة بتدويرة مؤخّرة قرباطية تقرفص على بعد خمسة أمتار وتتكلّم مع الساهرين في العراء عن حصيلة اليوم وفضائح العنّابية، تفوح الرائحة وتختلط بكل ما هو معدّ للاختلاط، الحكاية والذاكرة المتفتّقة وأخيلة

المراهقين والرجال الذين يفركون أياديهم ويضربون الأرض بأقدامهم حين يتهدّل نهد قرباطية ترضع طفلها تاركة الحلمة متأرجحة كثمرة ناضجة في الهواء الطلق أمام عيون أناسٍ محكومين بالإعدام، تُهزم الزوجات أمام إناث يركضن في السهول كالأحصنة البرّية وينفخن النار في الذكورة الراكدة، وبعد رحيلهنّ أوائل الخريف تغرق العنّابية ببقاياهم المتروكة في عراء البرّية الشرقية. برازهم وروث حيواناتهم، أثوابهم البالية، ألبستهم الداخلية وتقصّف أغصان شجرة الزعرور الوحيدة المنتصبة وسط مخيّمهم كنقطة علّام أبدية بلحائها المتقشّر وخدوش النمل تغربلها وعلى جذعها بقايا الهياكل العظمية المربوطة لحيوانات مذبوحة ومسلوخة، والأمعاء مندلقة تستقطب الذباب والكلاب المتخمة تُنَفّر العنّابيين من روائحها التي يبلّلها المطر فتغدو أقوى إلى أن ينتصف الشتاء وتبقى العظام فحسب شاهدًا أبديًّا على تلك الأنفاس الضائعة والخطوات المَمْحُوّة.

الأمر كان مختلفًا ذلك الصيف الذى أتى لزجًا، مشبعًا بالخمول والصمت رغم ضجيج النوارج والبغال وحركة الأغنام العادية، حذر تغلغل من دون أن يدري أحد سرّه، أبي انشغل أكثر بقروح البغل البنّي، وأجرى له عملية جراحية ثانية، وأعاد تضميدها مرّة أخرى بقماش أبيض نظيف، طلب من عائشة أن تغليه كي تطهّره من الميكروب، البغل بدأ يعرج ويتألّم حين يهرول قليلًا، أو حين يسير مسافة طويلة، تبدو عيناه تدمعان كأنّه يكابد حين يقف بين الفينة والأخرى ثمّ يتابع إلى أن يرى باب الحوش الواسع فيهرع مسرعًا إلى الإصطبل، أبي لم يعد يُخرجه إلّا للتنفّس وبدأ يزيد ساعات السهر في الإصطبل وأحيانًا ينام فيه، يتشمّم روائح جلدي البغلين ورائحة فشكهم المختلطة برائحة التبن، ينام متمدّدًا في الزاوية معترضًا البغل الأبيض الذي يتطاول على معلف البغل البنّي حين يتمهّل الآخر أو يأخذ استراحة قصيرة.

في الصباح، يخرج من الإصطبل ولا ينظر إلى أمي التي تطلّ من غرفتها العالية وتنتظر حائرة، غاضبة، يتوجّه أبي إلى برميل الماء، يطرطش وجهه ويصرخ على عائشة النائمة أن تعطيه المنشفة، عائشة نائمة فلا تنهض، ينشّف وجهه بأكمامه ويمضي إلى غرفة جدّتي، يجلس على العتبة ويصمت الاثنان، يرى الرسائل المدسوسة في زجاجات فارغة ويصمت، أمي تدخل وتقف على العتبة مُصَبّحَة عليها، تبربر بكلمات غير مسموعة ثمّ تعلن أنّها سترسل البغل البنّي إلى البازار المقبل وتبيعه قبل أن يموت ونعلق بجثّته، أبي ينظر إلى أمي ولا يتكلّم، أمي تخيفها تلك النظرة حين يرفع أبي رأسه كأنّه سيهمّ بالكلام كما كان يأمر بكلمات قاطعة غير قابلة للنقاش، تتذكّر تلك الرجولة التي ملأت حياتها وتتحسّر وتتابع دورانها غير المجدي في غرفة جدّتي المرتّبة، تعتني بالوسائد والطرّاحات وتنفض الغبار عن إفريز النافذة، جدّتي خرجت أكثر من مرّة من غرفتها إلى مزار عنّاب الذي كان يهرع كلّ يوم ليصلّي مع النبي، مرّة في مكّة ومرّة في المسجد الأقصى، كأنّها أيضًا تلحق بتلك الصلاة، تفتح الباب

صباحًا وتدخل المزار ثمّ تُعيد إغلاق الباب وتدسّ المفتاح في جيبها الوحيد مغلقة الشبابيك حتى المساء، والعنّابيون يعرفون في ما بعد أنّ مناقشات حامية في الداخل حين يمدّون أيديهم إلى المفتاح فلا يجدونه وينظرون إلى النافذة المغلقة ثمّ يتابعون دربهم، تعود وحيدة لا تكلّم أحدًا ولا تقبل مساعدة أحد أو دعوته إلى الشاي، تبدو أكثر شبابًا كأنّ ظهرها يعتدل قليلًا وخطواتها تتسارع. أنا قربها، يدي في يدها، أتشمّم خطواتها فرحًا بهذه القامة الهرمة، الشابّة الموغلة في العمر والغموض.

مساءً، أُخبِر أحمد الجمل بأنّ جدّتي اليوم كتبت رسالةً، وأرسلت حسين خصّيصًا كي يرميها في البحر البعيد، فيهزّ رأسه كأنّه يعرف أو كأنّ هذه المَهمّة أدّاها من قبل من دون أن يخبرني، يعود إلى التمدّد مسترخيًا ويُحَدّقُ في الزوايا المدوّرة لكهفه الذي يزداد ضيقًا مع تراكم مُحَنّطاته وأحجار الصوّان التي يُحْضِرها كي ينحت منها وجوهًا غريبةً، يرمي أغلبها ويحتفظ بالقليل ثمّ يقول لي أنّها تمارين، يبدو لي أحمد أكبر منّي، أحسست به في ذلك الصيف كأنّه كبر دفعة واحدة، نبت له شاربان خفيفان وأصبحت نظراته أكثر عمقًا، وفي ما بعد قال كلمات لم أستطع فهمها إلّا في ما بعد عن ماهية الحياة والموت والرغبة في الرحيل إلى بلاد شموسها أجمل وغبارها أقلّ.

في ذلك الصيف، تحلّق القرباط حول قبر بدريّة ومسحوا الغبار عنه مُمْعِنين النظر في المرمر الأسود الذي ازداد ألقًا، وفي تجاعيد وجه علي الجمل الذي ما زال مصرًّا على أنّه سيبيع القبر ويستردّ نقوده التي ضَيّعَها ابن القحبة وابن المجنونة نادبًا حظّه. قام القرباط بأكثر من زيارة لكهف أحمد، جلسوا، ارتشفوا الشاي وغنّوا قليلًا ثمّ تبادلوا معه أشياء غامضة لم أعرفها، تبغًا وجلودًا وألوانًا وأقمشة مختلفة، النساء تدلّلن وهنّ ينظرن إليه ثمّ وهنّ يقتربن من لوحاته ومحنّطاته بحذر كبير خيفة أن يفتح الباب لهنّ ويطردهنّ.

في ذلك الصيف، بدا خالي قلقًا وغير راغب في التحدّث إلى أحد، رأيت الشيب يغزو شعره، وبدت عيناه أكثر بهوتًا كأنّ النعاس دبّ فيهما، وجسمه كأنّه هرم، حتى وهو يخرج من سأمه ليهرع إلى مخيّم القرباط من دون أن ينتظر حتى ينصبوا خيامهم أو يستريحوا من عناء السفر، بدا غريبًا عنّي كأنّي لا أعرفه.

وفي صباح اليوم التالي، بدأ الدوران حول الخيام وتوزيع الأماكن الاستراتيجية بين منتظري نشمة لتعيد البهجة للأزقّة، والحرارة للجدران ماسحةً بيدها الممتلئة بالخواتم الفضّية هذا الإحساس بالقيظ والفراغ المشبع بهذيان البراري عند اشتعال خطوط الأفق في الظهيرة أمام عيني الناظر إلى السهول المحصودة اللامعة، المتماوجة بحركة من يتأهّب لحريق كبير سيندلع ويترك العنّابية رمادًا تذروه الريح، المنتظرون بذكورتهم يتحسّسون قعور جيوبهم المثقوبة دومًا والنقود المختبئة وهم يستمعون إلى رنين نيكلها الذي سيقفز إلى الكيس المدسوس في صدرها الذي سيحتمل كلّ هذا اللهاث، في

ذلك الصيف فوجئ العنّابيون بالأجراس وأربكهم رنينها وشكلها المخروطي والدائري مُعَلّقةً أوّل مرّة في تاريخ القرباط، عَلّقوها على أبواب خيامهم وفي برادع حميرهم، وأجراس صغيرة في رقاب الأولاد والنساء، كأنّهم بهذا الرنين يطردون الأرواح الشرّيرة وسارقي الكحل، ازداد الارتباك حين تأخّر ظهور نشمة خارج الخيام، لم ترم بظلّها على دروبهم المليئة بالحصى الصغيرة رغم أنّها لَوّحت للعنّابيين أمسِ ولحظ الجميع وسط هذا المخيّم المرقّع والمركّب من مزق الأقمشة البالية وأكياس الخيش المثقوبة خيمة جديدة، مختلفة، انبثقت بلونها الأبيض الجميل فلم يستطيعوا أن يُخَمّنوا وقالوا أنّ القرباط تزنكلوا وبطروا. كأنّي لم أر شيئًا، الأمكنة الأثيرة إلى نفسي ضاقت وأنا أرى العنّابية بقيظها، بذبابها وعائشة كأنّها تنتظر نشمة أيضًا، تُطلّ من الزقاق وتستمع إلى رنين الأجراس الصغيرة ضاحكةً تسأل عن نشمة ولا أحد يجيب. في المساء الأوّل، نهض عَوّاد من مكانه الأثير وأمام خيمته، احتضن أبا الهايم الذي وصل ووجهه أحمر منفعلًا ويداه الحارّتان التفّتا حول عنق عوّاد، ضاحكًا، مبتسمًا، مرتبكًا. ارتشف القهوة المخصّصة للضيوف باحثًا عن ظلٍّ لنشمة مع نسائم العصر الرطبة التي تسلّلت رويدًا رويدًا إلى حديثهما الحارّ وإلى مجلسهما في طرف المخيّم، عَوّاد أخبر أبا الهايم بأنّ القرباط اشتاقوا له، لكرمه ولنايه ولنكاته وأحاديثه عن السفر، وطلب منه أن يأتي غدًا ليرى نشمة، فالنساء لم يرتّبن أنفسهنّ بعد وهنّ متعبات من السفر الطويل الذي فهم أنّه استمرّ يومًا كاملًا وليلًا بطوله. ثياب عوّاد النظيفة وحذاؤه اللامع مختلفان عن جميع ألبسة الآخرين وأحذيتهم، وهو يبدو قائدًا لهذا المخيّم أو نائبًا للشيخ الكبير لا عمل له إلّا الجلوس في الفيء تحت خيمته وحَلّ المشاكل التي من الممكن حدوثها بين قرباطيتين حول اقتسام الغلال، يُوجّه الرجال إلى برامج عملهم وتحرّكاتهم، لا يُصَادِقُ أحدًا بسهولة ومراسه صعب، إلّا أنّ حضور أبي الهايم وأريحيّته طوال السنوات الماضية جعلته مُقَرّبًا ومختلفًا عن أبناء العنّابية الآخرين الذين لم يختلط عوّاد بأيّ منهم، عَوّاد موفد حقيقي لحفظ نظام هذه القافلة الدائمة الترحال، لا يرحم التجاوزات الكبيرة ولا يقف عند الأخطاء الصغيرة، يسافر يومًا أو يومين من دون أن يعرف أحد وجهته ثمّ يعود محمّلًا بإرشادات جديدة حول مدّة البقاء والغلّة وعدد الحمير الملتقطة في المخيّمات الأخرى والمذبوحة ونوعية الغرابيل المصنّعة، يلقي التعليمات بتأفّف، يرافقه كلب صغير كظلّه لا يكبر أبدًا، يُطعمه من حصص الأطفال ومن أفخاذ الحمير المذبوحة ويلاعبه دومًا قبل أن يقبع قرب الخيمة أو عند قدمي سيّده الذي تَنِزّ من عينيه هالات حزن عميق لا يعرف سرّها أحد، رغم تساؤلات أبي الهايم الدائمة حول ذلك الغموض.

الملك المخلوع القرباطي العجوز الدائم الجلوس تحت الشمس حتى لو كانت عمودية وتُسَيّلُ ظوظ المخ والغربال لايفارق يديه، يصلح هذه الروفة ويُخَيّطُ ذلك الرتق واصلًا السيور الجلدية بيعضها بعيضًا وفي أوقات فراغه يُنْشِدُ

الأشعار ويجمّع الجرابيع والقنافذ، يفتّش أدغال البلّان وثقوب البرّية باحثًا عن هذه الكائنات، يُشَمّمُها رائحة التبغ ويملأ مناخيرها منتظرًا أن تقذف بأجسادها منتشية فاقدة رشدها بحركات بهلوانية ضالّة طريقها، ما يُثير حفيظة الابتسام لديه وهو مقرفص يراقب هذه الرقصات فيمسك بعودٍ يُداعب القنافذ التي تحتمي بفروتها الشوكية ملتقطة العود المثبّت من دون حركة، ثمّ يذبحها وينظّف الجرابيع من الأحشاء ويسلخ جلدها والقنافذ من عباءاتها الشوكية ويطهو طعامه الخاصّ في قدرة من فخّار مستمتعًا، قال أنّ عوّاد ليس قرباطيًّا، سرقه أحد القرباط من أحد المنازل المفتوحة وربّاه فأصبح ولده، وهذه الحكاية لا يجرؤ أحد على التصريح بها سوى هذا العجوز الذي يبدو أنّه يتمتّع بحصانة وله مطلق الصلاحية في ما يرغب، والحكاية تثير خيال الكثيرين وتساؤلاتهم، قرباطًا وغير قرباط، عن أصل عَوّاد ولونه المختلف قليلًا بميلانه إلى سمرة مختلطة مع صفرة واضحة، حتى عَوّاد كأنّه يبحث عن نفسه، عن أصله، كأنّه في كلّ أرض يبحث عن أمه الحقيقيّة وعن انتمائه الأصلي، سلطته العدوانية واضحة وأحيانًا عنيفة من دون مقدّمات يهابه الرجال ويأتمرون بأمره ويُحِسّ الجميع بأنّ كلّ النساء مباحات له، إذْ لم تُعرَف له زوجة أو عشيقة.

كنت أرى الملك المخلوع، وأعرف أنّ أحدًا لا يأبه بتصرّفاته، جالسًا تحت الشمس، أقترب منه وأجلس بين يديه، أتشمّم رائحة التاج، أقوده من يده ونخرج من كمائن المكان، يطفح وجهه بابتسامة رجل راضٍ حين يبدو الهواء أكثر نظافة، أقول له أنّني نسيت الصولجان فلا يأبه، يقول أنّ المخيّمات التي تغطّ في نومها الآن لا تمارس إلّا المكيدة، على جانبي الطريق كان الحرس الملكي ينحني ويقدّم فروض طاعته، في الطريق الطويل قال لي أنّ الكرسيّ يُوجِعُ مقعده وأنّه لا يحبّ أبّهة الملك ويريد البقاء هكذا ملكًا مخلوعًا، أحاذيه وأقول له يا سيّدي، مملكتك تزخر الآن بالمَدّاحين وبالمنشدات الواقفات على أدراج القصر حاملات الشموع ولابسات الأثواب الشفّافة يخاطبن القمر أن يُعِيدكَ إليهم، يُشير بيده أن اسكت ويتابع طريقه، يقول أنّ القرباط تغيّروا، ما عادوا قرباطًا وأنّ المكان ما عاد يحتمل تغيّراتهم، وأنّهم ما عادوا يربطون بغالهم تحت نوافذ المنازل العالية، ويتسلّلون كي يخطفوا فتاة جميلة أو طفلًا رضيعًا أو ينهبوا صندوق مجوهرات سيّدة غنية، ما عادوا يعرفون مواقع حوافر بغالهم وما عادوا يبعثرون كلّ شيء، أصبحوا بليدين وغير جديرين بملكٍ مثلي. كنت أستمع إليه وأعرف أنّ أخاه الأصغر قد احتلّ العرش وعندما سنصل إلى العرش سنجد البوّابات مغلقة والصولجان قد كُسِرَ وقبّعته قد رُمِيَت في صندوق التحف.

لم يهتمّ الملك المخلوع حين رأينا الجنود يدقّقون في وجوهنا، في أيدينا، في الوشم المدقوق على الساعد اليسرى، قال لهم أنّه الملك فأجابوا: لكنّك الملك المخلوع ويجب أن تعود إلى مكانك الآسر تحت الشمس وأنّ الملك الجديد قد قضى على كلّ لصوص المخيّمات ومُرَوّعي الأمن وأعِاد

المخطوفات وأنّه يحتفل مع رعيّته كلّ يوم. الملك المخلوع ضحك وجلس كأنّه ينتظر شيئًا ما أو زمانًا آخر، تركته تحت الشمس ومضيت إلى الحوش الواسع، كانت عائشة تتمهّل وتسأل عن نشمة التي لم تكن بين القرباطيات اللواتي انتشرن بين البيوت وفي الأزقّة كالجراد، أجراسهنّ ترنّ وتخبر عن أماكن تغلغلهنّ في مسامّ العنّابية بهياجهنّ، باندفاعهنّ، بفضولهنّ وروائحهنّ التي أزكمت أنوف منتظري نشمة وانتابتهم الخيبة حين عرفوا أنّها لم تُرْزَق بابن الحلال ولم تتزوّج، ولحظوا الغيرة المبطّنة وتثاقل القرباطيات وهنّ يقلن أنّ نشمة صارت حجّية وما عادت تحمل سطلًا، وهي الآن حجيّة صغيرة ولكنّها ستكبر وصيّتها بين القرباط قد شاع، المطاردات طاولت القرباطيات الأخريات بمللٍ وعدم رغبة، إلى اكتشافهم أنّ وضحة ستؤدّي مَهمّاتها وبدأوا انتظارها كلّ يوم، وضحة ذات الأربعة عشر عامًا أقنعتهم حتى وإن كانت غير جميلة، تفوح منها روائح غريبة تُشْبِه رائحة الأقبية حتى لو استحمّتْ كلّ يوم، صدرها رخو كالعجين وعيناها شبقتان تبحثان عن مستقرّ لذلك الوهج الحارّ المنبعث من البؤبؤين الذي أحال زبائنها إلى حريق حين كانت تضطجع على القشّ وتسمح بالانبطاح فوقها، تعرّي نهدها وتلقم الحلمة متّخذة كلّ احتياطاتها كي تهرب أو تنسحب فورًا كبساط من تحت أقدام الراقصين، اعتبرها الجميع مكسبًا حتى وإن كانت أسعارها أعلى من أسعار نشمة ذات الصدر الصلب والجسد اللدن، ازدادت وضحة أهمّية حين تطاولت أصابعها إلى قضبان الذكورة غير المكتملة وسمحت لبعض الأيدي بتحسّس فَرْجها من تحت الثوب وهي تردّد ألفاظًا غريبة لم يسمعوها من نشمة، الجرس الذي تعلّقه في رقبتها كبير يشبه أجراس المراييع بصوته الحادّ، وضحة تملك ساعة تلمع في معصمها وتعمل بحسب الوقت، بالساعة، ولا تُمانع أن يجتمع معها في المكان نفسه أكثر من واحدٍ ينقضّون عليها ويقتسمونها كأرض مشاع، يُهنهنون كأرضٍ تفيض عذوبة وبرودة منعشة في ظهيرة قائظة ويزعقون كمن مَسّهم تيّارٌ كهربائي وأحالهم إلى فحم، قالوا عنها أنّها فضيحة حقيقيّة ومتجوّلة ستهدم العنّابية بصوت جرسها المعلن انتهاء الموعد، عائشة زارتها وضحة لم تُرَحّب بها، جلستا أمام باب الحوش وتكلّمتا قليلًا ثمّ انسحبت بعد أن حاولت مع أختي السّماح لها بالصعود إلى الغرفة العلويّة كما كانت تفعل نشمة، حيث تجتمع الصبايا لتعلو الأصوات الغامضة. قلت لأحمد الجمل أنّني وضعت يدي على مؤخّرة وضحة ثمّ أدخلت إصبعي في إستها من فوق الثوب وأعطيتها طنجرة ألمنيوم سرقتها من مطبخنا ومعها ستّ بيضات، وقال لي أنّه استأجرها ثلاث ساعات وأغلق باب كهفه، لم يقل لي ما أعطاها إلّا أنّه قال أنّها ستعود، وأنّ عَوّاد في تلك الليلة أدخلها خيمته وانقضّ على فخذيها بعصا الرمان اللين، أشبعها ضربًا وحذّرها من دخول المنازل المغلقة وأن تخفّف الفضيحة وإلّا فإنّه سيذبحها إن اغتصبها أحد، لم تعد وضحة إلى كهف أحمد الذي لم ينتظر بعدما سمع، ولم يركض وراءها في الأزقّة وعلى البيادر، كلّ الذكورة احتفلت حيث أقامت مهرجانات

لذّتها وكثر الهمس بين الرجال العجائز وصرخات المراهقين المتحمّسين الذين لم يتركوا المخيّم ينعم بليله، حاصروه واستوطنوا البرّية الشرقية يتبادلون التبغ وينتظرون وضحة وسماع أخبار أبي الهايم الذي حذّرهم من أيّ تحرّش بسكّان المخيّم هؤلاء الذين بدأوا يحتاطون حاملين شكواهم في اليوم التالي للآباء والأمّهات اللواتي تنهمر الكلمات من أفواههنّ سريعة جاهزة على القرباط، وعلى يومهم، وعلى من أتى بهم إلى هذه الديار، قالوا قرباط أوّل غير قرباط هالأيّام، أمي كانت أشدّ المهاجمات مذكّرة بأنّه إن حصل لخالي شيء فستقلب الأرض على رؤوسهم، خالي بقي كما كان، ازداد تفجّرًا واندفاعًا، أعيته الحواجز والكلام المختبئ في قفصه الصدري، طارت يماماته البيضاء ناصعةً كثلجٍ بِكْرٍ حين دخل تلك الخيمة التي يقبع أمام بابها الكتّاني المنسوج بعناية جرس كبير يُنبئ بالآتي. برودة منعشة هبّت من زوايا الخيمة وأوقفته نشمة على العتبة حين هبّت من فوق أريكتها ومدّت يدًا نظيفة، رقيقة، تقاوم القشب وتُحَزّزُ الجلد، مكتنزة قليلًا، قالت له أهلًا أبا الهايم، أهلًا وسهلًا. ارتبك قليلًا، هذا الصوت يعرفه، باهتزازاته المثيرة وغلمته، قال لها الحمدلله على السلامة، أهلًا نشمة. كأنّه يريد أن يردّد أبياتًا من الشعر باستعراض مسرحي إلّا أنّه ارتبك، ولحظت نشمة ذلك فدعته إلى الجلوس وأمرت عَوّاد بإغلاق باب الخيمة بعد خروجه، خالي تفحّص المكان الذي أتى إليه عاريًا، مكشوفًا، أرائك نظيفة وطنافس واطئة، بساط من شعر الماعز، عطر يعبق برائحته وهدوء شديد لا يقطعه سوى صخب بعض الأولاد حرّاس الحمير المهيّئين للمذبحة، وأصوات قرباطيات عائدات أواخر المساء وهنّ يلملمن شتات إفرازاتهنّ ويقتسمن الغنائم: في الزاوية اليمنى للخيمة ستارة مثلّثة من المخمل، خمّن خالي أنّها لتغيير ثيابها التي زهت بألوانها، نظيفة، ضيّقة تبرز فتنتها، وبدت عيناها أكثر اتّساعًا ونعاسًا، قال لنفسه أنّها أميرة، ملكة، أكثر ممّا حلم وأنّه سيبني لها برجًا بسبعة طوابق، يزحف على أدراجه كي يصل إلى غرفتها العالية ويأتي بإناء الفضّة كي تغسل قدميها بماء الورد، وأنّه انتظر طويلًا ولن يترك هذه الفتنة تفوته، وقال لها تبدين كملكة حقيقية، محاولًا كسر حدّة الارتباك والصمت اللذين غدوَا حاجزًا كتيمًا، وهو يتأمّل النهدين المكوّرين النابقين من فتحة فستانها الأصفر كصرخة تشقّ سكون الحجارة. قالت ضاحكةً، مستعرضةً، متمهّلةً في نهوضها وتغيير جلستها، أنّ الملكات بعيدات وما هي سوى قرباطية لا تؤخّر ولا تقدّم وتكسب رزقها بعرق جبينها، ضحك من عبارة عرق جبينها، ثمّ تابعت أنّها لا تحبّ العروش ولا تستطيع إلّا الانفلات في المكان، أحسّت نشمة بأنّ حوارها ثقيل، وتحسّبَت حين رأته يقترب منها ليجلس قربها، رأت الشهوة التي اندفعت من حدقتيه، شراييه تنبض ويده تتمدّد في اتّجاه صدرها المُشمس، أدركت رغبته المفضوحة وفرّت كطيرٍ فاجأته الفخاخ، وقالت بضحكة مستهترة زمان أوّلْ تحوّلْ، وقال بعد أن انتبه إلى يده المعلّقة في الهواء أنّه أبو الهايم وأنّه يعرف أنّ زمان أوّل تحوّل وأنّه

يحبّها وهي تعرف ذلك وهي تحبّه. عندذاك، قاطعته مؤكّدة أنّه غالٍ عندها لكنّها الآن حجّية وستكبر وتصير حجّية كبيرة وأنّها مصمّمة على ذلك.

بدا صوته مخنوقًا، ضعيفًا، كأنّه خارجٌ من بئر عميقة ومهجورة، وهو يخبرها بأنّه ينتظرها من الصيف إلى الصيف وطوال الشتاء يحنّ إليها ويبحث عن مصابيح قومها القرباط وأنّه يريد أن يتزوّجها ليبني لها برج الطوابق السبعة ليريحها، قالت له أنّها لا تحبّ غير شغلها ولا تريد الزواج وأنّها كلّ يوم في ديرة، وكانت تستمتع بكلمة بحبّك حين تخرج من شفتيه وفي داخلها إحساس بالمكابرة يتعالى وهو كمن يستجدي، أصابعه المرتجفة مبعثرة على ركبته وبدت له تقاطيع وجهها أكثر جدّية كأنّها كبرت قرنًا كاملًا خلال العام الماضي، لم تعد لعوبًا وتحسّ بأهمّية استثنائية ليديها، لصوتها، لصدرها، لوجهها؛ وشاهدُ التميّز خيمتها المُعَدّة كمصيدة بعد أن قرّرت ووافق القرباط أن تصبح حجّية، ثمّ قالوا فنّانة، وعَوّاد بصعوبة وافق بعد أن استدعاهما شيخ القرباط، سمع صوتها وشاهد رقصها وهمس في أذن عَوّاد أنّها منجم ذهب وسيصبح لها شأن كبير، ارتبكت في البداية وهي ترافق الحجّيات في حفلاتهنّ وتتعلّم الطريق إلى الرجال ومتى تغلق بوّاباتها. أبو الهايم ينظر إلى وجهها المسكون ألقًا ويعودان للتحدّث بكلام لا روابطَ بينه: عن عملها، عن زبائنها، عن أحلامها وهو صامت أو يحدّثها عن حُبّه، عن رغبته، عن انتظاره، عن خيبته، هي الملكة على هذه البزّاقات متربعة على عرشها تنتظر الرجال المجهولين والليالي الزاخرة بالرقص والغناء والأموال المتدفّقة من كلّ جانب وتدندن أغاني حفظتها ثمّ تفلت ضاحكة وترجوه أن يأتي دومًا ومعه نايه كما كان يفعل في الأصياف الماضية، هو يدندن على ثقوب نايه وهي تسترسل بالغناء فترة قصيرة بانسجام وحميمية، ولا تمانع أن يَمُدّ يده إلى فخذها ويقرصها في غفلةٍ من الحاضرين أو يقبّلها في فمها حين يكونان وحيدين ويدسّ بين ثدييها يده المغلقة على أوراق نقدية كانت نشمة تتشمّم روائحها العطرة وتقول أنّها تحبّه أيضًا وأنّه شهم وكريم.

خرج أبو الهايم من خيمة نشمة، ولم يُرَحّب بدعوة عَوّاد إلى القهوة ولم يسمع سخرية الملك المخلوع وهو يقول لقنافذه أن تنظر إلى أبي الهايم وتتذكّر هذا الوجه، عاد إلى منزله عبر دروب يعرفها، خابًّا على التراب يجرجر قدميه ويستمع إلى وقعهما على الأرض فينبعث صوت مكتوم، فتح صدره لنسيم غربي يبشّر بليل رطب. كانت الأصوات ونيران المواقد وروائح البرغل تتصاعد من المخيّم الذي بدا بعيدًا جدًّا أو طيفًا لا يراه، تحاشى ما صادف من عنّابيين وأوغل بعيدًا في الصمت، وقال لنفسه سيدور العالم وراءها وأنّها سكنته إلى الأبد. جدّتي حزنت حين أخبرتها بأنّ خالي عزف على الناي ليلة أمس وشاهدته يبكي، سألت جدّتي: ولكن، لماذا كان يبكي أبو الهايم؟! رفعت رأسها عن البساط قليلًا وراقبت حركات يدي الخائفة وأنا أشرح لها أنّ عزف الناي كان جميلًا جعلني أنام ولا أتنبّه إلّا وأنا ممدّد على طرّاحة قرب فراش

خالي المستيقظ الذي لم ينم، وهو جالس في فراشه، يرتشف قهوته ويدخّن قائلًا لي أنّ أمي أتت في الليل وسألت عنّي، وأنّه لم يتركها تأخذني وأنا نائم، لكنّها حملت فانوسها واصطحبت خالتي معها وتشاورتا في أمر أخيهما، قالتا كلامًا كثيرًا عن الفضيحة وعن عمره وعن نشمة القحبة وعن عظام جدّي التي ستزعل وعن عنّاب الذي لا يرضى لأحفاده هذه البهدلة، وعادتا آخر الليل متابعتين ثرثرتهما والتشاور، أمي بكت وخالتي ورأيت جدّتي كأنّها تعرف، رأيت حزنها طافيًا على تجاعيدها، وأنا أقول لها أنّ خالي إن لم يتزوّج نشمة فسيقتلها ويقطّع جسدها ويرميه للكلاب. أقرب الساكنين إلى بيته سمعوا صياح الديك وصوت الناي، الناي نفسه إلّا أنّ النشيد كان حزينًا متعاليًا ثمّ منخفضًا كأنّه يصرخ بصوت مجروح، والقرباط تساءلوا عن آخر أطياف هذا الشجو البعيد الآتي مع الريح وعرفوا في ما بعد أنّه أبو الهايم، وبدأت أتذكّر أنّي رأيت نشمة تحلّقُ فوق شجرة الزعرور بثوب زعفراني وأكمام بيضاء، وقال لي أحمد أنّه كان ساهرًا أمام باب كهفه يدخّن طوال الليل وهو يتأمّل النجوم والسماء السوداء، كلّ شيء أسود ولا خلاص.

الكتاب الفرنسي نفسه مفتوحٌ أمامه، وعلى الطاولة تناثرت أوراقٌ مكتوبٌ عليها ترجمات لمفردات تتعلّق بعلم التحنيط وأحمد يشرح لي أنّه أتَمّ قراءته بالفرنسية وأنّه أهم ما كُتِب في علم التحنيط، وأضاف أنّه سيعلّمني الفرنسية إذا أردتُ، ثمّ عاد إلى تمدّده على الأريكة متأمّلًا آخر الوجوه المرسومة على القماش الأبيض الذي لوّنَه بالأسود وكانت العيون تجحظ كأنّها مشانق زُرق تتدلى من السماء وتقترب رويدًا رويدًا من الوجوه والرقاب، لا تصل المشانق والوجوه تبتهل كأنّها تريد الصعود، في الخارج رأيت كلّ شيء أسود. أحدّق في الظلام فلا أرى شيئًا. هادي العنّابي مقرفص في الزاوية يراقب الغرباء، يقول لي أنّه أضاع خرائطه، لذلك يجب إعادة رسمها ويأمرني بأن أخطّ في الهواء دربًا، فأخطّ دربًا ثمّ يقول اكتب س1، ويتابع أنّ وراء الدرب تلّة ووراء التلّة سبع تلال ويقول لي اكتب ع1، ارسم خطًّا من رأس ع1 متعامدًا مع س1، وسَمّ النقطة المركزية م، يجب الوصول إلى م، تعبت أصابعي من الكتابة، قلتُ له أنّ المكان الذي حفرنا فيه المرّة السابقة هو المناسب، القافلة لا تستريح إلّا قريبًا من الماء. من هنا، كان يجري نهر صغير يصبّ في نهر عفرين ويذهب ليصبّ في البحر، يضحك ويقول لي: البحر ضيفي، والرسائل المدسوسة في الزجاجات الفارغة كنت ألتقطها من على الشاطئ، أقول له: الوقت تأخّر هيا نتابع التنقيب، يقول مرّة أخرى تعال نُعِد رسم جميع الخرائط ونحدّد الأمكنة.

نسير في الظلام إليه ويقول لي ارسم دربًا، شجرة، امرأة، بئرًا، فأرسم ويقول لي احسب الأبعاد، فأضيع وأتوه وأرى الملك المخلوع وهو يقترب منّا، ويُخبرنا عن الأبعاد، يتابع هادي العنّابي قرفصته ومراقبةَ الغرباء كأنّه يعرف الملك المخلوع فلا يحتجّ على فضح الأسرار التي أقسمت على حفظها، ويلحظ ارتباكي فيطمئنني بأنّ الملك المخلوع عنّابي، ونحن الذين أوصلناه كي يغدو

ملكًا، لكنّ دماءه أبت إلّا أن يصبح مخلوعًا، يتابع هادي وأنا أرسم في الهواء الخرائط، والخطوط البيانية مُسَمّيًا نقاط العلام، الملك المخلوع يقرفص قربه ويراقبان الغرباء. أتركهما وأدخل أرض الحوش الواسع، عائشة تقول لي أنّ جدّتي تريدني. أمام باب غرفتها، أرى أناسًا مُتحلّقين حولها كأنّها أكثر شبابًا وهي تروي الحكاية. عنّابيون متمدّدون ويدخنون، وأطفال صغار حولها، أدخل وأبدأ تدوين الحكاية في الهواء، عائشة كانت أكثر قلقًا وأكثر صمتًا، وأكثر حذرًا من الجميع، دومًا تُحادث زليخة أو تُطرطش صدرها بالماء وتفوح رائحتها وأسمع صوتها بِبُحّة جنس عتيقة وهي تقول: آح! ذهبت سرًّا إلى خيمة نشمة ولا أدري كيف اجتازت كلّ هذه الحواجز، تحجّجت بأنّها تريد أن تشتري كحلًا خاصًّا، رَافَقَتْها في زيارتها ثلاث بنات أخريات وزليخة، نشمة أغلقت باب غرفتها بعد دخولهنّ وتعالت ضحكاتهنّ، ابتسم عَوّاد والملك المخلوع بدأ يقرأ الأشعار، أمي طلبت من عائشة ألّا تُكَرّر ذهابها وإلّا... كان التهديد واضحًا، عائشة تذرّعت أنّها ذهبت لإقناع نشمة بالابتعاد من خالنا، لكنّ الأم لم تصدّق وسكتت، فرحت عائشة لأنّ نشمة قالت أنّها تحبّ أبا الهايم وتعشق أصابعه التي تدوزن الناي، عائشة زارت نشمة مرّة أخرى وتعال صوتاهما وهما تتحدّثان عن موضوع غامض، كانت عائشة غاضبة جدًّا ونشمة مرتبكة وخائفة أوّلًا ثمّ تعالى زعيقها.

خرجت غاضبة، ونشمة لم تستقبل أحدًا أكثر من ثلاث ساعات ولم تكلّم أحدًا، عائشة بدت مهمومة، صدرها المتفتّح بصراخه كأنّه يريد تمزيق الثوب، قالت لي زليخة أنّ عائشة في الليل تخلع كلّ ملابسها وتنام عارية وأنّها لا تعرف متى تخلع عائشة ملابسها إلّا أنّها في الصباح تضبطها عارية ونهدها متدلٍّ بدفءٍ، تحسّسته زليخة برؤوس أصابعها وضحكت حين قفز كالراصور، وعائشة تأوّهت مرّة واحدة وقلبت على جنبها الآخر تاركة ظهرها العاري الأسمر، مشدودًا، إنّها تحبّ أن تتقلّب في الفراش وتقذف بيدها في الهواء كأنّها تحتضن شيئًا ما، زليخة تراقبها وتجلس قرب فراشها حتى تستيقظ بشعرٍ مُشَعّث وشفتين رخوتين، نهداها الدافئان يتأرجحان، تلحظ زليخة فتضحك ثمَّ تأمرها أن تناولها ثيابها، تبدو زليخة قلقة من عريها المتكرّر ولم تعرف تفسيرًا للأمر، وما إذا كان هذا العري طبيعيًّا وأنّها ستفعله حين تصل إلى سنّها، وتذكّرت أنّ فاطمة لم تكن تتعرّى وإن كانت أحيانًا تُعَرّي جزءها الأسفل وتترك أزرار ثوبها العلويّة مفتوحة فتستطيع رؤية ملتقى النهدين فحسب، هذا المجرى المظلم، هذا الارتفاع المثير، زليخة سألتها: لماذا تتعرّين؟! قالت حين تكبرين ستفهمين السبب، سكتت زليخة ولم تعد تناقش الأمر.

سئمت الصيف، سئمت هذا الصيف، أقلقني تحوّل خالي وبصره الزائغ غير المستقرّ على أيّ ركنٍ حين أحدّثه، كأنّ أطيافًا لامرئية تمرّ أمام عينيه في استعراض عسكري وهو يتابعها ويخاطبها من دون أن يفهم ما يقول مَنْ حولَه، أمي بدت أكثر قلقًا حين بدأت ساعات إقامته في خيمة نشمة تطول وتمتدّ

أحيانًا يومًا بأكمله من دون أن يعود إلى منزله، قالت له أنّ البرّية الشرقية ستحمل له الموت والفضيحة، وساكنيها جانٌّ يلعبون بالبشر ونشمة ابنة شياطين وعليه أن يتقّي الله ويعود إلى نفسه ويتزوّج بأيّ عنّابية يختارها ويطوي صفحات عمره الخائب، وتضيف أمي أنّه لا توجد امرأة بحجم هذه البهدلة. خالي كأنّه لا يسمع، يأمرني بأن آتي بأكواب الشاي، يزداد نحولًا وشفافية وشرودًا وغالبًا ما يعجز عن متابعة الحديث إلى آخره فينصت لصوته الداخلي كالأنبياء المترفّعين عن سخافات الحياة اليومية. كنت أبتهج حين أراه يشفّ ويزداد أناقة وأرى في عينيه ذلك الظلّ الحزين وأنا أحبّ هذا التصميم وهذا الترفّع عن مجاراة العنّابية وهذا الجري وراء الأوهام، كان يبدو لي سيّد الوهم وهو يزداد شفافية ويتركني محتارًا، أجري إلى قلاع القرباط وأرضهم المستباحة للشوك و المدّيْدة كأنّ قوًى خفية تجذبني إلى تلك الأسمال التي لا تعرف الثبات، كلّ شيء موقّت هنا، المكان والزمان وهؤلاء البشر الذين ينثرون وراءهم دروب الوهم والفلتان من التَشَبّثِ بأيّ شيء، كثيرًا ما رأيت نشمة متصدّرةً خيمتها وسط برودة منعشة في محيط لاهب وخالي قريبًا منها يفرد نایاته، يُشَبّعُ القصبَ بالماء وينفخ لتنطلق أسراب حمائم في سماءٍ لا جدرانَ تطاولها وعيناه تتوسّلان صفحة وجهها المشعّ بسحر أخضر منفلت، يحوم في الفضاء، يحلّق ولا يعود إلى الأرض، أنظر إلى نشمة غير مصدّق أنّ تحوّلات امرأة كانت الذكورة تنتظرها لتعبث بمؤخّرتها وتقهقه من اللذّة المفترضة، امرأة غاصت في كلّ المزابل ودخلت كلّ الخرابات تُتَوّجُ الآن ملكةً وتُحيل رجولة أبي الهايم إلى صديدٍ، وفتنته إلى روحٍ هائمةٍ كطيورِ الليل التي تتحسّس الهواء والحواجز معطّلة محاولات اصطيادها بسرعة فرارها حين تشمّ بمسامّها رائحة المصيدة، ملكة تجعل الملك المخلوع ينشد الأشعار غير المترابطة حين يتعالى صوت الناي من داخل الخيمة وفي ما بعد تأمره أن يأتيها بالماء كي تغسل يديها، الملك المخلوع كان يشير لي بالاقتراب منه، يقدّم لي برأس الملعقة قطعة من القنفذ المطهوّ، أشيحُ بوجهي فيضحك ويقول لي اجلس ويضيف أنّ أبي كان رجلًا شهمًا وقويًّا وجدّتي هي أغلى من في هذه الأرض من كنوز وجدّنا عنّاب هو أصل المنطقة وحافظ كراماتها وأسرارها، وأنّ خالي عنّابي أصيل و يعشق نشمة، يقولها بتهكّم أو بحزن لا أدري. وأنّه سيصل أخيرًا إليها ويطلب منّا ألّا نقلق عليه، فالعشق مغارة مظلمة لا تعرف متى تدخلها ومتى ستخرج منها، يعجبني التشبيه وأسأله أين ترك الحرّاس والعذارى الذين كانوا يرافقونه، يهزّ رأسه كأنّ حرّاسه ما زالوا يحيطون به ملكًا مُتَوّجًا، مُهَابًا، يقفُ أمام بوّابة قصره وبيده الصولجان، أفتّش في خيام القرباط عن الروح الضائعة كأنّني أريد أن أستتر وأدخل كهف أحمد الجمل كالعاصفة أساله لماذا لا يرتاح هؤلاء القرباط؟! يضحك أحمد ويقول لي لأنّهم يحبّون اللون الأزرق، لا أفهم ما يقصد ولا يترك لي مجالًا للاستفسار أكثر، يعود فيغرقِ في كتابة أشياء على أوراق أمامه، أرى الكلمات متناثرة

على بياضها ولا أدري متى راكم كلّ هذه المسوّدات ولا ما يريد منها، جدّتي قالت أنّ عينيّ تشبهان عيني عنّاب الكبير وجبهتي تشبه جدّي الرابع سويلم وهذا شيء لا يتكرّر كثيرًا، وأنّها حين شاهدت تلك الجبهة، رفعتني على يديها ورقصت، قطعت لي حبل السرّة وانزلقت على قدميّ أوّلًا تاركًا رأسي لآخر لحظة في ظلام الرحم اللذيذ، أراها الآن كأنّها غائبة عن الوعي، مُحدّقة في الفراغ وسط غرفتها الطينية كأنّها تُحَادِثُ روح عنّاب الهائمة في أرجاء الغرفة، أمي بكت وقبّلت يد جدّتي ورجتها أن ترى أمور خالي، قالت أمي أنّه مثل ولدها تمامًا فاعترفت جدّتي بأنّه ولدها وغالٍ على قلبها ومدلّل، وقالت لأمي أن تنسى الموضوع فهو لا يُخطئ، إن كان مكتوبًا عليه كلّ هذا الحبّ فسيحتمله ويعود كما عاد غيره وأنّه سيعقل، أمي قبّلت يدها ثمّ رجلها التي سحبتها فورًا غاضبة من أمي ومتضامنة مع دموعها الحارّة التي اندفعت حين سمعت أنّ أبا الهايم هو العازف وحامي نشمة في حفلاتها وأعراسها. حسين البهاري قال أنّه شاهده معها في عرس الغزّاوية منذ ثلاثة أيّام، وما رواه كان أشبه بالحقيقة الأخيرة أنّ نشمة ضيّعت أبا الهايم وأنّه فقد الكثير من رجولته وعنّابيته ونسي الوصايا. كلّ شيء يتسلّل خفية من مخيّم القرباط، رائحة المؤامرات وأجساد نسائهم، الأخبار والسير والحكايا، لتصبح علانية في بيوت العنّابية، يساهم الجميع في تكوين هذا النسيج، يكفي أن تُلْقي بذرة واحدة في هذه الأرض لتُنْتِشَ في اليوم التالي حكاية طويلة يُساهم الضجر في إكثار تفاصيلها وتكرارها، خالي لا يصحّح ولا ينفي ولا يؤكّد، يكتفي بهزّ رأسه وإطلاق دخان سيجارته محاولًا تغيير الحديث عن المواسم المقبلة وأسعار الجلبان والبامياء في البازار.

العنّابيون يثرثرون، يمدّون أرجلهم على البساط ويثرثرون وخالي غائب، وأنا أركض إلى خيام القرباط، أدوس الشوك وأسأل الملك المخلوع عن ذلك النور الذي يتساقط، فيقول أنّه نيزكٌ تفتّت ويُريد أن يُبَلّغنا رسالة. الملك المخلوع يفرم التبغ على حجر ولا يلتفت إليّ، النيزك يتفتّت، وأنا أجول في هذا المكان المغلق، واهب اللذّة والمحرّض على الرحيل الدائم، أبحث عن أغصان شجرة الزعرور الوحيدة، تزكم أنفي روائح جلود الحمير المذبوحة المعلّقة على الأغصان، ينعكس عليها ضوء القمر فيبهجني المشهد وأستمتع بهذا التشكيل متناسيًا الرائحة، تهبط عليّ الروح الضائعة، تهزّ جسدي، تهزّني، تختلط بروحي، تطرد العذاب والقلق. رأيت الملك المخلوع مع هادي العنّابي المقرفص على كرسيّ يراقب الغرباء وينتظرني كي نعيد رسم الخرائط. القلق، القلق يلفحني هواؤه، أسمع أصواتًا غريبة من خيمة نشمة قال لي الملك المخلوع إذا أردت الدخول فتدثّر. في الداخل، برد شديد. بِمَ أتدثّر؟ أريد أن أخلع حذائي وقمصاني التي تثير غيرة أولاد العنّابية، أسأل الملك المخلوع مَنْ في الداخل؟ فيقول من دون تلكّؤ: سلالتك. ويُتابع فرم التبغ، أرفع الستارة التي اتّخذت شكل باب وأدخل، أخلع حذائي، أريد أن أبقى حافيًا، ألامس متعِة

البسط الممدودة... نشمة في صدر الخيمة متربّعة على كرسيّ عالٍ كأنّه عرش، إلى يمينها خالي وإلى يسارها ثلاث بنات أرى وضحة وأعرفها، أغمزها فتغمزني، وضحة مُمْسِكة بالدفّ وخالي بالناي رأسه مُطْرِقٍ إلى الأرض ونشمة تُحادثه بكلمات غير مفهومة أو بعيدة لم أسمع منها شيئًا، في جوانب الخيمة اصطفّت طرّاحات عالية تبعثر عليها ثلاث رجال بـ مكلّابيات نظيفة وخواتم ذهبية وفضّية في الأصابع، يتثاءب الرجال ويتكلّمون في ما بينهم بكلام متقطّع ثمّ يُوَزّعون السجائر على بعضهم بعضًا. أدخل مع الروح الضائعة، أبعثر يدي على الأرائك وأتغلغل في النسيج، لا أريد أن يراني أحد أو يسمع صوت ارتطام الهواء برئتي، تتوقّف سيّارة أخرى قرب التي رأيتها متوقّفة بعيدة قليلًا من الخيام، وبعد دقائق يدخل ثلاثة رجال آخرين، وامرأة تلبس عباءة من الحرير الأسود، روائح عطرٍ غريب تنتشر في الجوّ، الرجال يُهَلّلون للقادمين وأبو الهايم يرفع نظره قليلًا عن الأرض، يدخل ثلاثة رجال أحدهم يقرص نشمة في ثديها فتتغنّج وتدّعي أنّها تزوره، تزرّر حاجبيها وتقول له مش هيك بلهجة مدنية، الرجل الثاني يُلبسها خاتمًا ذهبيًا ويرمي بالعلبة الأنيقة في الهواء بحركة استعراضية، يُسلّم على خالي الذي لم يرحّب إنّما نظر إلى نشمة كالمتعلّق برجاء خائب.

الرجل الثالث جلس قرب الباب ثمّ أتى ثلاثة رجال آخرين دخلوا صاخبين، هاتفين وفاحت من أفواههم روائح خمر ضجّ بها المكان، الرجال ضحكوا مع الضاحكين وأحدهم حمل نشمة في الهواء ورماها على الأرض ثمّ مدّ يده إلى خدّ وضحة التي ضحكت فبانت أسنانها الذهبية، وسمعتها تتفتّح وتغمزه، الليل وكلّ شيء صامت، خالي رفع نايه إلى فمه وبدأ يعزف، سألت الروح الهائمة هل هذا هو خالي؟ هل هذه أصابعه؟ هل هذه روحه المتصاعدة في المكان؟ موسيقى رديئة كان ناي خالي يتحشرج بها والرجال يهزّون رؤوسهم من دون داعٍ، ويُثنون على الموسيقى، رافقته وضحة على الدفّ وارتفع صوت نشمة بالغناء، قالت لي الروح الهائمة أنّها سكنت خالي منذ زمن بعيد وأخفت روحه في أحجار البيت وفي جذوع الأشجار وفي خدوش المزار، وزّعنا روحه قالت لي الروح الهائمة، أرض القرباط الرجراجة، المنفلته، المتراخية تمسك بأقدامي تتركني حافيًا ولا ألحظ ذلك إلّا وأنا أمام باب كهف أحمد الجمل الذي تمدّد على أريكته يقرأ في كتاب فرنسي جديد، ظننت أنّه شعر، نهض حين رآني مُشَعّثَ الشعر وقلت له أنّ الروح الضائعة ترافقني، فقال لي: أجلسها، أجلسها على حجر، وأضاف هل تشرب شايًا، لم أمانع، سكب لي من إبريق جاهز كوبًا وقَدّمه لي ثمّ نهض قال للروح الضائعة أنّه تعب قليلًا، فقالت أنّها هكذا تتكوّن كما تريد، تناول الريشة وانتثرت الألوان أمامه، أحمد يرسم والروح الضائعة تتجَلّى رويدًا رويدًا على القماش وتضحك هازئة من أحمد الذي يحاول أن يُمسك بشيء يفلت منه على اللوحة وأرى حركة يده العصبية في ملاحقة مزج الألوان، الأزرق مع البرتقالي وخطّ على صدر القماش الأبيض،

الروح الضائعة تنزل عن الحجر وترحل، تتسرّب عبر الباب المفتوح تقول لي قبل أن ترحل: تعرف أين تجدني، أحمد ينظر إلى الحجر فيرى الفراغ، يظلّ يرسم، يقهقه ويواصل الرسم، يهدأ قليلًا ويبدأ الرسم هادئًا، كأنّه أصبح معلّمًا، اختفت أخطاء البدايات ورأيت أصابعه تتحرّك على اللوحة كأنّها تعزف، ثمّ قال: هل تعرف لون السماء، أجبته: لا أعرف، قال: انظر، نظرت، كانت السماء برتقالية مثقلة بلون غامض خليط من الأزرق والبرتقالي، قلت له: هذه ليست سماء، بل وجه. قال: السماء هي وجهنا، وتابع من دون أن يكلّمني، ارتشفت الشاي وجال بصري في الكهف، الكهف الذي أصبح منزلًا وأكّد أنّه سيهدمه قبل رحيله وأضاف أنّه يمارس لعبة سخيفة مع نفسه حين يبني هذا الكهف ويدعم دعائم وجوده، قال لي أنّ أباه حاول إقناع القرباط بشراء المرمر والقرباط أجابوه أنّهم لا يحبّون القبور المرمرية وأنّهم إذا احتاجوا إلى هذا المرمر فسيسرقونه ولكنّهم يخافون منّي، أبي أقنعهم بأنّ المرمر ثروة وكلّ ذرّة منه بمثقال ذهب، وتابع أنّ أباه كلّ يوم يقف أمام باب الكهف يرفع يديه ويبتهل إلى الله أن يقرف عمره كي يُشفي غليله، أحمد يضحك حين يرى أباه هكذا فقيرًا مرّة أخرى، مشرشحًا وغير مُصَدّق، بل ومذهولًا حتى الآن ويبكي أحيانًا على بدريّة ويعترف بأنّه ظَلَمَها وظَلَم أمها وشَرّد إخوتها، يبكي ويقول لو تعودين يا بدريّة وعلامات الإهمال تبدّت في ذقنه التي بدأت تطول وعينيه القلقتين، الشاردتين ووجهه المتعب. أحمد يترك اللوحة، يجلس قربي، يراني متمدّدًا مكانه على الأريكة ويقول أنّه سيرسم الله ووجه عنّاب، كأنّ الغياب عن أحمد قد تَقَمّصني وما زلت أجول على البساط في خيمة نشمة حافي القدمين وأرى الرجال يدورون حول نشمة التي نهضت كي ترقص على صوت الدفّ، ناثرين ما في جيوبهم من أوراق نقدية تلتقطها البنت الجالسة قرب وضحة، كأنّي أراهم يرحلون منتشين يمدّون أياديهم إلى جسم نشمة اللدن، كأنّي أرى الرجل الذي جلس قرب الباب قد تهيّأ للرحيل، هَبّ واقفًا واقترب من نشمة التي وَدّعتهم جميعًا وأعلنت أنّها غدًا ستكون في عرس ولقاءهم الخميس المقبل، الرجال غادروا، مَرّوا على الملك المخلوع الذي يدخّن في صفاء هذا الليل، مازحوه وسأله أحدهم: هل أنت حارس فَرْج نشمة؟ الملك المخلوع ردّ عليهم بصوت غاضب: نعم أنا حارس فروج أمّهاتكم وأخواتكم. ضحك الرجال، ركبوا السيّارتين ورحلوا. نشمة تعدّ النقود، تفتّش البنات الأربع، تمدّ يدها إلى ثياب جامعة النقود وتخرج قطعتين من فئة الخمسين وتحذّرها من أن تفعل ذلك مرّة أخرى، تفتّش وضحة التي أعلنت أنّ ما في جيبها بخشيشًا، تركتهنّ وطلبت منهنّ أنّ يذهبن للنوم، نشمة وأبو الهايم في الخيمة وحيدان، تخبرني الروح الضائعة المبحلقة بأنّه طلب منها أن تكفّ عن تعذيبه وتترك هؤلاء السفلة، نشمة ردّت منزعجة: هذا عمل وهم ليسوا سافلين، هؤلاء متعهّدون ومسؤولون لهم كلمة في الدولة. يسألها: وما حاجتك إلى الدولة وأنت دولة؟! تضحك، وتصمت، يصمت ويجلس قربها، لا تُمانع اقترابه

منها، يضع رأسه على كتفها، تداعب شعره قليلًا وتسحب يدها ثمّ تطلب منه الرحيل قبل أن ينتشر ضوء الصبح ويفضحها، يمسك بيدها ولا تمانع، يهبط إلى الأرض ويمسك بقدمها، يداعب الأصابع، يُقَبّلُها، يقبّل باطن الرجل ويصعد بشفتيه المحروقتين، وصوت أنين ينبعث من خلاياه، تسترخي بعد تعب، تغمض عينيها كأنّها تحلم، يصعد بشفتيه إلى ساقها، يقبّل كلّ خلية، كلّ مسامّها بهدوء رجل خسر كلّ شيء، ينظر إلى النهدين الشامخين، إلى الملتقى الذي يهزّ أوصاله وهو يرى أيدي الرجال تدحش النقود في مجراهما، يهيم بالساق فيرفع طرف التنّورة البنفسجية النظيفة ويوغل أكثر، يصل إلى الركبة فتدفعه يدها ولكن برفق يستشفّ منه الرضا، يعيد الكَرّة، ويصعد إلى الفخذ، هناك كأنّه حطّ رحاله، يزداد الأنين، يتصاعد، وشفتاه تُوقظ الحياة في المسامّ الخاملة المخدّرة، نشمة تسترخي قليلًا وتعيد دفعه، يزداد اندفاعًا ويحتضن حوضها، موغلًا في بكاء انفجر فجأة وهو يهيج بفمه، بأعصابه، بيديه، يشدّها إليه ويأكل الفَرْجَ المزوّد بكواتم وموانع لا تخلعها إلّا عندما ترغب في أن يتساقط جسدها قطعة قطعة وتذوب، هي غائبة كأنّه يصلّي، لم تجرحه الأقفال، جرحته طراوة الموسلين واللحم العاري ويد نشمة التي كأنّها استيقظت فجأة، قبّلت شفتيه، طويلًا، أخذت شفته السفلى بين شفتيها، أوغلت كثيرًا في المصّ برغبة جموح وقالت له أنّ القرباط سيقتلونها إن عرفوا أنّها تحبّه وتقبّله بكلّ هذا الشبق والرغبة، تركته وابتعدت منه راجية إيّاه أن يرحل إن كان يحبّها فالصبح فضّاح وعَوّاد لا يترك شاردة ولا واردة إلّا ويُوصلها إلى الشيخ الكبير الذي لا يتوانى إن خرجت عن حدود مهنتها عن ذبحها وتعليق رأسها كي يغدو جمجمة فارغة. افعلي ما شئت إلّا أن تلوّثي روحنا وتسفحي شرفنا، سيكون لك زوج يحميك تختارينه بملء إرادتك وستهجرين حياة الغرابيل. قال لها الشيخ وهو يتأمّل صدرها الناهض ويرى ارتباكها أمامه. القرباط لا يرتبكون إلّا في تلك الخيمة المزدانة بالأسرار والمهابة. ينهض أبو الهايم كأنّه يستعدّ للخروج قبل أن يداهمهما الصبح، تحذّره نشمة من أنّهم مستعدّون لقتله إن علموا شيئًا، وذبحه في بيته من الوريد إلى الوريد، يخرج أبو الهايم ونشمة تستلقي على فراشها المُعَدّ في الزاوية، الصّبح كأنّه سيتقدّم عاصفًا، الملك المخلوع يقول له أنّه لم يعد يعزف كما كان، وأنغامه في السهرة كانت غير لائقة به، أبو الهايم لا يردّ إنّما يُلوّح بيده فيفهم الملك المخلوع ويقول له أنّ أم مسعود لا بدّ أنّها تسأل عنه، يوصيه إن زارها بأن يُسلّم عليها ويبوس رأسها ويقول لها أنّه استلم ما أرسلته، أبو الهايم كأنّه لا يسمع، برودة أيلول توقظ مسامّه، يصل إلى بيته ويُخرِج من حقيبته التنكية نايًا قديمًا ملفوفًا بمناديل حريرية بيضاء مُطَرّز عليها اسم صبحة، أختي فاطمة كانت قد طرّزته بمخرزها حين رأت أنّه لا يستطيع نسيان صبحة، والناي أهداه إيّاه راعٍ مرّ على بيته في ليلة شتائية قارسة ونام عنده، أخبره الراعي بأنّه صاحب وآلده الذي كان رجلًا طيّبًا وشهمًا وقويًّا وأنّه ما زال يذكر أخته ذكية حين كانت صبية، الرجل ترك له نايه ورحل مع أغنامه

في الصباح في اتّجاه الشرق واستحلفه أن يأتي لزيارته في رأس العين، قال الراعي أنّ عمر الناي أكثر من ثلاثين سنة وهو يهديه إيّاه إكرامًا لذكرى صاحبه القديم. العنّابية لم تسمع شيئًا إلّا أنّ نشمة تقلّبت في فراشها وعصرت نهديها، فكّت واقيات سروالها وبحثت عن طعم قبلاته على متانة النسيج الشفّاف وفي المسامّ، وأيقنت أنّها تحبّه، تغلّب عليها، وأنّها كبرت كأنّها لم تعد قرباطية، سمعت تلك العذوبة التي دهمتها، والملك المخلوع كأنّ الروح عادت إليه بعد أن فهم تمامًا ما يعني كلّ هذا، وأحسّ بالخطر يُحيط بكلّ هذا الهواء وبقنافذه وبتلك الخيام التي تراءت في ضوء الصبح علامات أبدية على الضياع في جغرافية تفرّ ولا تقف.

البرّية الشرقية تنهض دفعة واحدة. مع الضوء ينهض القرباط، يتركون دفء فرشهم، ويعركون عيونهم بأيديهم، عَوّاد فقط يغسل وجهه، ويرتشف قهوته، ويبدأ حديثًا مع الملك المخلوع. ينتشر القرباط، والعنّابية بيوت تفتح أبوابها للصبح فينهض العنّابيون، رائحة الشاي تتصاعد مع بخاره فتنتعش الصباحات وأجساد الرجال الذين يلفّون سجائرهم ويدخّنون قبل أن يصطحبوا بغالهم ومحاريثهم إلى الأراضي التي اقترب أوان زراعتها، أو يتوجّهون إلى آخر ما تبقّى من بيادرهم ومحاصيلهم لتصفية الحسابات، القشّ على البيادر، التبن وأكياس الشعير والجلبان والعدس الأحمر، كلّ شيء يجعل الصباح الندي طقسًا مبكّرًا، برودةٌ ونحنحةُ بغالٍ على دروب تتبادل التحيات بنشاط، أنا لا أستيقظ مبكرًا لكنّني أسمع صوت أبي في أرض الحوش وهو يصرخ على عائشة كي تنهض لتسقي البغلين وتُحضّر فطورَ جدّتها، فتنهض بتثاقلٍ ناعسةً، تلبس ثيابها، أخبرتني زليخة بأنّ عائشة أدمنت النوم عارية، أسمع وقع خطواتها على الدرج نازلة، وطرطشة الماء وهي تغسل وجهها وأمي تؤنّبها بعصبية لتأخّرها في النوم وتصفها بالبليدة، عائشة أصبحت أقلّ كلامًا، ما عادت صاخبة، ضاحكة وملتهبة. وضحة رغم كلّ محاولاتها لم تستطع إقناعها والبنات الأخريات بصحبتها، أتَت بكحل وكريمات وإشاربات ملوّنة وفي ما بعد بقمصان نوم شفّافة وطلبت أسعارًا زهيدة، قالت أنّها تُبادلهما بأيّ شيء، لكنّها لم تسمح لها بالصعود إلى الغرفة العلويّة ولم تسمح لها بفرد كيس بضائعها إلّا على عتبة الحوش، معلنة عدم رغبتها في شراء أيّ شيء منها، قالت أنّ جدّتي لم تعد تأكل كما كانت تفعل، ومنذ عشرة أيّام لم تفطر، تترك صحن البيض المقلي وكوب الحليب من دون أن تلمسهما وتأمرها بأن تُعيدهما غير مُصغيةٍ إلى رجائها أن تأكل لو لقمة واحدة، وتابعت أنّ جدّتي في الليلة الماضية لم تنم، فراشها ما زال ممدودًا كما كان وشراشفه لم تُمسّ، أمي استفسرت عن أحوالها وحاولت أن تفهم ما حصل، أمس رأيت حيرتها بعد أن استيقظتُ متأخّرًا كعادتي ونزلتُ إلى أرض الحوش، أمي قلقة، تريد أن تحكي، أن تفعل شيئًا، تدور في أرجاء الحوش، تفتح باب الإصطبل وترى أبي المنشغل بحافر البغل البنّي والمنهمك في ما بعد بثلاث سلاحف صغيرة وتحضير العلف لعشاء

البغلين، تتمتم بكلمات، ينظر إليها ويعود إلى غرباله وسلاحفه، وتلك الرائحة العذبة التي يحبّها حين يبدأ البغلان خفض رأسيهما نحو المعلف الحجري ملتهمَين التبن المهزوز والشعير ثمّ يعطسان بعد ذلك، كأنّ رائحة الحوش تُنذرني بشيء ما لا أستطيع تحديده، أمي تدور في الأرجاء كأنّها تبحث عن شيء ما، تأتي نسوة أعرف بعضهنّ والأخريات أنادي الواحدة منهنّ خالتي، تأتي عمّتاي ثمّ تدخلان غرفة جدّتي، تقبّلان يديها وتتحدّثان مع أمي على انفراد وترحلان، ما زال المصران يتدلّى والحجاب غطّاه الغبار تمامًا، أراه معلّقًا على قوس باب الحوش وأبي يدخل وينام من دون أن يأبه بأيّ شيء، أخرج من هذه الفناءات الغامضة، أختي زليخة لا تدري ما تفعل فتجلس على درج الغرفة العالي وتحدّق في الخدوش منتظرة عودة عائشة، أخرج من الباب المُعَدّ لخروج الأموات وتلكّؤ البغال على فوضى رصفه، أضيع في العنّابية. النهار في العنّابية مصيبة، سأم ووقت ممطوط، أرى القرباطيات وهن يُفاصلن في الأسعار وتعلو أصواتهنّ من دون داع، بعضهنّ يجلسن حولهنّ العنّابيات المستفسرات عن نشمة وأبي الهايم وعَوّاد والملك المخلوع وأسعار صحون البلاستيك والألمنيوم والكحل، مشعّبات الحديث عن أشياء غامضة لا أسمعها، وضحة لا تتلكّأ، تدور كملكة النحل وأرى مَخْطَتَها وصدرها الرخو، أتابع طريقي إلى خارج العنّابية، حيث كلّ شيء مُعَدّ لصرير الزيز في الظهيرات القائظة، ألمح بيت خالي المتطرّف في كلّ شيء، أشعر بمرح خفيّ وأنا أدخله وأرى خالي كأنّه ناهض للتوّ من نومه، يحلق ذقنه، وهو يطلب منّي أن أعدّ الشاي، وفي ما بعد يقول بمرح أنّه اشتاق لسلمان وأنّني كبرت، رأيت عينيه الحزينتين المنكسرتين ونظرة التحدّي التي تنبثق منهما، قال أنّه سيزوّجني إن أردت، ضحكت وقلت له أن يُزَوّجَ حاله أوّلًا، ارتشفنا الشاي ونحن نضحك، إحساس بالسعادة ينتابني وأُخبِره بأنّ أحمد الجمل سيرسم الله وسلمان يُكثِر مبيته في تركيا، يضحك ويقول أنّ المرأة التركية استبدّت به، وأضاف أنّه اشتاق لأختي فاطمة فهي تفهم عليه وسيزورها إن لم تأتِ بعد الزرع. في بيت خالي، صندوقان، أحدهما صغير لناياته ومزاميره، والآخر لملابسه الأنيقة، وصندوق صغير مقفل بقفل، ألمحه في قعر الصندوق الكبير لا أعرف ما في داخله وأرى حرصه عليه، لم أسأله أو أحاول التطاول كي أرى ما في داخله وهو يفتحه، ثمّ يعيد إقفاله ويرجعه إلى زاوية الصندوق الكبير، خالي ارتشف الشاي ثمّ حضر زوج خالتي فارتشف الشاي أيضًا وقال أنّ سلمان أتى في الليل متأخّرًا ومعه بضاعة كثيرة أخفاها في مكان بعيد من أعين الناس وأنّه ضرب زوجته في الليل وزوج خالتي استعاذ بالله وقال أنّ سلمان يسمع كلمة خالي فرجاه أن يُكلّمه في الليل ويقنعه بألّا يعد ضربها، يأتيه رجال لا يرى أحد في العنّابية أشكالهم، يمرّون بسيّارة ويتفاهمون مع سلمان بسرعة فيصحبهم إلى مكان البضاعة، يسلّمهم ويستلم النقود، أرى في عينيه نشوة انتصار ورجولة مبكرة،

سبقنا بها جميعًا، يأتي لخالي بأشياء سرّية يخفيها عن أعيننا، ويرجوه أن يذهب معه إلى إسطنبول، ويغريه بأنّه سيصطحبه إلى karakoy.

يتلمّظ سلمان وهو يصف أشكال نهود النساء وبطونهنّ وفروجهنّ المتروكة هكذا للهواء في karakoy، ويُفَصّل لخالي الأسعار، ثمّ يحدّثنا في ما بعد عن صاحبته التركية التي يقول أنّه سيتزوّجها ويصطحبها معه، يقول أنّ كلمة جانم التي تهمسها في أذنه قبل تلمّظها صيوان أذنه بلسانها تجعله يشتعل، يضحك سلمان ويقول الدوريات زادت حصصها والشغل ما عاد مُربِحًا كما كان وأنّه يفكّر بالذهاب أبعد من تركيا.

في العنّابية، لا يستوطن إلّا أسرار خيانة الزوجات، كلّ شيء مفضوح، متروك هكذا للعراء، للقيظ، ومفتوح على أكثر من احتمال، لا يستطيع أحد فهم التسلسل المنطقي لأيّ حدث ولا يستطيع أحد لملمة أجزاء حكاية واحدة، كلّ شيء مُتَداخِل، القرابات والأحاسيس والمواقف، عَرَض عليّ خالي الذهاب معه لزيارة عَوّاد، قلت له يجب أن أعود إلى الحوش وأخبرته بأنّ جدّتي لم تنم ولم تفطر، أحسّ بانقباض، قال أنّه سيأتي لزيارتنا عصرًا، تركني ومضى. برودة خفيفة وقيظ لم ينسحب بعد، كنت أرى من بعيد خيام القرباط وأحنّ إلى أسنان الذهب التي يعلّقونها بمهارة في أفواه العنّابيين الذين يتباهون بها، ويجرّبون لمعانها تحت أشعّة الشمس، تدخل الكمّاشات إلى الأفواه بينما نحن نعلّق أنظارنا باللون الأصفر الذي يبدأ اللمعان وإعادة تشكيل مشهد الأسنان والفمّ، أريد الرحيل عن هذه الأنفاس، تاركًا ورائي كلّ شيء، أوغل أكثر في تدوين الحكاية التي لا تُدَوّن، تفرّ الكلمات من بين يدي كأنّي سئمت كلّ شيء، وما عاد العمر جديرًا بتضييعه هكذا، وأتذكّر أنّ أحمد الجمل سيرسم وجه الله، وجدّتي التي تكتب الرسائل بلغة لا أعرفها وتضعها في زجاجات فارغة لتبعث بها إلى البحر، تُوغِلُ أكثرَ في العمر ولا تُغلق باب بيتها، كأنّني أريد الفرار منها، من أبي الذي لا أعرف لماذا لم يعد رجلًا ناجحًا في تجارته وفي تمزيق سراويل أمي، وأثوابها الداخلية والتربّع في صدر الغرفة بين الضيوف كسيّد حقيقي، كأنّ الذكرى ترعبني حين كانت عفرين تبدو لي خلاصًا أوّل مرّة وطأتها، فرحت بألوانها، بنهرها وضفّتيه، بمنظر رجال الشرطة وهم يتجوّلون والناس تتحاشاهم وفي ما بعد حين أنهضني معلّم الرياضة وسألني: لماذا أنت غير حزبي؟! صمتّ، خرست لا أعرف ما أقول، لم أتكلّم، قال لي هل أنت أخرس؟ لم أتكلم وعلمت في ما بعد أنّ المعلّم حزبي، وأنّه يرفع صوته في وجه المدير وهو من الحزب نفسه، ويدلّل أبناء مدير المنطقة الذي جمع أهالي عفرين وقال لهم أنّهم كلاب وسيؤدّبهم وسيرمي بهم في السجون ليموتوا كالحشرات إذا عصوا الحكومة ولم يحتفلوا باحتفالاتها، أهالي عفرين تبادلوا النظرات، همهموا قليلًا وتفرّقوا وتحدّثوا بلغتهم الكردية عبارات مقتضبة ولم يأتوا في اليوم التالي إلى ساحة السراي مكان الاحتفال، المعلّم قال لنا أنّه إذا لم يسمع

المسؤولين في حلب صراخنا فإنّه سيحاسبنا، وكنّا نحن لا نعرف، سبب كلّ هذا الضجيج، خرجنا في طوابير وانحدرنا من باب الثانوية في اتّجاه ساحة البازار الفارغة ثمّ في اتّجاه ساحة السراي، وقفنا في صفوفنا، كما قال لنا المعلّم وكانت الصفوف الأخرى قربنا تتململ، وتحاول استراق النظر إلى طوابير بنات الثانوية والمعلّمات الغريبات، اللواتي لا يروين ذكورتنا المتفتّحة مبكرًا، خرج مدير المنطقة إلى شرفة السراي ورأينا نجومه اللامعة وبزّته الأنيقة ومعه رجال قيلَ لنا أنّهم مسؤولون أتوا من العاصمة، قال المعلّم ارفعوا اللافتات فرفعناها، اهتفوا فلم نعرف بماذا، قال متوعّدًا سنرى غدًا في المدرسة وقال أنّنا أبناء قحبة، ثمّ خرج طالب من بيننا وهتف لمجد الحكومة فهتفنا وراءه، بصوت خجول أوّلًا ثمّ تعالى زعيقنا، سررنا بهذا السباق مستمتعين بأصوات فتيات الثانوية، مدير المنطقة تكلّم وصفّقنا ثمّ هتفنا.

تكلّم رجل بَدين قيل أنّه مسؤول من العاصمة فصفّقنا وهتفنا، ثمّ ألقى قصيدة قيل عنها عصماء فصفّقنا وهتفنا ثمّ هتفنا، وهتفنا، واستغربنا ألّا يخرج المعلّم إلى المنصّة كي يختتم الحفل بكلمة طويلة، وعرفنا أنّه حزبي فحسب واستغربنا سبب تهديدنا واستعراض عضلاته أمامنا ونحن محشورون في المقاعد كالأرانب، خائفين، مذعورين، غير قادرين على تحريك أصابعنا، في اليوم التالي استدعانا المعلّم إلى غرفة الرياضة، كنّا أكثر ممّا نظنّ، وقال: تكلّموا. قلنا: عَمَ؟! قال، إذًا أصواتكم ليست مبحوحة وانهال على أصابعنا بالعصا، وقال عدّوا، عددنا وبكينا، ضربنا وبكينا، ووسم أخواتنا بالقحبات وقال أنا أعرفكم، أكراد شيوعيون. لم نفهم ما يعني بأكراد وشيوعيين، وقلت له أنّني لست كرديًّا ولست شيوعيًّا وأنا من الطلّاب الشاطرين بشهادة أساتذتي فصرخ بي اخرس، فخرست واتّهمنا جميعًا بمعاداة الدولة، وقال أنّه سيكسرنا ويرمينا خارج المدرسة، ومع أنّنا هتفنا، هتفنا حتى بحّت أصواتنا، والمعلّم يستعرضنا أمامه ويتكلّم كقائد محكمة عسكرية مُكَلف إعدام فصيل خائن، كنّا ننظر إلى بعضنا بعضًا ولا نعرف ما نقول، وقال إن لم نُظهر ولاءنا للحكومة فنحن خونة، المعلّم كان يُحاسب الآذن والأساتذةَ الآخرين والطلّابَ واللهَ وآباءنا وأمّهاتِنا، والأنهارَ والبحارَ والجبالَ وأشجارَ الزيتون التي تُزَنّرُ عفرين كإسوارة ذهبية، كنت أفرح حين أرى صفوفها المنتظمة وأشمّ أريج زهرها أوائل الربيع، عدت إلى العنّابية وأخبرت خالي وطلبت منه أن يذهب معي ليكسر فكّ المعلّم ويُفهمه أنّه وَغدٌ، طمأنني وسكت ولم يحضر كما كنت أظنّ، وكما قلت لرفاقي في الصفّ الذين انتظروا رؤية فكّ الأستاذ مكسورًا كي يهتفوا من أعماقهم، وكنت أتخيّل خالي بطلًا نهتف له، وعمّي هلال الذي قالت جدّتي أنّه بطل من أبطال الاستقلال سيفرح في قبره، حين أصبح أنا بطلًا أيضًا واستولت عليّ صورة فكّ الأستاذ المخلوع. أبناء مدير المنطقة الأنيقون أخذوا جوائز وضحكنا نحن، لم نعرف أنّهم يوزّعون جوائز على الكسالى، كذلك ابن رئيس المفرزة كما نسمّي ذلك المبنى الأصفر الكالح المحمي ببرّاكات خشبية

وبنادق ورجال شرسين. في الاحتفال السنوي لتوزيع الجلاءات، قال المعلّم أن نقسّم الدرجة الأولى على أبناء مدير المنطقة، أنا بكيت في الصفوف ورفضت الصعود لاستلام جائزة الدرجة الثالثة فأتى المدير وأشار نحوي كي أقترب، فاقتربت سلّمني جلائي وبطاقة تحسين ولم يسمع حين قلت له أنّني أبارز هؤلاء الأغبياء أمام كلّ المدرسة في الجغرافيا والتاريخ والقراءة والجبر والهندسة وحتى في الجري، المعلّم أشار لي كي أبتعد إلى الصفوف الخلفية وقال أنّ العام الدراسي انتهى وكلّ عام ونحن بخير. عدنا من عفرين إلى العنّابية، رجعت على قدميّ مع أولاد العنّابية، رأينا وجوهنا في صفحة النهر من فوق الجسر وقذفنا الماء بالحصى، شتمنا المعلّم وحين اقتربنا من العنّابية انتابني البكاء وتذكّرت أنّني لست الأوّل في صفّي، كأنّ ملح دموعي ما زال تحت لساني إلى الآن كأنّ الذاكرة لا تريد أن تُسعفني وتُريحني قليلًا، وعند أعتاب جدّتي أم مسعود بكيت بينما ضحكت ثمّ قبّلتني، عائشة وفاطمة وزليخة اجتمعن حولي وقلن أنّني سأصبح دكتورًا وقلت لهنّ أنّني سأترك المدرسة وآخذ سلمان معي لنكسر فكّ معلّم الرياضة.

طعم الحموضة لا يفارقني، ما زال تحت أسناني، ولساني كأنّه أُصيب بالعفن، خالي من بعيد يسابق أكثر من ظلّ له، ويدخل مدينة القرباط غير المرئية، عواميد الخيام ترمي ظلالها على الأرض، وتغلّفه الأبخرة المتصاعدة من طناجر ضخمة، رائحة البرغل واختلاط الأقدام المهيّأة دومًا للرحيل، لماذا يغيب خالي في النشوة وهو يوغل أكثر في اللامرئي؟... الصدور المفتوحة، النهود المتدلّية وحرّية العبث بالزمان والمكان، يغيب في نشوة الحرّية عبر ثياب الموسلين والغرابيل والحمير، الملك المخلوع يرحّب به ويدعوه إلى الأرائك ويمارس الكسل ورغباته المفضوحة، يُخرج فضيحته ويرميها على مفترق الطريق، يحملها طفل قرباطي ويرمي بها في إحدى الطناجر فتتبخّر، ويحسّ خالي بنفسه، خفيفًا، سعيدًا، مرحًا، تأتيه نشمة بثيابها النظيفة وتقول له خذني، فيأخذها على مرأى من الفضيحة التي غطّتهما ثمّ تبخّرت وهطلت في أرض أخرى، يا للروعة، خالي يدخل في اللامرئي، يعبث بمفاتيح الثبات وينطلق أكثر بهاءً! أراقب المشهد من بعيد وأصرخ حين تتحرّك القافلة: خذوني معكم زنّروني بالموسلين والغرابيل وبهجة الفضيحة. العنّابية أمامي فضاء مفتوح على ثرثرة مكرورة تنتظر المطر وأخبار جدّتي وتبحث عن كلمات الحكاية، حين دخلت أرض الحوش سمعت أصوات ضحكات تنبعث من غرفة أبي، لم أعرف صاحبها ولم آبه كثيرًا، قالت أمي: اصعد وسلّم على ابن عمّك. سألتها: ابن عمّي مَن؟!، أجابت: الأستاذ أحمد هلال، أمي في أرض الحوش متوجّسة كأنّها تبحث عن شيء مفقود، أمسكت بديكين وصاحت عليّ كي أذبحهما، قلت لها أنا لا أستطع رؤية الدم، وتابعتُ طريقي إلى غرفة أبي، كان أهل البيت متحلّقين حول الأستاذ أحمد هلال الذي عرفته من نظافة ثيابه وذقنه الحليقة، اقتربتُ من الجالسين وسلّمتُ عليه، نهض حين قالت عائشة

أنّني أخوها وابن عمّه، قبّلني ورَحّب بي ثمّ أفسح لي مكانًا قربه كي أجلس، كان أبي إلى يمينه وجلست بينه وبين رجلٍ لا أعرفه قال أحمد هلال أنّه سكرتيره الخاصّ، ومرّة أخرى قال أنّه سائقه، ومرّة ثالثة أنّه صديقه حين أتى العنّابيون للسلام عليه مساء امتلأت غرفة أبي بالزوّار، عائشة وزليخة كانتا هناك، عائشة تُحَدّث أحمد هلال عن أخبار العنّابية التي لا يعرفها أو التي لم يسمع أيّ شيء عنها منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة فهو لم يأت خلالها إلى العنّابية، وزليخة أطرقت رأسها خجلًا حين مازحها وغمزها أنّه سيزوّجها، أبي لم يأبه كثيرًا بهذا الضجيج أو بحركات أمي المرتبكة، المرحّبة، الودود كأنّه لم يسمع كلماتها التي تتذكّر بها هلال أبو أحمد الذي رأته حين كانت صغيرة، تصف جهامته وبريق عينيه وضحكه العالي الرنين الذي يُفرقع في أرض الحوش حين يعود من سفره، ثمّ تتذكّر أم أحمد وتترحّم على الاثنين، أبي بقي صامتًا وتمتم أنّ البغل ما زال مريضًا وجرحه ينزّ قيحًا أصفر، والعملية التي أجراها له لم تُنْهِ آلامه وتُعيده مرّة أخرى إلى قوّته حين كان يخبّ في الدروب ويجرّ المحراث لوحده، ثمّ أضاف أنّه سيضع على جرحه صفية تنّور وسيعيد تنظيف جرحه وإلّا فإنه سيصطحبه إلى البازار يوم الأربعاء ليعرضه على طبيب بيطري، فهم أحمد هلال أنّ عمّه لا يستمع إلى حديثه ولا يأبه كثيرًا بهذه الزيارة وإن كان لا يتكلّم ينظر فحسب إلى نهدي عائشة التي أدركت ذلك فأمعنت في الدلال ورفع يديها كي يستوي النهدان مشدودين والحلمتان تكادان تصرخان، ثمّ تهزّ مؤخّرتها حين تنهض كي تجلب شيئًا وتتابع الحديث مع ابن عمٍّ لا تعرفه، تسمع باسمه مقرونًا بأخبار متناقضة يجمع بينها أنّه غدا رجلًا مهمًّا في العاصمة، وهو متورّط بجملة من الفضائح التي لا تنتهي، قال لعائشة أنّه أحضر ثلاث حقائب، واحدة لعائلتنا وواحدة لجدّتي التي قالت لأمي أنّها أغلقت بابها ولا تستطيع إزعاجها الآن كي يذهب ويقبّل رأسها ثمّ يديها ويطلب رضاها كما أبدى رغبته منذ اللحظة الأولى لوصوله، والحقيبة الثالثة لعمّتي والمقرّبين من العنّابيين وطلب من عائشة الاهتمام بأمر توزيعها، عائشة حملت الحقيبة المهداة لنا وصعدت بها إلى غرفتها ثمّ لحقت بها زليخة. وابن عمّي يمدّد رجليه ويضحك من دون أيّ سبب، ثمّ يتكلّم مع أبي ويقول له أنّه كبر وأنّه يرى دومًا أبناء عمّي في العاصمة، لكنّ أبي لا يأبه فيحدّثه عن السلاحف وموسم الجلبان ثمّ يعود إلى سيرة البغل الذي ينزّ قيحًا، أحمد هلال قال أنّني أشبه جدّتي وأنّه سعيد بأن يراني رجلًا، سألته عن أعماله التي قال أنّها متنوّعة من التجارة والسمسرة إلى الاستثمار ولم يُفْصِح عن التفاصيل التي قال أنّني سأعرفها حين أزوره في العاصمة، وأنّه يعتمد عليّ كثيرًا في ما سَيُقْدِمُ عليه ولم أفهم على ما سيقدم. لاحظت ثيابه النظيفة وتشمّمت رائحة عطره التي أذهلت أختي عائشة وأسرتها وقالت في ما بعد أنّها ما زالت تعبق في الغرفة ولا تغادر أنفها مبالغة في وصف جمال مُرافِقه وتهذيبه الذي يصل إلى حدّ الأنوثة ومهارته في قيادة السيّارة حين ذهبنا جميعًا في مشوار إلى الجبل القريب عبر

الدروب الترابية وأنا أجلس قرب الشبّاك في المقعد الخلفي فرحًا بملمس المخمل النظيف والجوّ الغريب للسيّارة السوداء التي لم أسمع هدير محرّكها يئزّ في أذني كسيّارة العنّابية حين أنحشر في مقاعدها ذاهبًا إلى عفرين صباح السبت أيّام كان معلّم الرياضة يقول أنّني لا أحبّ الحكومة، ويُهَدّدُ بإبادة ذريّتي إذا لم أهتف في الاحتفالات المقبلة، قربي جلست زليخة ثمّ عائشة التي كانت تطفح من وجهها إشراقة وهي تختلس النظر إلى المرآة فتلتقي عيناها بعيني السائق الضاحكتين. قال أحمد هلال أنّه سيذهب لتقبيل يد جدّتي حين يحين موعد الغداء، ذهبت معه كي أبلّغها خبر مجيئه، كنت فرحًا بهذا الابن عمّ الذي عاد وأيقنت أنّه يستطيع كسر فكّ معلّم الرياضة ودوسه بحذائه الأسود اللامع الذي قدّرت أنّني أستطيع أن أتمرأى به إن أردت، عائشة استرخت أكثر وتمادت في الحديث مع المُرافِق الذي أخبرها بأنّ المدينة كبيرة والحياة معقّدة والناس لا يعرف بعضهم بعضًا، فأكّدت أنّها تريد زيارة المدينة والزوّاج فيها كما فعلت فاطمة التي تخبرها عن بيروت أعاجيب تجعل عائشة امرأة صغيرة حالمة بالأسَرّة الواسعة والأضواء الخافتة آخر الليل ورائحة العطور المصفوفة بعناية إلى جانب علب الكريم في واجهات المحالّ وأشكال الألبسة الداخلية الشفّافة التي أُغرِمَت بها إلى درجة الافتتان حين رأت فاطمة ترتديها وتتبختر بها بعد عودتها من حلب يوم ذهبت لتجهيز أغراض عرسها، عائشة كانت تغصّ في الكلام ولا ترفع نظرها عن فتحة صدر المُرافِق وترى صدره الناعم ثمّ تنحدر إلى بطنه ثمّ إلى ما تحت بطنه فترى شكلًا لعضو نائم أو مستيقظ بخجل فترسم أبعاده وتفتح كفّها كأنّها ستقترب من ملامسته، بينما ابن عمّي يتأبّط ذراعي ونحن نعبر أرض الحوش إلى غرفة جدّتي التي رأيتها مغلقة، قرعت الباب وانتظرت الصوت الذي تأخّر، دفعتُ الباب الذي سمعت صريره ودخلتُ العتبة، كانت جالسة، مُتربّعة، مُطرقة رأسها نحو الأرض، رفعته قليلًا حين دخل أحمد هلال، خلع حذاءه وانهال على يدي جدّتي ورأسها تقبيلًا ورأيت دموعه كأنّها ستفرّ وكان صوته مخنوقًا وهو يقول أنّه مشتاق لمباركتها، جدّتي نظرت إليّ ولم أفهم ما تعني بنظرتها تلك التي لم أرها من قبل، ارتبكتُ، أنقذتني حين طلبت أن أناولها المسبحة من على الحائط، المسبحة الطويلة التي تفوح برائحة عطر قريب من رائحة الجوز لا تستعملها إلّا قليلًا، في الأيّام التي أرى القلق يستبدّ بها فلا تستطيع النوم أو حين تعود من زيارة المزار غاضبة، أحمد هلال ثرثر الكثير من الأشياء بعد أن هدأ اختناق صوته وعاد ثابتًا متهدّجًا كأنّه يُطالب بحقوقه المهدورة، قال أنّه يعرف أنّها غاضبة عليه، لكنّه يطمع في كرمها وسعة صدرها، وأنّه طوال اثنتي عشرة سنة هي تاريخ غيابه عن آخر زيارةٍ للعنّابية يتذكّرها كلّ يوم صباحًا ويدعو الله أن يحفظها وأنّه تبرّع أكثر من مرّة للجوامع والجمعيات وأحرق لها النذور في التكايا وفي مزارات الأولياء، ونَذَرَ لها حجّة إن وفّقه اللهِ في مشروعه المقبل، أحمد هلال يتكلّم وأنا غائب عن التقاط الأصوات كأنّي أُصِبتُ بالطَرَش، نظرة

جدّتي كأنّها تطالبني بالبقاء إلّا أنّني كنت أرى شفتيه تتحرّكان كأنّها تتوَسّل أو تشرح أمرًا غامضًا بينما شفتاها تتحرّكان ببطء وتقولان كلمات قليلة ولكن غاضبة، لم أرَ جدّتي غاضبة هكذا. بعيدًا من عالم الأصوات مُتَلَبّسًا خيبة جدّتي التي بدت كبيرة وهي ترفع يدها مشيرة بِسَبّابتها لأحمد الذي يبحث عن الكلمات، يفتّش عن الأعذار. حين خرجنا كان وجهه أزرق وباب غرفة جدّتي مفتوحًا تصل أصداء المُحْتَفِين به في المساء إلى غرفتها، وأنا حائر بهذا المشهد، ابن عمّي خارج كأنّه مطرود، في المساء قال أمام العنّابيين أنّ جدّتي راضية عنه وهذه غايته.

ما زال الصَمَم الذي أصابني يُحيّرني، وأنا أبحث عن رغبة جدّتي في أن أغدو شاهدًا أصمَّ يرى حركات الشفتين ويُخَمّنَ تراتب الأحداث ويقترب من انفلات المشهد الذي كان أحمد الجمل يُلَوّنه، قال لي ابن عمّي عبارة عن كلب وقملة بكلّابات كبيرة وأنّ جدّتي لن تُسامحه. العنّابيون الذين تثاءبوا كثيرًا وقالوا الجفاف كلّ سنة يزداد والأرض لم تعد تَغِلّ وتذكّروا عمّي هلال كثيرًا، ترحّموا عليه وأبدوا استعدادهم لأن يُصَوّتوا لأحمد هلال إن كان مُرَشّحًا في انتخابات البرلمان وأنّهم سيحثّون القرى الأخرى على التصويت له وهم سيفتخرون به إن نجح وأصبح رجلًا قويًّا في العاصمة وأنّ جدّتي لا بدّ أن تكون فخورًا بطموحه الذي لا يحدّ ورغبته في الوصول إلى أعلى المراتب، أمي تثاءبت ونعست بينما كان شخير أبي يتعالى ورجلاه المشقّقتان تبرزان من تحت اللحاف دومًا، مُذَكّرًا الجميع بانتهاءِ السهرة، وإعادة تقبيل أحمد هلال والسلام على مُرافِقِهِ الذي ما زال يُراقب عائشة، وهي تدور في أرجاء الغرفة باحثةً عن أيّ شيءٍ، قالت أمي أنّ جدّتي لم تأكل من الطعام الذي جهّزته لابن عمّي، وأنّها رفضت الصعود للسهر مع الجميع، أمي اندهشَت وتوجّست شرًّا من أن يكون كلّ الكلام الذي قيل عن ابن عمّي صادقًا بأنّه رجلٌ مشبوهٌ وغير أخلاقي، وأنّه لم يحفظ وصايا عنّاب ولا روح أمه الطاهرة وشهامة عمّي هلال وتفانيه في سبيل الاستقلال، وقالت أنّ الغرفة مُعَدّة للنوم الذي أبدى ابن عمّي رغبة كبيرة فيه لغسل التعب كما قال، شاكرًا أمي على هذا الاستقبال الحارّ الذي أشعرهُ بأنّه مرّة أخرى بين أهله، وأخواته وإخوته، وسلالته التي ما زال يفتخر بها أينما ذهب، وسمعتُ صوته وهو يتمتم كلمات لم تصل إلى مسمعي مع مُرافِقه بعد أن أغلقا الباب وراءهما، ثمّ سمعتُ صوت سعاله ورأيتُ الضوء ينطفئ، ويعمّ السكون، عائشة آخر المنسحبات إلى فراشها، أراها ذابلة آخر الليل كأنّها مخذولة وعصبية قليلًا وهي تغلق باب الغرفة وراءها، جلست في فراشها والعتمة تلفّها، ثمّ عرّت نهديها ورمت بكاملِ ثيابها، تقلّبت في فراشها طويلًا قبل النوم، وفي ما بعد، في الصباح الثاني نهضت حين علمت أنّ ابن عمّي خرج مع أمي لزيارة المقبرة وقراءة الفاتحة للأموات وزيارة عمّتي، لبست ثيابها وأبقت جزءها السفلي عاريًا إلّا من ألبسة شفّافة وحملت صينية الفطور إلى المُرافِق الذي ما إن دخلت عائشة وتركت الباب وراءها مفتوحًا حتى

اعتدل وجلس في الفراش والتمعت عيناه وهو يراها صامتة تتقدّم وتجلس على طرف الفراش قرب الصينية، كانت تضحك مُدَارِيَةً خوفًا أو خجلًا من أن ترى رجلًا غريبًا في فراش مَرمِيٍ هكذا أمام أنوثتها، المُرافِق مدّ يده إلى نهدها، كأنّها ذابت أو ماتت من فرط اللذّة، همس لها أنّه خائف وأنّه سمع أنّ العنّابيين يذبحونه ويذبحونها إن رأوه يُعَرّي نهدها ويَمُصّه لكنّ عائشة طمأنته بألّا يخاف وأن يكون حذرًا، يده أخرجت النهد الثاني وأطلقته في الفضاء الأبيض. عينها على الباب وعينها الأخرى على يده وهي تعوي بلذّة في مسامّها التي سالت وانفتحت فجأة على مدى فسيح من الحقول الخضراء، فوجئ وهو يراها كأنّها ذابت بين يديه ثمّ وهو يسمع صوتها المنخفض صارخًا: أبوس رجلك المسه، شمّرت عن ساقين سمراوين، قويتين، ملفوفتين بعناية أدرك المُرافِق حرمانهما وانفتحت أمام ناظريه جنّة ملفوفة بنسيج شفّاف ومثير، المُرافِق تناسى المكان حوله، امتدّت يده على الفخذ الأسمر وارتفعت إلى أن وصلت إلى فرجها الذي تندى بالسوائل، وعائشة كأنّها ذابت وانتبهت فجأة إلى المكان، فرأت النوافذ العالية والسقف فهرعت مُسرعة فلتانة من الذكورة المضطجعة على فراش، تركت المُرافِق حائرًا من سرعة نهوضها كأنّها تريد الهرب، هبطت الدرجات القليلة مرتبكة، زليخة كأنّها فهمت كلّ شيء حين رأت خدّي عائشة المتورّدين ثمّ وهي تمعن النظر في نهديها الرخوين وحيرتها التي ظلّت تتجوّل في أرض الحوش حتى نزل المُرافِق مطأطئ الرأس قليلًا وبحياء واضحٍ سأل عن ابن عمّي، قالت له زليخة أنّه سيعود وإن كان يرغب في فنجان من القهوة فتستطيع أن تعدّه بيديها، المُرافِق غمغم وعائشة حائرة في أرض الحوش، نظرت إلى زليخة التي صعدت إلى الغرفة لتُعِدّ فنجان القهوة ثمّ إلى المُرافِق وضحكت عيناها غامزة المُرافِق الذي ابتسم بدوره. حين اقترب منها، قال لها: أنت لذيذة ثمّ قرص نهدها، ففرّت مبتعدةً إلى غرفة جدّتي تاركة المُرافِق جالسًا على الدرج منتظرًا القهوة.

في أرض الحوش الواسعة، كان السأم يجول، أصوات البغلسن تنبعث من الإصطبل المغلق على أبي الذي قرّرَ إعَادة تضميد قروح البغل بقماش أبيض ناصع أحضره خصّيصًا من بازار عفرين مع زجاجتي كحول ودواء أحمر وبعض المراهم التي قال أنّ طبيبًا بيطريًّا نصحه باستعمالها، أبي مع البغلين والسلاحف الصغيرة التي اعتادت رائحة التبن والقصرين والرؤية في الظلام، أَلِفَت يد أبي وهي تطبطب على دروعها فما عادت تُخبّئ رؤوسها حين تتشمّم رائحة يديه تقذف بالحشائش الخضراء المنتقاة خصّيصًا مع أوراق الخسّ وجذور النباتات الغضّة.

السأم يجول، يُعَرّشُ على النوافذ والأبواب، على البوّابة التي ما زال المصران المنسيّ يتدلّى منها مع الحجاب الصغير الغارق تحت الغبار، أمي نسيت الموضوع وما عادت لتعليق المصارين وكتابة الحِجَابات، واستعاذت بالله داعيةً الرُسُلَ ورجال الكرامات أن يساعدوها في إعادة أبي رجلًا تفوح

من إبطيه الرجولة ويترك دروع سلاحفه، يقذفها إلى المزابل ويعود إلى تجارته التي كانت رابحة، واعتادت ترتيب شؤوننا بعيدًا من استشارته. أصبحتُ رجل البيت الذي كنت أرى من نوافذه الفضاء البعيد وأتشمّم في أحاديثه رائحة الحنان الذي رافقني طوال حياتي. الضجّة سبقت عودة أمي وابن عمّي من زيارتهما وقالت أمي أنّهما زارا خالي أبا الهايم الذي رحّبَ ومازح أمي وقال أنّه سيتزوّج قريبًا، وأن نشمة مزحة ثقيلة وستنتهي، وقال ابن عمّي أنّ خالي متورّط في أمرٍ لا يليق به وأنّه سيساعده ولن يترك القرباط يلعبون به، ابن عمّي تهامس مع مُرافِقه ثمّ سمعته يتنحنح وهو يدخل غرفة جدّتي، لم يطل الأمر كثيرًا كي نعرف أنّها غاضبة عليه ولن تغفر له، لم أعرف ما يريد من غفرانها، أيّ ذنب اقترف، وهو الرجل الأنيق، اللَبِقَ، الغني والقادر على جعل العنّابية مركزًا وجنّة! كما قال في السهرة الماضية حين اجتمع العنّابيون في غرفتنا وكان أبي يهزّ رأسه مُوَافِقًا وكنت أرى جدّتي طوال الأيّام الثلاثة التي أمضاها في العنّابية مُشمئزّة منه غاضِبة عليه، وهو يتوسّل إليها أن تنسى، وكلّما كنت حاضرًا كان يُصيبني الصَمَم فلا أسمع شيئًا، أرى فحسب الشفاه تتحرّك وتتفاهم، جدّتي بيدها المتعرّقة تُهشّ الذباب وتشير له ألّا يعود إلى العنّابية مرّة أخرى، أرى ارتباكه وهو يودّع العنّابيين الذين توافدوا لتوديعه، رأيته يضحك وهو يقبّل الرجال ويُمازِحهم ويعدهم بأنّه سيعود قريبًا وسيزور مسقط رأسه دائمًا، ثمّ رأيتُ المُرافِق يبتسم لعائشة وهو يأخذ سلّةً مُغَطّاة أمرت أمي بوضعها في صندوق السيّارة وقالت أنّها هديّة بسيطة، ردّدَ ابن عمّي كلمات كثيرة ثمّ رأيت الغبار يتصاعد خلف سيّارته السوداء التي غابت مسرعةً، متخطّية البيوت وخيام القرباط في البرّية الشرقية، مبتعدةً من الروائح التي كنت أراه كأنّه يشمئزّ منها ويُقاوم لئلّا يظهر اشمئزازه، أختي عائشة عادت إلى الحوش عصبية قليلًا، وقالت لي زليخة في ما بعد أنّها في الليل لم تستطع النوم إلّا متأخّرة وعارية، وقد اعترفت لها بأنّ المُرافِق قَبّل فمها أكثر من مرّة وقرص نهدها ثمّ داعبه، وأنّه تحسّس بأصابعه فرجها الذي كان قد تندّى بمجرّد ملامسته فتأوّهت، وتابعت زليخة أنّ نشمة حين كانت تصعد إلى غرفتنا مع البنات العنّابيات كُنّ يُغلِقنَ الباب ونشمة تُخرِج من صُرّتِها الصغيرة أنواعًا غريبة من الكريمات والروائح العطرة، وتُخرِج أيضًا دفاتر ملوّنة ومليئة بصور لرجال عراة تتدلّى أعضاؤهم ونساء يُمسكن بتلك الأعضاء ويلعبن بها، كانت نشمة تجلس في صدر الغرفة وتتأكّد أنّ الغرفة آمنة والبنات كنّ ينتظرن رؤية كلّ هذه العوالم ويتساءلن من أين تأتيهم بكلّ هذه التصاوير الممتعة وعمّا إذا كانت تعرف مثل هؤلاء الرجال الجميلين أو تتقن قراءة الكلمات الأجنبية المكتوبة على الغلاف وتحت كلّ صورة، تَفرد صُرّتها الصغيرة وتبدأ عرض أنواع الكريمات وتقول أنّ دهن الجسم بها يُثير في الجلد لذّة المضاجعة، وأضافت زليخة أنّ العنّابيات كنّ يتعرّين واحدة، واحدة، وتبدأ نشمة دهن أجسادهنّ. العنّابيات يتعرّين ويلبسن ثيابهنّ بسرعة محتفظات بتلك اللذّة

الخفيفة، خائفات من مداهمة أحد الغرفة، إلّا عائشة التي كانت تتفنّن وهي تسفح الكريم الزهري على جسمها وتدهن به كلّ مسامّ جسدها وتتأوّه قليلًا مثيرةً شبقَ الصبايا الفاجر والمكبوت وضحكهنّ. كانت تحتفظ بعلب الكريم في صُرّتها مع ألبستها الداخلية المصانة، والتي أحضرتها فاطمة معها من بيروت، ونشمة تلملم صُرّتها ونقودها مقابل الكريم وترحل بعد جلسة طويلة، تعرض كلّ هذه البضائع الغريبة رافضةً تركَ الدفتر الملوّن عند عائشة، أو إعارته لبقية الصبايا ولو ليلة واحدة، رغم أنّ كلّ واحدة كانت تدفع ربع ليرة ثمن الفرجة على الدفتر وليرتين ثمن كلّ علبة من الكريم وربع ليرة من كلّ واحدة عن كلّ أغنية بذيئة تغنّيها نشمة بصوت منخفض وتتحلّق الرؤوس حولها لتستمع إلى تفنّنها في وصف الرجال وأعضائهم ولحظات الصعود إلى السرير والدخول في أعضاء النساء والخروج منها، ما يُنبش في الغرفة يُدفن فيها فلا تعود أيّ واحدة للحديث مرّة أخرى به، منتظرات نشمة التي ما عادت تدخل غرفتنا كي تلحق بها الصبايا. وضحة لم تستطع احتلال مكانها فبقي المكان شاغرًا يبعث السأم في نفوس الصبايا منتظرات الزواج وصوت الطبل المُعلن انتهاء زمن الكريمات وبداية بهجة البرلون المثير بشفافيته. القرباط لم يعودوا مُهمّين بالنسبة إلى الصبايا ما دامت نشمة قد اعتزلت حَملَ السطل والدوران في الأزقّة، الذكور تناسوها واستعاضوا عنها بوضحة التي بدت مُمِلّةً لهم بعد فترة قصيرة بجسدها الرخو واضطجاعها على المزابل وفي الخرائب ناظرة إلى ساعتها ومُعلنةً انتهاءَ الوقت، كما بدأت العلاقات تفتر بين العنّابيين ومخيّم القرباط بعد عرس الغزّاوية الذي أثارت أخباره العنّابيين، حيث فكّروا في أن يحطّموا هذه الخيام على رؤوس القرباط ويُعلنوا بداية القطيعة مُتحسّرين على زمن القرباط البهيج، حين كانت كلّ الأشياء مختلفة لها لون ورائحة لذيذة تزكم أنوفهم فيقبلون أن ينتهي سأمهم وضجرهم ويتلوّن صيفهم وبداية خريفهم بهذه الخيام وسِيَر البشر البعيدين منصتين إلى الحكايات الغريبة ومحدّقين بالغرابيل والموسلين وأسنان الذهب المشغولة بعناية، القرباط الذين أحسّوا بهذا الفتور بعد عرس الغزّاوية بدأوا يُحَدّقون في خيمة نشمة المنتصبة كجزيرة خضراء وسط محيط من العنّابيين والأبواب المغلقة في وجوههم وتصنيفهم قومًا غير مرغوب فيهم في هذه الديار، والملك المخلوع الذي أحسّ بالشرخ والفتور تشاور مع عَوّاد وبقي صامتًا لا يتكلّم مع أحد وفقد طبعه المرح وبدا أنّه ينتظر شيئًا ما، لم يعد يزوره أحدٌ من العنّابيين الذين بدا رجالهم مُتململين، ومبتعدين رويدًا رويدًا من أبواب خيمة نشمة ومن سحرها وغموضها وغير منشدّين إلى أسلاكها الممغنطة، وانهالت الأسئلة في البدء على وضحة فسألوها: ماذا يفعل الرجال مع نشمة حتى الصباح؟! فتطلق قهقهة داعرة حاسدة من شدقها الكبير المتدلّي كإسفنجة رخوة، وأبو الهايم يا وضحة هل يشارك الرجال عبثهم؟ وهل تذلّه؟ وهل نام معها بعد عرس الغزّاوية؟ وهل سيتزوّجها؟! تفلت وضحة من الانزلاق في حديث عن أبي

الهايم الذي غدت علاقته بالخيمة الجميلة مثيرة وغامضة وغير قابلة لأيّ توضيح حتى بالنسبة إلى القرباط أنفسهم الذين استهجنوا تمادي نشمة في علاقتها به رغم أنّه ما زال يتردّد إلى الخيمة كأنّه حقّ من حقوقه، متغاضيًا عن اللغط والشائعات التي بدأت تتفسّخ. لم يتكلّم مطلقًا ولم يزر جدّتي كيلا يرى العتب ولا يشاهد الإحساس بالمصيبة الذي دهم الجميع.

بدت عيناه شاردتين حين كنت أجتاز العتبة داخلًا غرفته، أحدّق في وجهه فلا أرى البؤبؤ، ترك ساحة الرؤية مفتوحة على ظلام طويل تتخبّطُ فيه وتتعثّرُ قدماه بالصخور الصغيرة المرصوفة، وبدا لي بهيًّا أكثر كأنّه استعاد وجه عنّاب بعدما انطفأت دماملة، تضامنت الذكورة معه ومنعت النساء من الثرثرة على هواهنّ بسيرته، ابن عبيد صديق خالي حاول إقناعه بالعدول عن هذه المهزلة وهذا الجنون، في ما بعد حين شاهد نشمة كأنّه يراها أوّل مرّة، وفُوجِئ بالجمال الوحشي والصدر العاري، سكت، صفع زوجته حين أكّدت بنبرة مستهترة أنّ أبا الهايم سيصبح قرباطيًّا مثل هؤلاء القرباط ويعمل معهم في سلخ جلود الحمير وصنع الغرابيل، وأنّها كانت منذ زمن بعيدٍ تعرف أنّه لا يليق به أن يكون عنّابيًّا، الصفعة كانت إنذارًا أوّليًّا لئلّا تكرَّرت الحديث وإلّا تترك أولادها الأربعة وتذهب إلى بيت أهلها.

بقي ابن عبيد مذهولًا بتلك الصورة التي رآها. أبو الهايم على طرّاحة واطئة بجانب نشمة الجالسة، متعالية كأنّها تريد الطيران، الصورة لم تكتمل، نشمة قلقة، حائرة، مرّة واحدة أرادت أن تقف أمام ذاتها وتنزع كلّ أقراطها، أن تبقى عارية لحظة واحدة، قامة أبي الهايم ترتفع، تقف على الحوافّ كأنّها تحسّ بالامتلاء حين تنظر في عينيه أو حين لا تريد الاعتراف، ونشمة لم تُغَيّرَ طقوسها الجديدة شيئًا، ترسم فحسب صورًا غير مرئيّة تتقافز أمام عينيها، تحاول مرّة أن تُنْكِرَ، أن تكذب أحاسيسها بأنّها امرأة باردة، مهجورة، خاوية حين يكون أبو الهايم بعيدًا منها أو حين يغيب، تمنّتْ لو أنّها تستطيع الذهاب إلى تلك الغرفة العلويّة غامزةً عائشة أن تُخلي المكان وتجمع الصبايا، فتُخرج ذلك الدفتر الملوّن ثمّ الكريمات وبعد ذلك تختلي بعائشة وتبوح لها بأنّها امرأة ذاوية وذابلة من دون رحيق شفتي ذلك الرجل الغريب المُصَمّم على عبادتها كما أباح لها آخر مرّة والإحساس بالفقدان والخسارة يُعَرّشَان فوقهما، ونشمة لا تستطيع أن تدلّه على دروبها المقبلة، على ما يُخَطّط له عَوّاد وما يُضمره الملك المخلوع المختصّ بشؤون الجغرافيا التي سيحلّان رموز خرائطها ويتعلّمان لغة عوالمها وفصولها.

لا تجرؤ على البوح بأنّه جعلها امرأةً دفعةً واحدةً بهذا الإصرار وبأنّها وصلت إلى الحافّة التي من الممكن أن تتدفّق منها أحاسيسها العاشقة، أو أن تقول له أنّها بدأت تحبّه من دون أن يزعجها هذا الخاطر، أو أنّها حقيقة امرأة مغرمة بشرود عينيه ولمسة يديه وحضوره الأنيق، تعرف أنّ مواعيد الرحيل تُطْبَخُ الآن والإحساس بالخطر يتشمّمه القرباط قبل دخوله ديارهم، لكنّها كانت حائرة،

تريد الإقامة دومًا في هذا الفضاء النّتِن مع رجل يدخل خيمتها، يسفح عمره على مخدّات وهمها ويخرج مُترعًا بالخسارة والإحساس بالخيبة، يُحاصرها لحظةٌ فتودّ الرحيل فورًا والابتعاد من كلّ شيء تاركة ضوء القمر منتشرًا على بقايا القرباط، أوتاد الخيام المقطوعة، والتراب المنعم، سيور الغرابيل المقطوعة، وجلود الحمير المذبوحة.

هذه اللوحة فتنتني، ضوء القمر يُنير بقايا القرباط، وأنا أدخل الأرض المهجورة وحيدًا أبني من أنفاسهم برجًا عاليًا، الشهقات والزفير وروائح الجنس المختلط برائحة الطبيخ، محاولاتهم التمويه لاسترضاء العنّابيين، وقَشَبَهُم في ما بعد وهو يُهيمِن على المكان، ضوء القمر على أمعاء متراخية مُعَلّقةً على شجرة الزعرور الوحيدة ذات الأغصان القليلة المتروكة هكذا للمصادفة، هاجرةً الظلّ، إيواء القوافل وألغاز الأزمنة المرحة في تلك البرّية الكئيبة، يرتفع البرج وأسمع أبي من آخر النوافذ يأمرني بأن أترك ورائي كلّ شيء وآتي إليه، أقول له أنّ برجه مرتفع وعالٍ ولا أستطيع الوصول إليه، أبي ساكن البرج يشير إليّ بيده كي أصعد، وأخبره مرّة أخرى بأنّني لا أستطيع الصعود، يدلي لي حبلًا من أرسان البغال ويقول: اصعد، فأصعد ومن آخر نافذة تنبسط العنّابية تحت أنظارنا... نرى أسطح المنازل، وفسحات الدور، النوافذ التي ذَبُلَ الضوء فيها والأشجار القليلة المتناثرة، يشير بيده إلى مكان أعرفه فأرى الضوء يكاد يذبل في غرفة عائشة، أفتح الباب وأدخل، أبي قرب عائشة كأنّها اكتشفت رائحة الفحولة ولذّة العبَث بحلمتها مُتقلّبةً في فراشها مُستمعة إلى الأصوات البعيدة التي تصل إليها مع نسائم البحر من بيروت، صوت فاطمة الناعس المُغتلِم وهي تُحيط زوجها برجليها وتتنهّد كأنّها تتمزّق وتخرج من الكوّة الضيّقة لتحلّق فوق البحر امرأة تريد أن تضاجع نهرًا كي تهدأ قليلًا، علي يجاهد كي يسيطر على فاطمة التي تموج، يُثبّت كتفيها ويدخل هذيانها، يُوغِل في ذلك اللهيب الذي يلفحه، وهي تتمزّق وتعوي كبنات آوى، تتمسّك به، ببقاياه، علي في الفراش مستلقيًا وفاطمة تهدأ قليلًا تقول له: دخّنْ – أحبّ رائحة التبغ منبعثة من جلدك – يحتار، يُكابِر قليلًا ويُشعل سيجارة، لا يستسيغ هذه اللعبة ويخجل من قطعة اللحم الصغيرة المتراخية بين فخذيه ولا يفصح عن رغبته العميقة في النوم، فاطمة تحتضنه، وتحلم بأزمنة يدخل فيها الرجال من كلّ الثقوب حتى تطفح، تصل أصواتها إلى عائشة المتقلّبة في فراشها، المسترخية، مطبقة الجفنين، وهاذية، الغرفة تعبق بروائح لا نعرفها، نتشمّمها ولا نستطيع تحديدها، رائحة لذيذة، وعائشة تتقلّب لا تريد النوم، لا تحبّ أن تغفو مهجورة، وحيدة في فراش بارد، يقول أبي أنّ العنّابيين لا يحبّون النساء المتعفّنات من البرد، والعنّابيات إن لم تُغرقهنّ وتجعلهنّ صامتات ومطيعات ومبلّلات يُنجِبنَ من الحائط نهرًا كي يغرقن فيه، وزليخة أخبرتني في ما بعد بأنّ عائشة كانت تهذي بأنّ نهرًا يدخلها كلّ يوم وأنّها تترك النافذة مغلقة كي يحطّم أقفالها ويُغرقها، عائشةِ تحبّ النهر الهادر... كأنّ برجي يتهاوى، تتهاوى

الأنفاس فينزل أبي وفي يده أرسان البغال ويجلس على حجر، لا يدخل معي غرفة جدّتي التي كأنّها تنتظر قدومنا، تُخبرني بأنّ عنّاب ينام في الداخل كي لا أرفع صوتي، أقول لها، أرجوها، أقبّل التراب تحت قدميها، أن تُريني وجهه فتُشير بسبّابتها كي أصمت، فأصمت، وتقول لي وجهه مرسوم على كلّ الأشياء وأنّه كان يُحاذينا حين كنّا نهبط من البرج، وأنّه متعب وغاضب ولا يريد أن تتزوّج العنّابيات أنهارًا، والعنّابيون يبحثون عن سراب ويقبعون في خديعة المكان، تشير بيدها إلى رسالة مدسوسة في زجاجة مُحكمة الإغلاق مكتوب عليها بحر بيروت، أعرف أنّها رسائل إلى فاطمة التي بقيت ساهرة بينما علي نائم ويشخر ويركل اللحاف برجله، تقول لي اقذفها من فوق البرج إلى البحر.

أخرج وأبي على حجر، كما تركته كأنّه نسي الكلام، يرافقني ومن تحت المصران والحجاب المُغَبرّ يعبر، ينظر هازئًا إلى البوّابة العالية ويُشير إلى القنطرة العالية ويقول أنّ جدّي طلب من المعماري اليزيدي الذي استحضره من عفرين خصّيصًا أن يجعلها بِعُلُوّ هامات ثلاثة رجال راكبين على أحصنتهم، كي يَمُرّ عنّاب إذا أتى في لحظةٍ ما، ويقول لي أنّ الحِجَابَ والمُصران ذبُلا وهو ما زال يحبّ السلاحف، وبعد أن عبر قال أنّه يرى كلّ شيء ولا يريد سماع أيّ شيء، وجدّتي ستخبرني ذات يوم بسبب تركه تجارته، وعدم تصاعد دخّان تبغه في فضاء الغرفة كي تذوب أمي في دوائره المتصاعدة، وجدّتي فحسب تعرف سبب إنجاب أمي من الحائط نهرًا وفرشت له العتبة كي يجلس سيّدًا على هذا الفراغ، أقول له أنّ حكايتي لن تدوّن والوهم يمحو كلّ شيء، لا أستطيع فهم ما يحدث في الخفاء، ومشهدي المفضّل جلود حمير مقذوفة، معلّقة على شجرة زعرور وحيدة تحت ضوء القمر، ونساء عاريات ينتظرن الأنهر ورائحة التبغ. أبي كأنّ صوته اعتدل وما عاد ساهمًا عنّي، أسمعه يقول ما أقسى أن تنتظر امرأة وحيدة رائحة تبغ! العنّابية نائمة أو كأنّها غائبة، منسحبة، البيوت غامضة، كلّ شيء أبيض أمامنا، البرّية الشرقية تنبسط تحت أقدامنا وشجرة الزعرور تتراءى لي من بعيد كأنّها أيقونة متشعّبة الأطراف، والمسيح على ذُرَاها مصلوب، أبحث عن البرج فلا أجد شيئًا، أفلت يدي وأحاول أن أمسك ما بنيت، الهواء يفرّ من بين أصابعي، يقول أبي البرج تهاوى، وأنّه يستطيع أن يرسم لي برجًا إن كنت أرغب، لا أبدي رغبتي وألحظ الرسالة المدسوسة في يدي وأبي يلحظ حيرتي، يمدّ يده ويقول لي أعطني الرسالة، أعطيه إيّاها فيتركني وحيدًا ويعود، أراه يدخل أرض الحوش الواسع ويحني رأسه قليلًا كي يتابع دخوله إلى الإصطبل، يُغلِق الباب وأسمع وقع حوافر البغل البنّي، كلّ شيء حولي يتهاوى، وحيدًا في برّية فتنتني صورتها، متهادية تحت ضوء القمر متشبّثة بشجرة زعرور وحيدة كأنّي أخرج من الحكاية لأدخل في الأزمنة اللامرئية، حيث كلّ شيء باهتٌ وخاوٍ وبارد... أمكنة مهدومة وأطياف رؤى، أسير، أعرف أنّ قدميّ ستقودانني إلى ذلك الكهف، أصل قريبًا منه وأرى الضوء ينبعث شحيحًا على غير عادته، ومن دون ضجيج أرفع الستارة التي

تُسَمّى بابًا وأعبر إلى الكهف، الضوء خافت، تلفّني رائحة التبغ، وأرى أحمد واقفًا، غارقًا في الألوان. الأصابع وكمّا قميصه، بنطاله، والطاولة التي أمامه، كلّ شيء ملوّن، لا ينتبه إلى وجودي، أجلس على الأريكة وأراقب يديه، أصابعه وهي تُبقّع الأبيضَ بهدوءٍ شديدٍ، بعنايةٍ ألحظها، هو غارقٌ وأنا أكاد أختنق، يلتفت إليّ كأنّه رآني حين دخلت لكنّه لم يستطع تحيّتي، التفت إليّ، حيّاني بإشارةٍ من يده وعاد إلى ألوانه، أتمدّد على الأريكة وأعبث بالكتاب الفرنسي المفتوح على الطاولة، أتفرّج على الصور وأقلّب الصفحات، أحاول فكّ الحروف الفرنسية أفشل إلّا بالتعرّف إلى الأسماء التي لم أسمع بها من قبل، أقلّب الصفحات وأتنبّه إلى صوته المنبعث من فمه المليء بدخان سيجارته التي لم تنطفئ قَطّ منذ أزمان، أقول له أنّني بائس ولا أدري السبب، يضحك ويقول أنّه سيعدّ الشاي، أسمع خرير الماء ثمّ هدير الوابور، ويُدندن أغنية لا أتبيّن كلماتها تتحدّث عن الهجران والفراق، أنظر إلى اللوحة الكبيرة الموضوعة على الطاولة المثبّتة بأربعة مسامير، أكبر من أيّ لوحة رأيتها في مرسمه، مساحة هائلة من البياض وفي الوسط تلوّثت بالأزرق الشفّاف والغامق كأنّها ملامح وجه غامض، يعود أحمد بكوبي شاي ثقيل ويمدّ يده إليّ بسيجارة آخذها منه، ويتأمّل اللوحة من بعيد ويقول لي أنّه يرسم وجه الله منذ ثلاثة أيّام، ولن ينتهي من هذه اللوحة طوال حياته، وفي ما بعد أخبرني بأنّ ابن عمّي قوّاد كبير ولديه ماخور في العاصمة، وأنّه سينجح في الانتخابات وسيُصبح عضوًا في البرلمان، وجدّتي تبكي الآن، وتكتب الرسائل إلى كلّ الجِهَات وتنتظر عنّاب كي يأتي في أيّ لحظة، وهي سئمت الوحدة وأخبرته بأنّ المزار من الممكن أن يتهدّم لذلك يجب أن ندعّم حائطه الجنوبي بدعائم من خشب الزيتون ونُرمّم بالإسمنت المسلّح الشروخ التي ستصيبه وهذه العنّابية لا تفقه شيئًا وما عادت كما كانت. تكلّم أحمد وراقب ردود فعلي، ولم ينتظر كلماتي، اقترح أن نتمشّى قليلًا، خرجنا من الكهف، برودة الخريف المنعشة كأنّها أيقظته فانتعش وجهه وبدا أكثر صفاء وقوّة وعيناه أكثر لمعانًا. دروب العنّابية مقفرة، البيوت من بعيد تبدو كمعابد مغلقة، ندخل الأزقّة، يلفّنا الظلام، والسيجارة تُضيء وجهه، يُمسكني بيدي ويُوقِفُني تحت نافذة بيت فطّوم الأرملة، مشيرًا لي بإصبعه أن أسكت، يخيّم الصمت مجدّدًا ومن النافذة أسمع صوت فطّوم ضعيفًا كأنّه يأتي هامسًا إلينا من مسافات بعيدة، ألتقطُ حشرجةَ أنفاسها، ورجاءاتها لرجلٍ ألّا يتركها الآن وأنين رجلٍ لم نعرف صوته، أحمد يضيء وجهه كأنّه اكتسب قوّة إضافية وأسمع صوت فطّوم يقول: يا حيف عالزلم! ثمّ وهي تطلب من الرجل أن يرحل قبل أن يطلع الصبح فيفضحها، الرجل يتنحنح كأنّه ينهض الآن كي يخرج، نتابع مسيرنا مبتسمين، أرسم وجه فطّوم الأرملة وأدَوّن التفاصيل لذلك الأنف الدقيق والشفتين الغليظتين والصدر الأربعيني الذابل الحيوي المحروم من بركة الذكورة بعد وفاة زوجها منذ ستّ سنوات، تاركًا لها أربعة أطفال أكبرهم بنت في السادسة عشرة من عمرها أخذت من أمّها الشفتين

الغليظتين والشهوة التي لا تنام، ما اضطرّ أمها إلى تزويجها بأوّل رجل قَرَعَ بابها فرحلت معه إلى البادية كي تضاف إلى زوجتيه الاثنتين وأغنامه الكثيرة. الثلاثة الآخرون أصغرهم طفل وُلِدَ بعد موت أبيه بثلاثة أشهر، والأكبر منه مَعتوهٌ يمضي نهاره وهو يستحمّ بالتراب ويتشمّم فشك البغال، هازئًا بأخيه الأكبر الذي يُمسك بعصا تين طويلة ويضربها كي تركض كالحصان، فطّوم الأرملة تخبّئ أسرارها، تأتي إلى منزلنا، تجلس عند العتبة وتتهامس مع أمي كثيرًا، تقبّل يد جدّتي التي تباركها دومًا كأنّ العنّابية لا تعرف أنّ رجلًا يزور فطّوم الأرملة آخر الليل ويخذلها دومًا، قلت لأحمد أنّ فطّوم كانت تجلسني في حِجرها قبل أن أكبر، يقول لي الجلوس في حِجرها الآن ألذّ وأشهى ويضحك، نتابع طريقنا من دون العودة إلى السيرة كأنّنا الآن نتبادل تراشق الماء الساخن والقبلات معها، نخرج من العنّابية إلى العَرَاء، وأبوح له بأنّني سأزورها في أقرب فرصة فيردّ بأنّ عليّ أخذ موعد لزيارته أيضًا، يعود أحمد للتدخين وأطلب منه سيجارة وأدخّن، تبدو السماء صافية والبرودة منعشة والمكان أليفًا، نسمع وقع خطانا الهادئة على الأرض، أقول لأحمد أنّني قلق ولا أدري السبب، لا أستطيع النوم بسهولة، يتابع تدخين سيجارته ولا يلتفت إليّ، في ساحة العنّابية بدا كلّ شيء صامتًا، الحجارة والأماكن والمئذنة الوحيدة وبئر الماء، نعبر الساحة مسرعَين كأنّنا نَوَدّ الاختباء من الأماكن المكشوفة، في الناصية يجلس هادي العنّابي مقرفصًا على حجرٍ يراقب غرباءَ مرّوا ولم يلحظوا وجوده، تشِعّ عينام حين نقترب منه، ينهض ويسير، أقول له أنّني منذ زمن لم أره وأبحث عنه لأُخبره بأنّ الكنز حقيقة لكنّه نُهِبَ وضاع بين أقدام القوافل العابرة، يُشير إليّ بيده بالسكوت، ويقول الخرائطَ المفقودة هي التي تسبّبَت في هرمه المفاجئ، لكنّه اقترب من نهاية رسم الخرائط الجديدة، ويعتقد أنّ الكنز ما زال مدفونًا في أعماق الأرض، وما نهبته القوافل العابرة هو ما تساقط من الجرار الضخمة، وما هي إلّا أشياء تافهة لا تصلح لأن نقف عندها، أحمد يحثّنا على السير بسرعة كأنّ خطرًا سيدهمنا، هادي يجرجر قدميه ويشير له ألّا يستعجل وأنّنا سنلحق بهم ولم يترك لي فرصة للسؤال أو الفهم، تابع حديثه مع أحمد الذي بدا مشغولًا وبدت ملامح قلق متصاعدة ترتسم على وجهه وقال له أنّ وجه الله الذي يرسمه لن يستطيع إكماله وخطّي الحاجبين كانا خطأ كبيرًا، قال أحمد أنّه سيرسم وجه الله ويستطيع إكماله والبياض الذي يتحدّاه لن يطول حتى يتلوّن وأنّه لا يريد إنهاء الأسئلة، يتابع هادي سيره بخطواته البطيئة التي اضطرّتنا إلى أن نبطئ المسير وينتهي الزقاق المفتوح على البرّية الشرقية والعنّابية ساكنة. كنت سأسأل هادي عن أشيائه التي تبعثرت فانفتحت البرّية الشرقية أمام أقدامنا وانتهى الكلام، البرّية الشرقية أمامنا ممتدّة، خطوات وكلّ شيء واضح، حركة غير عادية. كانت الأصوات تصل إلينا ضعيفة، أسأل أحمد هل ترى شيئًا؟ نقف قليلًا على بداية التخِوم لنستطلع أو نفهم ما يحدث في هذا الحشد الآدمي الذي يتحرّك

أمامنا رتلًا، أسمع صوت أحمد كأنّه يعلن حقيقة يجب أن أعرفها، إنّهم يرحلون سرًّا، يا لهم من جبناء، القرباط يرحلون! هكذا انكشفت الظلمة أمام حدقاتنا المتّسعة، أسأل هادي الذي بدأ يبتعد منّا عائدًا إلى مكانه المعتاد، هل تعرف إلى أين سيرحلون يا هادي؟ يشير بيده وتصل إليّ كلماته متقطّعة، لا مكان لهم، دعهم يرحلوا وإلّا تشوّهوا، أحمد يجرّني من يدي ونتجاوز السنسيل في اتّجاه تلك القافلة التي تلملمُ شَتَاتَها، وتستعدّ للمسير، الخيام طويت والحمير استعادت مكانتها متأهّبة، منتظرة التحميل والتحزيم، تلك الألوان غابت، وجوه القرباطيات متعبة والأولاد الصغار ناعسون ذابلون، الرجال يحزمون عصيّ الخيام ويسدّفونها على ظهور الحمير، كلّ شيء يُسَدّفُ ويرتّب، نقترب رويدًا رويدًا ونصبح على مقربة من المشهد، القافلة تسير... الرجال فوق ظهور الحمير والنساء يلحقن بهم، رتل أحادي يعرف دربه جيّدًا، عَوّاد مشغول وأسمع كلماته وهي تؤَنّب قرباطية على تأخّرها، الملك المخلوع ما زال جالسًا مكانه من دون أعواد وقنافذ، أشير لأحمد أن نقترب منه، أحمد من دون أن يراني يخطو في اتّجاههم، كأنّه يريد تقديم واجب الوداع والاعتذار عن أخطاء العنّابية، أبحث عن أثرٍ لنشمة فلا أرى أثرًا وأُخمّن أنّ عددهم قد تناقص، فإمّا أنّهم رحلوا على دفعات أو أنّ نشمة رحلت مع بناتها وحيدة، الملك المخلوع لا ينهض من مكانه يرفع نظره إلى الأعلى، يتفرّس في وجهينا ويقرأ، أحمد يحيّيه فيردّ التحية ويدعونا للجلوس لكنّه يستدرك ويقول: لا أنا سأنهض لِتُرافِقَاني في المرّة الأخيرة، أحمد يقول الوقت مُبَكّر لرحيلهم ووجهتهم ليست في اتّجاه الشرق هذه المرّة، ويسأله عمّا إذا كانوا قد غيّروا الجهات، أو حدث أيّ مكروه لهم، الملك المخلوع يضحك وأرى أسنانه تشعّ وسط الظلام، وغبار القافلة الذي ذكّرني بسحرٍ تمنّيتُ رؤيته، عيشه، رحيل دائم وغبار قوافل، يتكلّم الملك المخلوع مع أحمد ولا أفهم لماذا يهزّ رأسه ويتباطأ بالردّ أو السؤال، الملك المخلوع يسألني عن خالي وعن أبي ويُوصيني بالسلام عليهما وعلى جدّتي أم مسعود، أفهم من حديثه أنّ نشمة رحلت مع بعض البنات والأطفال في سيّارة جاءت أوّل الليل وخفّفت عِبءَ رحيل القافلة، وقال القرباط لا يحسّون بالمتعة إن لم يروا تلك القافلة ويلفّهم ذلك الغبار، سرنا ثلاثتنا، الملك المخلوع في الوسط والقافلة تمرّ إلى يسارنا، كانت تنسحب رويدًا رويدًا، الروائح والألوان وضحكات القرباطيات، وتغيب صدورهنّ المتروكة للعراء في هذا الظلام... الزمن توقّف تمامًا، وما عادت الجهات مهمّة بالنسبة إليّ، لا أدري لماذا أصابنا الخَرَس وتبخّرت الكلمات، ولماذا أحمد الجمل صامت وهو يسند الملك المخلوع في مسيره، الليل الذي شارف على الانتهاء، كأنّه نبّهني ببرودته إلى أنّ الحكاية لن تنتهي وفصولها مُشَرّدة، القافلة أمامنا، نرى سيرها المُنظّم ونسمع الهمهمات، وبعض الأصوات، الحمير تُسرع في المسير ولم يبقَ سوى الملك المخلوع الذي وقف قربه رجل لا نعرفه وقدّم له حمارًا أبيضَ على ظهره بردعة نظيفة مشيرًا له أن يلحق بالسائرين، لوّح الملك المخلوع بيده

وبدا ظهره مشدودًا، مفتول العضلات وغير محني كما كنت أراه، يبتعدون وأنبّه أحمد إلى ضرورة عودتنا. العنّابية كأنّها بعيدة، موحشة، باردة، جَبّانة، ظالمة.

انتابتني مشاعر متناقضة، ودارت في ذهني الحسابات التي لا بدّ منها، هذا الرحيل سيكسر ظهر أبي الهايم، سيفرِحُ أمي وبعض العنّابيين الذين اعتقدوا أنّ القرباط هم أسباب الانهيار الأخلاقي والانحراف الذي بدأت أحاديثه تظهر وتطفو على السطح. في طريق عودتنا كنّا أنا وأحمد منفصلًا أحدنا عن الآخر كأنّنا غريبان التقينا في قطار مسافر، مللنا الحديث وصمتنا بعد ذلك متأمّلين الزوايا والسهوب التي كان يجتازها القطار بسرعة جنونية. أحمد صامت، وأنا غائب، البرّية الشرقية أمامنا خالية إلّا من شجرة الزعرور الوحيدة التي بدت لي حزينة، مهجورة وغير راضية عن هذا الفراق، تركني أحمد أمام باب الدار وتابع طريقه من دون أن ينبس بكلمة، رفع يده مودّعًا وتابع التدخين، رأيت ظهره وسُحُبَ الدخّان المنفوث في الهواء يُغلّفه ويجعله أقربَ إلى المتوحّد مع حجارة الزقاق الضيّق. عبرتُ أرض الحوش في طريقي إلى فراشي الممدود في الغرفة العلويّة. في الزاوية المقابلة لفراش عائشة التي احتضنت زليخة وغطّتا في نوم عميق، خلعتُ ملابسي وتمدّدتُ في الفراش مُوقِنًا أنّ الحقائق لا تأتي كلّها دفعة واحدة، وأنّ تدوين الحكاية ما هو إلّا وهم فلا حكاية ولا أبطال والمسرح مُقفِر تمامًا.

# الدفتر الثاني
# هُلام... أكفَان... وجوه مَمحوّة

العنّابية حامضة، كأنّني أستشعرها تحت لساني وهي تذوب كقطعة سكّر، ثمّ تعيد تكوين هياكلها من الغبار والقشّ وترسم طرقاتها لتنهض وتكتشف أنّ المكان وهم مارسه الزمن، حين صعد فوق خشبة المسرح واكتشف أنّ الأضواء مُطفأة وكلّ شيء ساكن.

خالي حين علم بخبر رحيل القرباط من الصبية خرج من منزله وجرى. وصل إلى البرّية الشرقية، جلس على حجرٍ وبكى.

عائشة تلهج وهي تُخبرني وتُشير لي ألّا أدخل غرفة جدّتي، فهي غاضبة منذ الصباح، ومزاجها ليس على ما يرام. جدّتي لا تلتفت إليّ، تنكش الأرض بعصا تُمسكها بيدها المتعرّقة، أعود إلى أرض الحوش وأرى باب الإصطبل مفتوحًا وعمود الغبار نازلًا مع أشعّة الشمس المائلة، أسمع سعال أبي وهمهماته التي لم أفهم منها أيّ كلمة، أقف عند باب الإصطبل، أبي ممسك بحافر البغل وتفوح في الجوّ رائحة الكحول والقيْح، البغل ساكن، وهو منهمك في علاجه.

أصعد إلى الغرفة الغربية، أُغَيّرُ ملابسي وأنزل الدرجات بسرعة كأنّني هارب من هذا المكان، زليخة تعتني في الزاوية بكمشَةِ ثيابٍ مغسولة، تنشرها على الحبل الممدود فرِحةً بأنوثتها المُبكّرة. الأزقّة مُقفرة، والغبار يحيط بي.

العنّابية تتبادل السأم والملل، الأولاد ما زالوا يُردّدون أنّ القرباط رحلوا، أشعر بالغربة واللزوجة تُحيطان بجسدي، كأنّني وحيد في أرض مرميّة مصادفة أمام قدميّ، كأنّني كبرتُ قرنًا، نسيتُ طفولتي وشِبْتُ فجأة وها أنا في طريقي إلى المقبرة لأرسم حدود قبري وأضطجع ككلّ الرجال الشجعان الذين يختارون موتهم. نسيت عدد سنوات عمري، واستبدّ بي ضيق أطبق على صدري وجعل وجوه العنّابيين صفحة سوداء من دون معالم. في المساء، قالت عائشة أنّ أمي جلست على قرص الدرج بكت ومسحت دموعها بغطائها الأسود، ثمّ استقبلت خالتي في الغرفة الغربية، المرأتان تحادثتا كأنّ مكروهًا لا

بدّ سيُحيقُ بأركانهما ويُحيل أيّامهما إلى سوادٍ أعمى، ثمّ نزلت وحيدة إلى غرفة جدّتي، جلست على العتبة وتكلّمت كثيرًا عن أبي الهايم، عن كلماته القاسية معهما وعن زعيقِهِ في وجهيهما كأنّه أمرهما بأن تغادرا منزله ولا تفتحا سيرة نشمة أبدًا.

ضعت في الدروب، وضاقت الجدران في كهف أحمد الجمل على صدري، وأحمد غير مكترث، يُقهقه بلا مبالاة تاركًا لي الطاولة الواطئة كي أعبث بصفحات الكتاب الفرنسي المفتوح دومًا، مشغول عنّي بتحديد ملامح وجه الله الذي قال لي أنّه سيرسمه لا محالة، ولا بدّ سيصل إليه، يشير بيده إلى النقطة الزرقاء الموجودة بغموض على بياض اللوحة، ويقول هذه بداية المعرفة، ثمّ يضيف أنّه سئِمَ العنّابية ويجب أن يرحل إلى المدينة، أو حتى إلى العاصمة، مشيرًا إلى لوحات مرصوصة بعناية وأخرى متروكة هكذا بإهمال شديد للغبار وللهواء وللنظرات العابرة، أحمد لا يلتفت إليّ، يخبرني بأنّه كان يجب أن يقتل أباه كي لا تموت بدريّة، وهو نادم لأنّه تأخّر في سرقة أموال أبيه وأنّ عمّه الأكبر أتاه منذ يومين يريد أن يُصالحه مع أبيه، وأنّه سيفقد عقله إن بَقِيَ على حالته هذه من الهجران والوحدة، أحمد سمع كلام عمّه بهدوء وقال كلمات مقتضبة فهِمَ عمّه منها أنّه لم يتخلّ عن مزاجه الشرس فخرج مبتهلًا إلى الله أن يأخذ بعمر ابن أخيه الضالّ، كأنّه كبُرَ وأوغل في العمر كثيرًا، وما عادت العنّابية تعنيه بشيء، بدا مزاجه أكثر رعونة، وأكثر ضيقًا وأقلّ حماسة لتدوين الحكاية كأنّه يريد أن يقول لي أنّ كلّ شيءٍ وهم، ما عدا حقيقة البهجةِ التي تعتريه وهو ينظر إلى يديه الملطّختين بالألوان ثمّ وهو يتحدّث عن تقَدّمه باللغة الفرنسية، بدأت أُحِسّ بوحدتي منذ الآن وبشقائي، مللتُ هذه الوجوه التي لا تشي بشيء سوى بقساوة بدأتُ أتحسّسُها مؤجّلة أو مخبّأة تحت الجلد، بين المسامّ وفي العيون.

قسوة العنّابيين رغم أريحيّتهم وهزئِهِم بكلّ شيء، المصران المُعلّق فوق القنطرة ما عاد يُثيرني بعد فشله في إرجاع أبي رجلًا قويًّا يمارس تجهّمه فيعلن زمنه ويخيط الدقائق كي يوقف هذا العبث وهذه التفاهة التي أحسّ بأنّها استبدت بالعنّابية، ما عاد شيء يُغري بالتأمّل أو التحدّث أو إبداء أيّ رأي.

المكان غربتي، كأنّي مشدود بمسامير فولاذية وقدمَيّ تجرجران أيّامي، خالي في العنّابية داخل كلّ البيوت، على جميع الشفاه، وهو معتصم بوحدته بعيدًا من الجميع كأنّه مترهّب أو مترفّع عن الثرثرات التي وصلت إليه أصداؤها، العنّابية التي لم تودّع القرباط كما كانت تفعل كلّ سنة انكمشت على ذاتها، موقنةً أنّ أزمنة جديدة قد تغلغلت في النسيج، ولا فكاك من الاعتراف بأنّ البرّية الشرقية لن تترك أبا الهايم حتى تأخذ ما تبقّى من عقله وشهامته أو كأنّها تنتظر شيئًا غامضًا، تعدّ العدّةَ للتغلغل فيه، صمت جدّتي جعل الرحيل كارثة قد تنفجر في أيّ لحظة، أرض الحوش كما هي منذ سنوات ومع ذلك أحسست بالملل، الدرجِ الذي كان أليفًا، محبّبًا إلى نفسي، الشقوق

الصغيرة في النوافذ العالية كأنّها قروحٌ لن تندمل، المكان يسير إلى حتفه ويدعني وحيدًا، جدّتي في صمتها أضافت إليّ جدّة جديدة، وخالي الجالس في غرفته وحيدًا، رأيته مقرفصًا كأنّه منذ زمن بعيد تجمّد هكذا وانتهى زمنُ الألقِ، أعرفه حين يكون غارقًا في الحزن أو الفرح، كأنّي أرى الآن نشمة وهي ترتسم أمامه طيفًا لا يُمسَك وبرجًا لا يصل إليه، بعيدة نشمة، وخالي لا يستطيع أن يُخفي حتى دموعه أو هكذا تراءى لي، بعد ذلك أتى سلمان ورغم كلّ ضجيجه لم يستطع أن ينتزع منه إلّا ابتسامة من شمع رأيته يذوب بسرعة ليعود وجهه إلى التغضّن، سلمان قبّلني كأنّنا معنيّان بمصير هذا الرجل أكثر من كلّ الناس، قبّل خالي وقال له أنّه فور وصوله من سفره أتى إلى هنا ليطمئنّ على خاله العزيز، ويوصل إليه هداياه. فَرَدَ كيسًا صغيرًا تناثرت من قعره علبُ تبغ أجنبي، وأكياسُ قمَردين، قطعة قماش مُخطّطة ودفتر غامض ملوّن أخفاه عن ناظري رأيته في ما بعد وفوجئت بجمال النساء العاريات فيه، كان سلمان فخورًا بنتائج عمله وغير مهتمّ بأيّ شيء، شاتمًا العنّابية وأهلها البليدين، هَمَسَ له بأشياء لم أسمعها ولم أرغب في الخروج من قوقعة صمتي.

العنّابية الآن تنزف ذاكرتها، وجدّتي تنتظر من يحمل الزجاجة المغلقة بإحكام لقذفها إلى مياه البحر وإلى عناوين الشواطئ المجهولة التي ما زلت غير قادر على فكّ طلاسم تلك التعاويذ وتلك الحروف التي تحرص على ألّا يراها أحد وهي تخُطّها ثمّ تُودعُها قعر الزجاجة، تغلِقها جيّدًا بسدّادة فلّين وتنتظر أحد المسافرين كي يوصلها إلى البحر، كأنّها منذ آلاف السنين مقيمة هكذا ولن تترك مكانها لأحد، كأنّني حامل الأيقونات وبرادع البغال لأجدادي الذين تعاقبوا عبر الزمن حتى اختلطت دمائي وما عدت أعرفُ أو أدرك أيّ حقيقة تحكم تكويني، أيّ هجرة وأيّ حرب ومجاعة وواحة نضرة هي التي أوصلت الصولجان إلى يدي كي أكون وريثها.

عائشة تلوب كأنّها تريد أن تفعل شيئًا وهي عاجزة، ألحظ مؤخّرتها المتينة تهتزّ ثمّ صدرها المكتنز وهو ينبثق كالفضيحة، ثمّ أمي وهي تردّد على مسامعها كلّ يوم أخفي هذه الفضيحة مشيرةً إلى ثدييها الرائعي التكوين وهما يتمركزان كالروابي أو كالثمار الناضجة. عائشة الذكية تتحايل على كلّ شيء، على الهواء والزمن، على أمي وأبي وجدّتي وعليّ كأنّها لا تشعر بضرورة ممارسة ألاعيبها وزليخة التي أوصلتها إلى قناعة بأنّها الوصيفة وخليفتها على الأرض وبأنّها ستعلّمُها أسرار الأنثى إن كتمت السرّ. عائشة تكسر الحطب وتُشعِل التنّور، أمي تصرخ من غرفتها أنّ العجين قد حمّض، فتردّ أنّها تشعل النار. المساء يُنذر بخريف مبكر أكثر ممّا يجب. برودة منعشة تصبح آخر الليل بردًا يجب اتّقاؤه، لا أستطيع النوم ولا المكوث في البيت قرب أمي التي تنهر أبي أو إحدى أخواتي أو تضمّ التين اليابس بقلائد لتعلّقه جانب قلائد البامياء. أجول في العنّابية باحثًا عن سرّ خلود المكان وعن وقعِ سنابك الخيل التي صهلت وجعلت جدّنا عنّاب يترجّل عن فرسه ويُودِع المكان أسرارًا ضائعة،

أحمد قال لي منذ أيّام أنّ عليّ حراسته، لم أفهم قصده، وقال لي سأفهمك في ما بعد جذبني من يدي حين مررت عليه ورأيته يتلذّذُ بارتشاف الشاي، مرتديًا ثيابًا نظيفة كأنّه استحمّ للتوّ وأصبح نضرًا، جميلًا، بدت ملامح وجهه رطبة، متسامحة، أقلّ عنفًا وأكثر انسيابية، فوجئت به، وضحكت حين رأيته يدخّن سيجارته بأناقة وينتعل حذاءً جديدًا قال لي اجلس فجلست، قدّم لي الشاي بكوب نظيف ولم يترك لي فرصة لأتساءل عن سرّ هذا التغيير، قال: بعد أن نرتشف الشاي عندنا مشوار، الآن استمتع بأبّهة صديقك، وقهقه بصفاء، أوّل مرّة أسمع ضحكته صافية هكذا كأنّها أفلتت من الينبوع، وأراه مرحًا. نهضنا معًا، ظننت أنّ العنّابية كالعادة ستكون مسرحًا لمشوارنا الليلي، قال لي ونحن في الطريق احرسني، سأقف وأراقب بيت فطّوم، لقد شاهدها منذ يومين وقال لها أنّه سيزورها وضغط على كفّها، لم يترك لها فرصة لتحتجّ أو تعتذر، كلّ ما في الأمر أنّها اضطربت قليلًا واحمرّت وجنتاها بعد أن تركها ومضى في دربه. الليل يغطّي العنّابية، النوافذ مُغلقة والحركة هدأت تمامًا، قال لفطّوم أن تترك له باب الحوش مفتوحًا، وتنتظره في الغرفة الشرقية القريبة من المطبخ، أحمد ينظر إليّ كأنّه يُخبرني حقائق لا نقاش فيها، ولا يحتاج إلى أيّ رأي أو أيّ نصيحة، أو كأنّ الموضوع قد تجاوز كلّ الإشكالات الأوّلية، وأنّه ذاهب إلى بيته لا إلى بيت فطّوم الوحيدة، والتي سمعنا أنّاتها بين يدي رجل آخر قد يكون عشيقها أو رجلًا ستتزوّجه.

العنّابية لا ترحم، إن خرجت الفضيحة إلى قارعة الطريق سيصبح الشرف لواءً يتساقط تحته الرجال، والنساء سيخاتلن في السيرة، أحمد هادئ وصفحة وجهه في الظلام ثابتة لامعة، أشار لي كي أصعد إلى السطح المقابل لبيت فطّوم وأراقب الزقاق وكلّ مداخل الحوش، فإن أتى أحد أعلمه بقذف حصاة على الباب وهو سيتدبّر أمر خروجه من النافذة الخلفيّة ثمّ يهرب عبر السنسيل إلى البيادر، أوصاني بأن أحترس، وترك لي جاكيت صوفًا كان يرتديه لأتّقي به البرد. اتّجهت إلى الخرابة، وتمركزت على السطح، رأيته يخطو في أرض الحوش ويشير لي أنّ كلّ شيء على ما يرام، رأيته يقرع باب الغرفة قرعًا خفيفًا ثمّ يلج في الظلام ويدخل، رأيت يد فطّوم في الظلام أو كأنّها تراءت لي، ثمّ ضوء الكاز وقد علا فتيله، وظلال أشباح أتخايلها الآن تُحيط بالمكان.

العنّابية من هنا أكثر وضوحًا، أنا بعيد من مرمى النظر للقادم من أوّل الزقاق، اخترت ركنًا يَقِيني اللسعات الخريفية الباردة، خائفًا عليه وفي الوقت نفسه أتخيّل ذلك الدفء الذي يغوص فيه، فأنا أعرف حضن فطّوم جيّدًا وأعرف حجم نهديها وتشقّق شفتيها، انتبهتُ بعد زمن إلى أنّ الضوء عاد وخفت وأيقنتُ أنّ الأمور تسير على ما يرام، أنا حارسك الآن ومدوّن أسرارك، ولا أعرف إلى أين تسير وإلى أين أسير معك، سترسم وجه الله وتعيد الروح إلى بدريّة وتتلوّث بالألوان إلى آخرك، كم عاشقًا مرّ قبل أحمد على تلك

العتبة؟ فطّوم الوحيدة طَعم سهل للرجال وغير قادرة على الدفاع عن نفسها، رأيتها تبكي بين يدي أمي مرّة وتشكو الوحدة والهجران والزمن الصعب وأمي تُهدهدها وتُطمئنها إلى أنّ أولادها سيصبحون شبابًا ولن يذهب تعبها هدرًا، كنت صغيرًا حينذاك، ولكنّني عرفتُ أنّ عائشة تعرف كلّ أسرارها، كانت كثيرًا ما تصعد إلى غرفتها وتغلقان الباب خلفهما، وعائشة حين تراها مُقبلةً تترك من يدها كلّ شيء وتقبّلها ممازحةً، قارصةً لحم فخذها بخفاء، عائشة تعرف أسماء الرجال وأشكالهم جميعًا، وفطّوم تخبرها عن أعمال متعتهم ولكنّها قد تكون فعلًا مهجورة والصوت الذي نبّهنا إلى أنّها ليست كذلك ما هو إلّا رجل عابر يمضي عندها ساعات من وقت إلى آخر، ثمّ يتركها امرأة وحيدة فريسة القلق والكبت والحلم بمن يسدّ ثقوبها ويحميها.

الساعة قاربت الثانية صباحًا، والزقاق صامت، الأحجار صامتة، الأسطح، المنازل والشبابيك، كلّ العنّابية غارقة في صمت رهيب. صرير رياح خفيفة وبعيدة، وأنا أنتظر خروج أحمد، مضى الوقت الذي اتّفقنا عليه، قال لي: في الثانية تمامًا سأعود، هذا آخر وقت لعودتي، إن تأخّرتُ أكثر فاتركني واذهب، لن أذهب حتى أطمئنّ عليه، لن أتركه وحيدًا هكذا، انفتح الباب ببطء ورأيت وجهًا أطلّ من الباب وعاد، ثمّ أحمد وهو خارج كأنّه مسترخٍ، أو تراءى لي قد افتتح أزمانه الجديدة، نزلت من السطح بعد أن تبادلنا إشارة السلامة، والتقينا أمام باب الحوش. أشار لي بالسكوت حتى نعبر البيوت فسكتّ.

وقع خطواتنا في الزقاق توقظ أعماقي الهائجة، ثمّ ونحن نودّع آخر البيوت انفجرنا بضحك هستيري شديد، لم ألحظه يضحك من قبل بهذه الشدّة، سألته كيف جرت الأمور؟ قال: تمام التمام. ولم يُضِف شيئًا.

العنّابية تُبالغ في كلّ شيء، تُضخّم كلّ شيء وتحتال على مَلَل أزقّتها، تخترع الوسائل والطرائق لإسكات نسائها، والرجال يزدهون برجولتهم من دون أيّ سبب، لا يجدون من يحاربونه فيبالغون بوصف الفحولة، والنساء يحتلنَ على كلّ شيء من أجل فكّ حصارهنّ، يُشمّسنَ أجسادهنّ ولا يدعن العفن يتسرّب إلى مسامّهنّ. العنّابيات السمهريات ذوات الأيادي الخشنة والبطون الناعمة بالغت الهجرات في النيلِ منهنّ، فالكثيرات بقينَ من دون رجال فترات طويلة، والكثير يعرف عن الكثير... والكلّ مُصاب أخيرًا بالداء نفسه، صمتُ الفضيحة يتّخذ في العنّابية ميثاقَ شرف، وإن خُرِقَ هذا الميثاق بُولِغ في فضحِه.

تخبّئ البيوت أسرارها، ولم تكن بحاجة إلى درب الغياب ولا إلى سجلّات الحكومة ومساعدات الأحزاب والمنظّمات، كانت تعيش اطمئنانها وتبحث عن ذهبها العتيق كي تُبادل به الأثواب والأحذية وخشخشة الفضّة في أيادي صباياها ونعومة البرلون على أجسادهنّ، أقول لهادي العنّابي ونحن نرسم الخريطة مرّة أخرى أنّه بالغ كثيرًا في توصيف الأشياء للعنّابيين حتى ألحّوا على جنونه، وتركوه فريسة للحيرة وعدم التصديق، لم يقل شيئًا إلّا أنّه لم ينس، وبعد قليل من مسيرنا حول السور العتيق كما كان يُسمّي الأحجار المرصوفة حول

المزار، قال لي الحقيقة هي ألّا تُخبر بما تعرف، بل بما أنت قادر على تخيّله والتهويم فيه، هادي دومًا يسحبني من يدي ويُعيد على أسماعي أنّ القافلة التي ضلّت دربها تركت للعنّابية ثروة لا تقدّر بثمن وأنّ من سيدَوّن الحكاية كاملة سيعرف الحقيقة كاملة ويكتشف أنّه خُدِع وسيموت من الحسرة، والتفت إليّ ثمّ أوقفني وقال لا تدوّن الحقيقة كاملة. أعاد الدورة حول السور وقال لي ابحث تحت هذه الخدوش، أيّ في الأرض وستخرج الممالك لك، مُجلّلة بأغطية رأس عنّاب الكبير وأغطية رؤوس فرسانه، وأشار إلى مكان قريب من الركن الشمالي للمزار وقال: احفر هنا: إيّاك والتهاون إن صدّك الصخر المتشبّث بالأجواف، ابتعد قليلًا يا هادي كي أرى أين أنا، وأين تلك التي يسمّونها ثقوبًا وكنوزًا مفقودة، ابتعد قليلًا ودعني أهِمْ وحيدًا في سماء التسابيح المفروطة.

هكذا بين ذرّات التراب وأثواب النساء العنّابيات السمهريات الواقفات في نواصي المدن والعواصم ومفارق القرى والدساكر بأيديهنّ الشموع وعلى جُبُنهنّ الغار، العنّابيات المُنفلتات من مكائد المكان، تجرفني العنّابية وتقذفني في المنحدر، أرى نفسي شيخًا مسنًّا واقفًا في وادٍ سحيق، أريد الوصول إلى تلك القمّة، الدروب مسدودة والبرّية واسعة، الوادي مُنبسط أمامي كصحراء أسير فيها دهرًا، أصل إلى تلك البيوت المشعشعة بقناديل الزيت، كلّما لهَجُت باسمها ابتعدتُ وضاق الوادي، لا يبقى إلّا صوتي والصدى، وأعود هرمًا أكثر ممّا كنت، أجلس على حجر وأبكي، من تحت الحجر تنبع المياه دافقة هائجة... المياه تتجمّع، تشكّل بحيرة زرقاء، صافية، كبيرة، ضفافها بعيدة، وأنا على الحجر ما زلت ألمح التكوين، من البحيرة تخرج سبع بطّات بديعات الريش. يسرن بهدوء ملكي ويقتربن منّي، أختلط بالألوان وأضيع في زحمة الأصوات، أصواتهنّ، سبع بطّات أو إوزّات أو أميرات مُسِخنَ على هيئة سابحات، تسألني الكبرى ماذا تفعل هنا يا شيخنا؟ كأنّي بالصوت أعرفه، وتشير لي الأخرى بالصعود على ظهرها كي تحملني بعيدًا من ضلالات المكان، يتركني هادي في منتصف الطريق ويُشير لي أنّ الخرائط قد ضاعت وعلينا إعادة رسمها. لماذا يا هادي علينا إعادة رسمها؟! دعنا نضِعْ مع الخرائط ونكسب الوهم. لماذا الحقائق وجوهر الزمن؟ هكذا نتمّم ضياعنا، ونهيم باحثين في دفاتر القرباط عن معنًى لإشعاع الكلمات القليلة التي جُوّفت في بقائنا واستقرارنا في العنّابية، حيث الغبار غَطّى جلودنا ونفذ عبر مسامّنا ليحيلنا بعد زمن إلى أحجار صَمّاء رُصِفت في قلعة قديمة ثمّ أغلقت القلعة أبوابها، ثمّ ضاعت المفاتيح بعد موت الملك، واستبدّ السكون بالكون وبالقلعة التي بدأت تكتب تاريخ الصمت، ونحن أحجار، اترك الخرائط ضائعة يا هادي وتعال لنرتشف الشاي مستمتعين بشمس الصباح والكسل الأبدي، هادي لا يسمعني وأنا في الأمكنة المرئية واللامرئية أحسّ بالبُهوت، وأنتظر أحمد أن يُنهي تلوين اللوحة كي أسأله عن الجهات التي لم يُفسدها الملح، العمر مفسدة، الكلمات التي لم أسمعها منذ

زمن تتساقط من شفتَي أبي الذي يُثير الشفقة بتسليمه مفاتيح كلّ الجِرار لأيّ آتٍ، والأخبار عن كلّ شيء، ما الذي يحوّل الرجال إلى خُرَق؟ تؤكّد أمي دومًا أنّ نظرة منه كانت كافية كي تجفل الجهات وتغِلّ بريق عينيها، ما زالت تذكر كفّه القوية وهي تنزلق على فخذها المشدود ثمّ وهي تحتضن نثارها في الفراش المعطّر ذي الشراشف البيضاء الفوّاحة بأريج البابونج الذي تخلطه بالماء المغلي مزدهية بنشوة رجلها، والآن ما الذي أحاله إلى حجر متحرّك، صامت، غير غيور، مُلتاع من الداخل وذاهب وراء رائحة البغلين يتشمّمها بعنف كأنّ مصيره في تلك الرائحة فيحكّ أنفه؟ يقترب به من جلديهما ويُمعن أكثر في المتعة كمن يتشمّم جلد امرأة خارجة للتوّ من الحمّام تاركةً الباب وراءها مفتوحًا كي تهبّ رائحة دخولها مصحوبة بذلك البخار الذي بُورِكَ حين سال على مسامّها وأكسبها النضارة المشتهاة. جدّتي لا تقول شيئًا مع أنّها تعرف كلّ شيء، لذلك لا تقسو عليه ودومًا تتلقّى أخبار بغليه باهتمام مبالغ به ثمّ أتحسّس أسئلتها وهي تُرَمّزها، تُشَفّرها، تُحيلها إلى ضباب مفردات لا تَقي ولا تُفصِح عن أيّ جواب، وهو يفهمها ويُجيبها بالرموز نفسها مضيفًا إلى ضبابيتها غموضًا يُغري بالبحث والتوقّف طويلًا عندها. مرّة، كنت نائمًا في غرفتها وأتى أبي صباحًا، رفعتُ وجهي من تحت اللحاف وعدتُ للنوم، لم أعد أكترث لحضوره أو لأن يكون لي أب، اعتدتُ غيابه أو تغييبه من الصورة تمامًا حتى امّحى وأصبح ضربًا من الذكرى القديمة التي ألتقيها فجأة فأبعدها بيديّ كي تغيب أكثر وتبتعد من طريق حضور التفاصيل القوي الذي يُرافقني، أصبح بالنسبة إليّ ذلك المصران المتيبّس المعقود والمتدلّي بثقة فوق رأسي حين أعبر الباب المتحوّل في ما بعد إلى بيت للديدان تتناسل منه وتتساقط فوق رأسي حين أقف تحت القنطرة مراقبًا حركة الزقاق الضيّق المُترِب. نهضت جدّتي وتهلّل وجهها – كأنّني أراه من تحت اللحاف الذي حبس أنفاسي ومنعني من متابعة نومي – واستوضحت منه عمّا إذا كان سيغرس شواهده هذا العام، لكنّه أجاب بنبرة صوته القديمة، الصوت القوي غير المهتزّ، بأنّه على الأغلب ليس هذا العام، ثمّ قال أنّ الأرض خصبة وسيزرع نصف دونم ويحصده خصّيصًا للبغل، كيف يزرع الشواهد ولا أراه؟ وماذا تعني جدّتي؟!

سألت أحمد: هل يزرع الرجال الشواهد؟! وماذا تنبت الأرض المزروعة بالشواهد؟! قهقه أحمد وقال لي: الموت، ثمّ سكت وبعد برهة تابع أنّ الحكاية التي أدوّنها لا تصلح لشيء إلّا لتثبيت الصورة الثابتة ولن أستطيع الانفلات من إسارها. فكّرت كثيرًا بأن أرمي ورائي كلّ شيء، الأقلام والحبر والأوراق التي سوّدتُها ثمّ التي وُضِعَت بين يديّ، والتي تشكّل عبئًا كبيرًا لا أحتمله، فكّرت كثيرًا بترك تلك الدروب تقتسم مصيرها والرحيل بعيدًا من تلك الرائحة التي تُهفهف حولي منذ زمن بعيد، حكمت طفولتي وجعلتني طفلًا لا يحبّ المزابل وتسلّق أشجار التوت، بل مندهشًا دومًا من اقتراب أيدي أصدقاء طفولتي من أعشاش اليعاسيب بجرأة منقطعة النظير وسرقة الدجاج ونكاح الأغنام في

المراعي والتجسّس على الأزواج ونشر سيَرهم في الصباح للتندّر ولفرقعة الخواصر من الضحك على أصوات النساء المبحوحة، تمنّيت لو أستطيع ممارسة هذه اللذّة التي دهمتني وأنا ممسكٌ بإلية الغنمة والجًا فيها كأنّني الإسكندر المقدوني يفتح العالم وتدنو من قدميه كلّ العروش، لو أستطيع تكرار هذا العبور، هذا الخطأ والتمتّع بعينين وقحتين كعيني سلمان الذي أمسك حمارة بيضاء صغيرة وأمام كلّ الرجال والصبايا اللواتي في طريقهنّ إلى البئر قال لو تتحوّلين إلى امرأة أو لو تضطجعين. لو أرافقه عبر الحدود وهناك يدهمنا البرد فنتدفّأ بالبطّانيات ونستريح قرب كومة أحجار، وندخّن باستمتاع شديد أو حين نلمح دوريّة الحدود ننبطح بين الأعشاب أو نبحث عن مغارة قريبة نعرفها مُسبقًا، خبراء بتضاريس كلّ شيء، الأرض، الحدود، المرأة والزمن.

كثيرًا ما أنظر إلى الأوراق، إلى طاولتي الآن وأنسى كلّ شيء، أخرج إلى هواء العنّابية أتنشّق حموضته وأثقاله وأقتحم خلوة فطّوم كما فعل أحمد منذ زمن بعيد لأقول لها أنّه حدّثني عن ذلك اليوم وأنّني كنتُ حارسه أراقب الأسطح والزقاق والباب ويلتهب عضوي من الانتصاب حين يذبل الضوء في غرفة فطّوم. لا أحتمل تلك الحرقة في المسالك. فأفتح أزرار بنطلوني وأخرج تلك القبّعة الحمراء الملتهبة على عمود من لحمٍ قاسٍ، أستحضر وضحة التي لم ألمس إلّا فرجها مقابل نصف ليرة دفعها أحمدً عوضًا عنّي حين استحضرها إلى كهفه راميًا لها خمس ليرات خضراء تراءت أمام عينيها كنزًا، فاستأنست بالمكان، وبدأت تتحرّش به دومًا، إلّا أنّه قال أنّها رخوة وكثيرة الكلام والخوف، وما عاد يفتح لها مجالًا للحديث راميًا بنظرته القاسية الكفيلة بإبعادها وهي تتمتم.

حضرت، على فراش وثير مُثْقَلَةً بنهديها المُرتجّين، وكانت نظيفة، وعادت تلك السخونة إلى أصابعي التي لامست قطعة برلون تحتضن مثلّثًا من الرعب والدفء، كانت وضحة فيها تضطجع. ثمّ تنهض لتأتي نشمة الغضّة المنفلتة من خطإ الجغرافيا، تأتي على مهل وتُغادر فورًا قبل أن تُعرّي جزءَها الأسفل حين ينبثق وجه خالي أبي الهايم من المشهد وفطّوم أخيرًا وجسدها يلتمع وهي عارية تمامًا.

كنت أسترخي وتدهمني البرودة حين كنت أحرس أحمد الذي أصبح في ما بعد لا يحتاج إلى حارس، صارت فطّوم تحرسه وتحرس لحظاتهما، تهيّئ كلّ شيء، الأبواب والمزالج وتُخبّئ قمصان البرلون التي اشتراها لها أحمد، ستّة قمصان شفّافة لامست جسدها وأمرها بأن تدعكه بالصابون جيّدًا حين تستحمّ، صار للغرفة رائحة غريبة، لذيذة، رائحة تبغ ورجل وأجساد تتماحك بلذّة منفلتة من إطار الخدر، فطّوم تهنهنُ، تصرخ، كأنّه زوجها، أو كأنّها تستدعي الفضيحة إلى بيتها، امرأة مختلفة لا تخاف نظرات الناس المريبة.

في العنّابية كلّ شيء مريب، أمي كأنّها اطمأنّت إلى أنّ خالي سينسى ويعود إلى عاداته القديمة في الحذر من كلّ شيء، وقالت لخالتي أنّ الزمن سيداوي جروحه، ويجب أن تبحث له عن عروس مناسبة، لكنّ خالتي ارتابت في الأمر وقالت مهمومة أنّ سلمان أصبح قلقًا من الحرمان وحذرًا، خالتي الطيّبة تستشير أمي في كلّ شيء وتودعها الأسرار كلّها، وأمي تبحث عمّن تودعه أسرارها تنظر إليّ مرتابةً، كأنّها تكتشف أنّني لن أكون سيّد البيت وحاميه، تراخيّ مع أخواتي ورحيلي الدائم إلى منزل خالي ومغارة أحمد الذي تستعيذ من سيرته وتترحّم على أمه التي كانت امرأة ودودًا وضعيفة أمام علي الجمل وبخله.

خالي انقطع عن محادثة العنّابيين، وعن عاداته القديمة في البحث عن القوافل الضالّة كي يُزوّدها بالتبغ والماء والتين اليابس ويستضيفها في بيته، يعلف بغالها ويتمدّد رجالها في صدر الغرفة متحدّثين عن أسعار الشعير والتبن وعن المواسم وثارات العشائر. ما عادت تعنيه كُلّ هذه الوجوه، وكلّ هذه الأخبار، أصبح لا يسأل أحدًا، وهم يستغربون هذا النفور وهذا الصمت الذي جلّله فلا يُطيلون المكوث، تعود بِغَالُهم للرحيل من دون أن تستريح، في بيته كنت أراه، أرتبكُ في حضوره الصامت، كعادتي أتجوّل بحرّية في الفضاء المفتوح وأستنشق هواء القرباط البعيد الذي يبقّع كلّ الأشياء، المساند وزجاج النوافذ، الأبواب وشراشف الفراش، صندوق الثياب والمسامير المتروكة عاريةً على الجدران، قلت لخالي أبي يزرع الشواهد، رفع رأسه وقال لي لم يزرعها بعد، لكنّه سيزرعها. قلت له: ولكن لماذا؟! أجابني انتظر وستعرف، ما زال كلّ شيء أمامك مغلقًا، افتح الأبواب وستعرف كلّ شيء، الأسرار في العنّابية ملح أيّامها، عاد خالي للصمت، لدخّان سجائره ولرائحة قصب نايه العتيق، ينهض فأنهض معه، أقول له أريد مرافقتك، يمسك بيدي ويمضي بي.

أحسست بالحرارة وأنا أنظر في عينيه اللامعتين، سنفتّش أرض القرباط، التمعت عيناي، ثيابه تهفهف مع نسمات المساء وصوت أجراسه ترنّ في ذاكرتي، شحيج البغال، ورائحة الماء في الجرن، والرعيان ينتظرون أغنامهم، النساء ينشلن الماء من البئر، والحركة المفعمة بنشاط الماء المتسرّب، المبلّل أجساد النساء، ورعشة البرودة، خالي لا يتنبّه إلى أنّني معه، أسير في ظلّه وألمح رعشته حين دخلنا البرّية الشرقية من الجهة المشرّعة لخطواتنا، اختلطت مشاعري وما عدت أفهم شيئًا ممّا يحدث حولي، أتكلّم مع خالي فلا تخرج كلماتي وخالي لا يسمع، وقف عند كلّ حجر وأطال الوقوف.

من صدر خيمة نشمة، تنهض امرأة تحفّ بها الفراشات، صدرها مفتوح كأنّها تستقبل الأَلَقَ وذوبان يديه، تنهض وتمسك بالأصابع المرتعشة، كأنّه غاب عنّي، ما عدت أراه أو ألمحه حلّق كغيمةً فوق رأسي وبلّل مطره وجهَ نشمة التي تشرّبت الماء وتبلّلت أثوابها الشفّافة فشفّ تكوينها، قال لي أنّ عوّاد هو الذي عجّل بهذا الرحيل.

الخيمة وهمٌ وأنا أبحث عن الحروف والكلمات، كلّ شيء غادرني، إلّا خالي الذي عاد ممسكًا بي بقوّة أكبر كأنّه يخاف أن يضيعني أو يفقدني، يده تشدّ على أصابعي وكفّي متعرّقة، قال لي ونحن في طريق عودتنا: طريقي صعب اتركني يا ولدي وافتح كلّ الأقفال، إيّاك وجوز القطن الفاسد إيّاك... كلّ الوصايا تساقطت من بين شفتيه كأنّها اللحظات الأخيرة، وحين تركنا البرّية الشرقية وخيّم أوّلُ الليل على العنّابية، وبدأت الأصوات تنتشر، عاد مرّة أخرى غيمة، وبدا سرور خفيّ أقرأه في ملامح وجهه وفرح لذيذ تغلغل إلى لحظاته، كانت الكلمات تتساقط ولا أستطيع الوقوف على رصيفِ معانيها، غريبًا عمّا يحصل حولي وإن سُررت بخالي الذي أحسستُه أكثر شبابًا وهو يعبر إلى غرفته تاركًا يدي، طالبًا منّي أن أبعث له سلمان حالًا من دون أن تعلم خالتي أو أمي بشيء، لاحظت السرورَ الذي أحاطه وأنا أخبره بأنّني كالبرق سأخبر سلمان وأحفظ سرّه وأعود إليه، فقال لي ليس الليلة، لي كلمتان مع سلمان، سلمان كان عائدًا لتوّه ويتناول عشاءه، لم يطل الأمر كثيرًا، أخبرته أمام الباب، وتركته ورائي يلوك اللقمة في فمه ويبحث عن حذائه عند العتبة، أخبرته بأنّه يريده لوحده، كأنّ سلمان فهم كلّ شيء، وكأنّني فهمت كلّ شيء، مضيت إلى الحوش الواسع وكان أبي يتوسّل أمي أن تتركه وشأنه وأنّه يريد النوم في الإصطبل قرب البغل فهو ينزف أكثر من أيّ يوم مضى ويحتاج إلى أن يغسل قروحه، كي لا تتعفّن، أمي تقسم أنّها لن تتركه ويعلو صياحها.

عائشة جالسة على الدرج، تراقب المشهد باستمتاع يُغضِب أمي فتنهرها لتدخلَ غرفتها، وزليخة تطلّ برأسها من النافذة وتعود إلى الداخل، عائشة تُشير لي ألّا أتدخّل وأصعد إلى الغرفة، أبي متوسّل، فمصمّم، ثمّ غاضب، أمي تبكي في ما بعد وصوتها يختنق ويتوسّل الله أن يأخذ عمرها ويُرِيحها. فرحتُ لأنّ أبي غَضِب ولأنّه دخل إلى الإصطبل ومهّد القشّ في الزاوية لينام قرب البغل الذي بدأت قروحه تنتِن، تنشر رائحة لم أتشمّمها من قبل، وتنزّ قيحًا أصفر.

في الغرفة، كانت زليخة تُمارس طقوس المساء، تتحرّك، ترتّب شيئًا ما، وأتنبّه إلى أنّها بدأت تكبر وأرى ملامح طيبة ترتسم على وجهها المتسامح دومًا، تتنبّه إلى وجودي الصامت وتقول أنّ أمي معها حقّ، ثمّ تطلّ برأسها من الشبّاك ثانية وتخبرني بأنّ أمي تبكي في غرفة جدّتي وعائشة جالسة على الدرج تفصفِص البزر، تسألني عمّا إذا كنت أحتاج إلى كوب شاي، ثمّ تُعيد رأسها وتراقب أرض الحوش، مساء العنّابية وصوت عائشة يدعواننني للسهر على الدرج، أخرج وأجلس قربها على الدرج، تلحق بي زليخة وتأتينا ببساط نمدّه تحتنا وتذهب لتعدّ الشاي، منذ زمن بعيد لم أجلس مع أختيّ، عائشة مسترخية كأنّها تُمارس لذّة خفيّة في تربّعها هكذا على المشهد أو كأنّها شامتة بأمي، تقول لي أنّ جدّتي زارت خالي أبا الهايم في بيته وتحدّثت معه بأشياء لا يعرفها أحد، وأن العنّابية تتكهّن، ثمّ تعود إلى جُمَلِهَا غير المترابطة، وتسألني

عمّا إذا كنت ما زلت أزور أحمد الجمل، أستغربُ السؤالَ وأخمّن أنّها تقصد أن تسألني عمّا إذا كنت أعرف شيئًا عن فطّوم... وتغمز بعينها وتتابع أنّ فطّوم سألت عنّي، تأتي زليخة بأكواب الشاي وتجلس عند أقدامنا، تسند رأسها إلى ركبتي وتحدّق في فراغ الحوش، أسأل عائشة عمّا إذا كانت تريد الزواج، فترفع يديها وتقول يا ريت! تضحك زليخة للآهة المصحوبة ببحّة صوتها وتسألني هل ستذهب لزيارة ابن عمّي في العاصمة؟! فأقول لها لا داعي، وأنّه سيعود مرّة أخرى إلى العنّابية وسنراه، يخيّم الصمت على الحوش، ونسكت كأنّنا اكتشفنا أنّ لا شيء يربطنا كي نتابع ما بدأناه وأنّ عوالمنا منفصلة تمامًا، يا ليتني ذكر! تقول عائشة وهي ترتشف الشاي ولا تنتظر جوابًا أو إكمالًا لحديثها، أضحك وأسألها: ماذا كنت ستفعلين لو أنّك ذكر؟ تقول: لا شيء. سألتها: إذًا، لماذا هذا التمنّي؟! قالت هيك. أمي تخرج من غرفة جدّتي وترانا جالسين تنظر إلينا كأنّها صُدِمت بالمشهد فسَمِعتُ كلماتها التي تشتم النسلَ وتأمرنا بالدخول، لا نتحرّك من مكاننا فتتابع طريقها إلى الخارج، وتقول ستذهب إلى خالتي، وأنّها ستهجر هذا البيت، بعد ذلك تنحني عائشة وتوشوش زليخة كلمات لا أسمعها، ارتبكت ثمّ نهضت ودخلت الغرفة وعادت بعلبة تبغ، تفَاجئني عائشة وهي تمدّ لي سيجارة، آخذها منها وأنا مندهش بأنّها تدخّن، تشعل لي سيجارتي، تشرّع سيجارتها، تتركنا وتطمئنّ على أبي وتعود، عائشة تُدخّن كالرجال، تُخرج الدخّان من مناخيرها وتستمتع بنكهة التبغ، ولا ترتبك مثلي حين تُمسك سيجارتها، تُخبرني زليخة بأنّ مُرافق ابن عمّي هو الذي أعطاها علب التبغ، وأنّها تشتري من الدكّان وأحيانًا تدخّن مع خالي حين يأتي لزيارتنا، وأنّ بنات أخريات في العنّابية يدخّنّ، أحبّها وهي تدخّن وتستهتر بهذه الفناءات الصامتة، وهي تجمع حولها البنات وتبدأ ممارسة حركات بذيئة أمامهنّ، ثمّ وهي تدعوهنّ للرقص، وتخبرهنّ بأسرار تعرفها فيندهشن منها ويسلّمن لها زعيمةً وحارسةً لأحلامهنّ. أخرج إلى الدروب، أقول لهادي أن يفسّر لي وَلَعَ العنّابيين بالرّوِي، فيقول لي: اترك هذه الأوهام وانتبه جيّدًا للدروب الممحوّة فهي التي ستوصلك إلى الحقيقة، ابحث عن البياض فهو الذي سيوصلك إلى التدوين. يأخذني من يدي إلى البرّية الشرقية ويجلس على حجر، يُفرِد خرائطه ويقول لي سَجّل وارسم، يتفوّه بكلمات أفهم منها أنّه يُعيد تحديد الجهات، فأقول له الجهات لم تتغيّر، ينظر إليّ ويضحك هازئًا، الجهات تغيّرت، الشمال لم يعد شمالًا والجنوب لم يعد جنوبًا، أقول له أنّني لم أفهم قصده، فيردّ بأنّني لن أفهمه أبدًا، أرسم خطًّا بيانيًّا جديدًا وأكتب كلمة شمال مكانَ الجنوب وأشير بسهم إلى أنّ الشمالَ هو الجنوب الآن، يأمرني بشطب ما كتبتُ ويحذّرني من إضافةَ أيّ شيء لا يأمرني به، فهو العارف وأنا لست إلّا مُدوّنًا، أشطب الكلمات التي كتبتها، ويقول أنّ الجنوب هو درب المغامرين الذين لم يجرؤ الكثيرون من أبناء جيله على اجتيازه لاعتقادهم أنّه مسكون بالعفاريت والجانّ، وأنّنا الآن سنكتشفه وننقّب فيه، أقول له أنّ الوادي هو المركز الذي اتّفقنا

عليه وأشير على الخريطة إلى النقطة م، يقول: هذا هراء، تابع واستمع جيّدًا، ارسم دائرة، فأرسم، ثمّ يقول أنّ مركز العنّابية هو مركز هذه الدائرة، وهو مزار عنّاب، فأكتب على المركز، مزار عنّاب، يقول لي القافلة ضلّت في إحدى نقاط محيط هذه الدائرة. عليك تحديد هذه النقطة، قلت له ولكنّك غيّرتَ خططك، قال لم أُغيّر خططي وإنما يجب رسم الخريطة بتفاصيلها، وأخبرني بأنّه حين كان عائدًا في العام 1694 من فلورنسا إلى القاهرة، رافَقَ في الطريق رجلًا مصريًّا أخبره بأنّ العنّابية هي مملكة الأسرار والعثمانيّين ما زالوا يبحثون عن التَرِكَة التي خلّفها الخلفاء وراءهم في تلك البقاع وأنّ الطريق ممحوّ، مفقود، لذلك يَضلّون دومًا في الوصول إليها، ونصحني بإخفاء أصلي العنّابي لئلّا أُرشد العثمانيين إلى الأسرار. وفي القاهرة، أوصلني إلى راهب قِبطي تحدّث معه في غرفة مجاورة أكثر من ساعة ثمّ عاد الراهب والرجل الذي استأذنني، وقال أنّني وصلتُ إلى المكان الذي سيطمئنّ فيه عليّ، الراهب كان رجلًا بشوشًا، طيّبًا، وجهه معافى، أدخلني غرفة أنيقة فيها سرير وطاولة عليها شمعدان نحاسي ضخم، وكرسيّ وخزانة صغيرة من خشب الجوز العتيق، قال لي: استرح الآن وسأعود إليك في المساء، ثمّ أشار إلى غرفة صغيرة وتابع: هذا الحمّام، تستطيع أن تستحمّ فيه، تركني وذهب، تمدّدت على السرير، وغفوت كأنّي لم أنم منذ زمن بعيد، وفي المساء عاد، أشعل الشمعدان، غسلتُ وجهي وجلستُ قبالته على الكرسيّ الآخر عند الطاولة، سألني عن أهلي وعن العنّابية ثمّ عن أسفاري والبلاد التي أقمتُ فيها ثمّ دخلت علينا امرأة بين يديها صينيّة عليها زجاجة نبيذ ودجاجة مطبوخة، وضعت الصينيّة على الطاولة ومن دون أن تتكلّم خرجت، صبّ لي كأسًا من النبيذ وصبّ لنفسه قليلًا من خمرٍ فاحت رائحته اللذيذة في الغرفة، استمع الراهب إليّ وقال أنّه سيقدّم لي هذه الغرفة لأُقيم فيها وحين أزمع الرحيل عليّ إبلاغه قبل أيّام ليؤمّنني مع القوافل الذاهبة إلى فلسطين. كانت ألوان هادي تتغيّر وهو يتذكّر، تخرج الكلمات من بين شفتيه بطيئة كأنّها تتدحرج فوق أرض وعرة أو كأنّه لا يريد إخباري بالحقائق التي لا أستطيع فكّ رموزها إنّما يحيّرني انسيابها الشبيه بانفلات ماء في أرض عطشى، سكتَ فجأة ونظر إليّ كأنّني دنس لا يحبّه قال لي ماذا تفعل هنا؟ قلت أرسمُ الخريطةَ، وسألته ما اسم ذلك الراهب يا هادي؟ قال أيّ راهب؟! قلت الراهب القبطي، قال حين نجد الكنز ستعرف كلّ الأشياء، أنا لا أريد معرفة الأشياء، لو أستطيع تمزيق كلّ شيء والتفرّغ لاصطياد العصافير واللوبان في أزقّة العنّابية فحسب، أشارك أحمد الجمل رسم وجه الله، نفرد اللوحة ونبدأ التلوين. اليدان. الوجه. الشعر المسترسل ثمّ نمحو كلّ شيء... الله لا يدان ولا وجه ولا قدمان، إذًا نعود للتلوين بشكل آخر، ارسم يا أحمد بالأزرق، وإتني بالبرتقالي. أحسستُ بالضيق من أنّ هادي قد سكت فجأة ثمّ سمعت صوته متابعًا أنّ ذلك الراهب كان يعرف العنّابية جيّدًا وأنّه لا محالة عنّابي مثلنا واسمه جرجس. صباح اليوم

التالي، أتى وبيده صُرّة صغيرةً فتحتها وفردتُ محتوياتها على السرير، طقمًا رسميًّا جديدًا أسود وبدلة مهترئة قليلًا وقميصًا وحذاء مع جورب، علّقتُ الطقمَ الرسمي على الحائط ولبست البدلة البنّية بعد أن استحممتُ ونزلت إلى الكنيسة، كان بانتظاري في البهو، أخذني من يدي إلى غرفة جانبية، وقال لي استمع يا بنيّ أنت هنا ضيف وستعرف كلّ شيء ولن أتركك قبل هذا، سأناديك ميخائيل وسأقول أنّك من دمشق، وتستطيع الدخول والخروج كما تشاء، زَوّدَني ببعض النقود واستأذنني تاركًا لي حرّية التجوّل، حيث الحجارة العتيقة، الفسحة البهية، الجدران العالية والجرس المرتفع، صور القدّيسين والمسيح المعلّقة في صدر القاعات توحي بجلالٍ رهيب، خرجت إلى القاهرة وتشمّمتُ العبقَ كأنّني خلقت من جديد وكأنّ الخرس أصابني، لم أشكر الأب جرجس ولم أقل ماذا سأرث أو متى سأرحل وعمّا أبحث، كنت مستمتعًا بهذا الانفلات في القاهرة، أدور في الأزقّة الضيّقة وأتشمّم رائحة الأجداد والتاريخ والناس، أقف على ضفّة النيل وأرى تلك العظمة التي تُجلّله كأنّني أرى فيضانه الآن وحسناء مصرية تهوي من أذرع الرجال إلى عمق الماء كي تهدّئ غضبه. ذهبت إلى الأزهر وهناك خلعتُ حذائي وصلّيت، صلَيت وتعبّدت ورأيتُ وجهَ عنّاب آتيًا من آخر القافلة خلف المسيح والنبي والصحابة والقدّيسين الذين أحاطوني برعايتهم حين عدت مساءً لأتناول عشائي مع جرجس الذي بدأ تعليمي اللغة اللاتينية التي لم أحتج إلى وقت طويل كي أفكّ رموزها ثمّ كي أتلعثم بها وسطَ بهجةِ كلّ الذين كانوا حذرين في الاقتراب منّي بداية ومحبّتهم، والذين شكّلوا لي وطنًا حين جلسنا وتحادثنا وصلّينا وأرقنا النبيذ على المذبح وتمتمنا الصلوات باللاتينية وتبادلنا معارفَ السفر والأشعار وقصص التاريخ. يبدو أنّ جرجس نسي أنّه سمّاني ميخائيل وبدأ يُعاملني على أنّي ميخائيل حقيقة وأنا أيضًا تناسيتُ، ماذا تهمّ الأسماء أمام هذه الأيدي الطافحة بالخير، بالمحبّة، وأمام ذلك السور الذي تركني ألهو بالزمن وأنظّف ما علق بي من تعب السفر والترحال، أخبرت جرجس بأنّني أذهب أحيانًا إلى جامع الأزهر فابتسم بهدوء. صلاة الأحد كانت أحبّ اللحظات إليّ، كنت أرتدي بذلتي الجديدة وأفطر ثمّ أنزل الدرج بخفّةٍ إلى الفناءِ وهناك أراقب القادمين، النساء الأنيقات والرجال المتسامحين، لم يخطر في بالي أنّ صوت الأرغن وضوء الشموع المنعكس على صفحة وجه ماريا سيجعلانني أسيرَ عشقٍ لن أخرج منه إلّا وأنا مُفتّت العظام أمام رقّة شفتيها وعذوبة أصابعها التي كانت تضيء. كأنّ هادي لا يحبّ القصّ، كلماته كانت تفيض ثمّ تنقطع، يتذكّر مفردات ضاعت في زحمة الأشياء التي توارثها العنّابيون أو بعثروها مع أظلاف أغنامهم وتناسوا الزاوية التي كان يجلس فيها مستمتعًا بالشمس أو هاربًا من ضجيج الألوان في البعيد الذي كان يتراءى لعينيه وحده والرائحة التي ستلفّه وتتغلغل في نسيجه فتدغدغ جلده وتتركه نادمًا على عودته كي يبحث عن دروب طُمِرت تحت حوافر البغال وهُزءِ العنّابيين. كنت أنتظر بقية الحكاية التي أعادتني مرّة أخرى إلى نشوة

الاكتشاف ولذّة التدوين، تركني هادي وحيدًا في دروب العنّابية ومضى، قال: غدًا نُكمِل رسمَ الخريطة. لتذهب خزينة عبد الملك بن مروان إلى الجحيم، تعال كي نرسم وجه ماريا الحلو وأيادي جرجس، لا تتركني وحيدًا تائهًا في حَواري القاهرة وأتخبّط في المعابد، أتشمّمُ الروائحَ ولا أعرف أيّ زمنٍ أريد، لا تتركني وحيدًا، لم يسمع صوتي ولم تكن مَلهاة الدروب الخاوية المَمحوّة إلّا مهزلةً تحيطُني بها العنّابية وتجعل أنفاس عنّاب وهو قادم مع المسيح والنبي وباقي القدّيسين حبالًا من الوهم أصعد بها إلى آخر سماء وهناك أقفز في الفضاء أسبح وألوب باحثًا عمّن يرشدني إلى ضلالاتي وسرّ الدروب الممحوّة، حاولتُ اللحاق بهادي. ولكن كيف؟! في طرف البرّية الشرقية، أحسست بخواء ثمّ بحزن، قلق، بهتان، فراغ، وتراءى لي طيف أواخر الليل يخبّ على الدرب، يعبرها، يدور حولها، يلتقط أنفاسًا أو يلملِم أشياء لا أراها، طيف كنتُ أعرفه، أعرف رائحته وخذلانه، رأيت قامته في الظلام وككلّ الغرباء يخبّ على درب الغياب، عرفته من قامته، من عمره المتساقط، أوهامه التي لا تُسوّر، لا تُحدّ، لا تنكمش، أبو الهايم بيده حقيبته التنكيّة يكتب تاريخ الغياب، أحاول اللحاق به، أحاول لملمة رائحته من على التراب، إلى أين؟! أصرخ وكأنّني صرخت ولم يلتفت، أهي عيناي تغبشان أم إنّها الحقيقة التي انتظرتها؟ أبو الهايم راحل ولا سبيل إلى إقناعه بالعدول عن هذا الرحيل، كان في أيّامه الأخيرة يبدو لمن يعرفه متسولًا ثمّ يبدو هائمًا كأنّه استعاد سيرته دفعة واحدة واكتشف أنّ العمر خسارة، انقلبت الجهات أمام قدميه، لم يعد الشمال شمالًا ولا الجنوب جنوبًا واختلط الغرب بأردية الشرق لتتربّع الجغرافيا وتغدو الأرض مسطّحة، مربّعة، مثلّثة، وأبو الهايم لا يميّز سوى الشرق الذي تنبعث منه رائحة أثواب نشمة المهفهفة، كأنّني أصبتُ بالرمَد وأنا أراه يغيب كسفينة ورقية، من دون أن أستطيع احتضانه ولو في المرّة الأخيرة، أو النظر في عينيه لأُذكّره بكلمات جدّتي حين قالت له إذا أردت أن يرقصوا فلا تعزف في كلّ الأوقات، دوزن نايك جيّدًا يا ولدي... ثمّ قالت له وهو يغادرها، لا تتعجّل الأشياء. الوحيدة العارفة، الموقنة أنّ العنّابيين يستهويهم الرحيل بحثًا عن أوهامهم. قال لي أحمد حين دخلتُ كهفه، تمدّد ونَمْ إن استطعت، فهو يعرف دربه جيّدًا، كان يعرف أنّه قد رحل، وبهدوء شديد عاد لرسم وجه الله، دخّان سيجارته يتصاعد من وراء كتفيه ليشكّل غمامة فأتشمّم رائحة التبغ وأهدأ قليلًا، أتمدّد على الأريكة الوحيدة وأنظر إلى السقف، في ما بعد قال لي أحمد أنّ خالي لو لم يرحل لما كان عنّابيًّا، إذ ليس من المعقول أن يترك نشمة ويندب حظّه في هذه الأرض القفر، إنّه عاشق وسيقتله عشقه لا محالة. ولن تستطيع إنقاذه لأنّه يجب ألّا يُنقَذ بل يُترَك لمصيره يواجهه. على الأريكة، غفوتُ، وفي الصباح نهضتُ متأخّرًا كان أحمد الجمل قَد افترش الأرض ونام قربي، قَدّرتُ أنّه سهر طويلًا، غسلتُ وجهي ونشّفته، رتّبتُ الأريكة وخرجتُ، وأمام مدخل الحوش رأيتِ عائشة بحركتها العصبية تستعدّ للخروج إلى البئر لجلب الماء، أخبرتني

بأنّ أمي تبكي وأنّها قد تمرض، إذ وهنَت كثيرًا. ولم تتوقّف عن البكاء مذ جاء سلمان وأخبرهم بأنّ خالي قد رحل وراء نشمة وأنّه قد لا يعود، وأنّ سلمان أصبح وكيله في فلاحة أرضه وزراعتها، وأخبرها بأنّه سيكون بخير وسيطمئنّ عليه بين فترة وأخرى وأنّه يعرف مكانه وسيزوره دومًا، وقال مُهدّئًا أمي كما هدّأ أمه من قبل: أنّ الموضوع لا يستحقّ كلّ هذا العويل. وخرج غاضبًا مستخفًّا من قلّة عقل النسوان، الخبر تسرّب إلى الأزقّة كلّها وصل إلى المراعي ودخل البيوت وبدأ الجميع التأويل والتكهّن، استرجاع الذكريات القديمة والجديدة التي وقعت وحفرت في الذاكرة، والتي لم تقع فتشكّلت في لحظة الحديث. الرجال في أعماقهم حزنوا. النساء والصبايا ابتهجن بحزن لأنّه لا يزال هناك رجل يترك وراءه كلّ شيء من أجل امرأة ويمضي إلى المجهول كي يقاتل ويقارع حتى يحظى بها، وحلمن في الليل بأنّ أبا الهايم قد قارع سبعة جيوش وأبحر في سبعة بحار واجتاز سبعة قفار وأخيرًا، وصل إلى أدراجهنّ، تزيَنّ له وعلى فرُش عابقة بالنظافة ذبْنَ بين يديه، رجل يأتي من آخر الدنيا، مهتديًا برائحة امرأة يحبّها.

العنّابية تمارس تكهّناتها، تنقسم في الرأي وتُؤَلّف سِيَرًا وأوهامًا، ابن عبيد جاره أكّد أنّه آخر من شاهده كان خارجًا كي يتوضّأ، مرّ من أمامه ولم يستطع الكلام معه واستغفر ابن عبيد من ذلك الوجه الغضّ الذي اكتسب نضارته لتوّه وأكّد أنّ خطواته كانت لا تطأ الأرض، وكان كلّما ابتعد أصبح مرئيًّا وكبر أكثر وعندما لحق به أحسّ بأنّه قد غاب عن أنظاره وأقسم ابن عبيد، كما هي عادته حين يريد أن يُقرّ حقيقةً لا تُصدّق أو شاهدها وحده، أنّ أبا الهايم توقّف لحظات مكان خيمة نشمة والتقط زهرة بنفسجية لم تُرَ في البرّية من قبل بتويجاتها المدوّرة وساقها السامقة التي طالت في غفلة، وتابع ابن عبيد لمستمعيه في ساحة العنّابية متحمّسًا، وجهه يطفح وهو يشرح بيديه، كأنّه يُقَرّر مصير العالم وقال أنّه حاول البحث عن آثار خطواته على الطريق الترابي فاندهش عندما اكتشف أنّ الأرض المستوية كانت تمحو خطواته كأنّها تتآمر مع الريح، وظلّ يُقسِم فترة طويلة أنّ الزهرة البنفسجية كانت تنمو في الصخرة البيضاء التي نُصِبَت عليها خيمة نشمة، وأنّ الوردة جَرَحَت الصخرة. ظلّ ابن عبيد يروي سنوات أنّ أبا الهايم رجل عنّابي صميم وأنّه من أبطال الله وقد اختاره للمهمّات الصعبة ليمتحنه، وعندما أصبح ابن عبيد مُتدَيّنًا أقسم أنّ أبا الهايم وليٌ من أولياء الله وأنّه لا بدّ شفيع لنا كي تدخلَ العنّابية الجنّةَ من أوسع أبوابها.

الصورة بهيجة، ما عدت حزينًا على رحيله كما كنت حين رأيت طيفه يُغادر، بل قلّبت الموضوع في ذهني واعتبرته جديرًا بالحياة أكثر من أيّ عنّابي آخر. نسي أنّ درب الغياب يجب ألّا يُغطّيه الغبار. أُهَدّئ خواطر أمي وأُخفّف حِدّة لهجتها وهي تصف نشمة بأنّها قحبة قد كتبت لأخيها عند مشايخ حلب كي يلحق بها، وأنّها إذا رأتها ستسحب نهديها وترميهما للكلاب، أُهدّئها، أُمازحها، أُسخّف

الموضوع رافعًا صورة خالي إلى مصافّ الأبطال، فتشير بيدها أن أسكت وتتابع نشيجها. أتت خالتي محمرّة الوجه، باهتة العينين، صعدت فورًا إلى الغرفة حيث أمي تنتحب، وارتفع صوتاهما بنحيب مشترك كأوركسترا تُؤدّي معزوفة حزينة، تركتُهما ونزلتُ، رأيت أبي جالسًا قرب باب الإصطبل المفتوح كأنّ عينيه تضحكان، يفرك كفّيه والشعور بالرضا يغمره لم أعرف السبب، إلّا أنّني قدّرت أنّه قد يكون مسرورًا لأنّ أبا الهايم رحل بهذه الطريقة العنّابية، اقتربت منه ومازحته، فقال لي أنّ البغل البنّي بدأ يتعافى، وقروحه بدأت تندمل والدواء الذي أحضره من البازار قد أتى مفعولًا جيّدًا، وتابع أنّ البغل الأبيض عيناه ترمدان قد يكون لأوراق التين والفقّوع التي تناولها بشراهة دَخلٌ بهذا الرمد وأنّه قد قطر للبغل الأبيض القطرة في عينه وأنّه سيشفى ولا بدّ، قلت لأبي أنّ الجوّ جميلٌ والشمس خفيفة، والشتاء سيكون دافئًا هذا العام وموعد حرث الأرض قد اقترب، أشار بيده غير مكترث وقال كلّ شيء في أوانه حلو، ثمّ تابع الاستمتاع بالشمس الخريفية الخفيفة. في طريقي إلى غرفة جدّتي التقيتُ زليخة في منتصف الطريق، عرضت عليّ ارتشاف القهوة فوق قرص الدرج، وافقتُ وغمزتها، تكبر زليخة خلسةً، وتُسرف في الأنوثة والطيبة والمحبّة، عيناها تبرقان بنظرات حنون دومًا، تجعلك لطيفًا معها كما هي مع كلّ الكائنات، تُغطّي البغلين بأكياس خيش حين يشتدّ المطر، وتبكي على الخراف التي تُذبَح في الأعياد والأعراس والمآتم، تقَرّبها جدّتي منها وتمسح رأسها وهي تحاول أن تدّعي شيئًا أكبر منها كأن تدخل غرفة جدّتي وتسألها عمّا إذا كانت تحتاج إلى شيء، بينما تعرف أنّ عائشة قد أمّنَت لها كلّ حاجاتها من طعام ومياه نظيفة وتنظيف الغرفة وغسيل الثياب الوسخة، وقصّ الأظافر التي امتنعت جدّتي في آخر فترة عن قصّها معارضةً رغبة الجميع رافضة مناقشة الموضوع، فاستطالت قليلًا وعلّقت عائشة ضاحكة أنّ جدّتي تريد أن تَطلوها بالمناكير، لم تغضب من المُزَاح وضحكت، وصلتُ إلى غرفتها ورأيتها كما هي دومًا مُتربّعَة وسط الغرفة، لكنّ وجهها كان يُخفي قلقًا لم تفصح عنه حين سألتها عمّا إذا كانت تعلم مكان أبي الهايم الآن أو ما إذا كانت تعلم أنّ هادي العنّابي قد زار مصر حقيقة أم إنّه ينسج لي حكاية كي يستمتع بدهشتي ويُغريني برسم الخرائط لأمكنة موهومة وكنوز ضائعة، لم تجب بل سألتني عن أحمد وعن عدم زيارته إيّاها، وما إذا كان مريضًا، قلت لها أنّه يرسم وهو بصحّة جيّدة، لكنّه يعيش في ملل دائم من العنّابية وغبارها، وشعرت بأنّ جدّتي تعرف أنّني أغَطّي عليه، ولا أريد إخبارها بأنّه يزور امرأة تُدعى فطوم، سكتَت جَدّتي ثمّ قالت بعد قليل أنّ أبا الهايم بخير وروح عنّاب تُرَافقه ولا تسمح لأحد بأن يمسّه بسوء وهذا الفعل من صميم العنّابية وأنّها ستبعث إليه برسالة تخبره فيها بأنّ يستمرّ ويمضي إلى آخر الحبّ، والرجل الذي يذهب كي يبحث عن امرأة يُحبّها كالرجل الذي يبحث عن وطن ضائع وهي ليست غاضبة عليه وتستخفّ ببكاء أمي وخالتي، ثمّ ضحكت حين رأتني

جالسًا أمام الباب أستمتع بنسمات يوم خريف هادئ، سألتني متى سترحل عن العنّابية؟ قلت لها لا أدري إلّا أنّ الموعد قد اقترب، خصوصًا بعد رحيل خالي.

ذكرى ذلك اليوم ستبقى عالقة في ذهني، وسأدوّن المفردات كي أستطيع تسجيلها أو إيجاد مكان لائق لها في الحكاية، جدّتي قلقة، أمي وخالتي توقّفَتا عن البكاء ولم أسمع همسهما المتقطّع وبعد قليل انضمّت إليهما عائشة ثُمّ عادت إلينا غاضبةً، أنا وزليخة جالسان على قرص الدرج نرتشف القهوة ونتحدّث بهدوء عن العنّابية، تُحدّثني أنّ البنات في العنّابية ينظرن إليّ الآن شابًّا وإحداهنّ تغمز عائشة كي تُدبّر لها لقاءً معي. عائشة تُهمهم غاضبة وتُشير إلى الغرفة الغربية، حيث أمي وخالتي وتقول: وكر الجنون. إنّ هاتين المرأتين لا بدّ أنّهما مخبولتان. كأنّ خالي مات أو ذهب للموت، وابتسمت لزليخة وغمزتها أن تُحضِر لها فنجانًا، لطيبتها نهضت وأحضرت الفنجان وسكبت القهوة لعائشة التي جلست على الدرجة الواطئة وقالت أنّها ستقرأ لي فنجاني وتكشف المستور، قلت لها لا يوجد مستور ولا مكشوف، وأعطيتها فنجاني وأنا منسجم في هذا الاسترخاء اللذيذ بين عائلتي، ألمحُ أبي قرب باب الإصطبل، هو الآخر كأنّه يتطلّع إلينا، عرضنا عليه ارتشاف القهوة معنا فأشار بيده رافضًا واكتفى بنظرة حنون إلى زليخة التي حملت إليه فنجان القهوة رغم عدم رغبته فيه، أخذه منها ووضعه قربه وأخرج علبة تبغه وبعد قليل رأيت رأسه مرفوعًا وهو يغيب وسط دخّان التبغ القوي، قالت لي عائشة أنّ طريقي صعب وطويل، قلت لها قديمة، فقالت لا أمزح وسترى ما إذا كنت لا أستطيع كشف المستور، في ما بعد قالت لي زليخة أنّ عائشة تجمع الصبايا في غرفتها وتقرأ لهنّ الفناجين وسط صرخات الدهشة والاستحسان والتحسّرَ والتمنّي من جميع الصبايا حتى غدت باعترافهنّ جميعًا مستودع أسرارهنّ، وهي لا تمانع حين تقرأ فناجين الصبايا كشف المستور من أحلامهنّ الليلية بلغة سوقية، واضحة وبذيئة، ما يُثير اهتمام جميع الجالسات وحماستهنّ لتكرار الجلسة بشكل دائم أو شبه دوري، ويقسمن على الحفاظ على جميع الأسرار، وأنّها استطاعت إحراج فطّوم حين قالت لها في جلسة خاصّة أنّه ينتصب في فنجانها شخص غريب الأطوار، لكنّه قوي يجعل للفراش نكهة، فوجئت فطّوم! وفي ما بعد اعترفت لها بأنّ أحمد الجمل يزورها كلّ ثلاثة أيّام، تترك له الباب مفتوحًا وتستحمّ في الغرفة نفسها، أحمد يحبّ رائحة الصابون المتصاعدة ويأخذها مبلّلة بالماء. يُبهجها بصمته وعنفوانه حين يطويها بين ذراعيه وتحسّ بأنّ جسدها يتقصّف بين يديه، لا يترك مسماة في جسدها من دون تقبيلها، وأشارت بطرف عينها أنّه بالكاد يكفيها وأنّها امتنعت عن الرجال الآخرين الذين كانوا يزورونها بين الحين والآخر لأنّهم وسخون ومتزوّجون أي خيرهم مسحوب، همست فطّوم لعائشة بهذا السرّ وقهقهت. عائشة متواطئة مع الجميع، قالت لي اسمع واحكم بنفسك، وعادت للتحديق باهتمام مبالغ به في الفنجان وقالت أنّ طريقي صعب وطويل ولكن سأجتاز جميع المصاعب،

وأنّني منذ أيّام عدّة أعاني حيرة وأنظر في شكٍّ وارتيابٍ إلى كلّ شيء، وهناك سرّ أبحث عنه وأشخاص لهم خيالات أراهم كلّ يوم وأُحَادِثُهم وهؤلاء أشباح يجب الابتعاد منهم كي أرى طريقي جيّدًا وعدم الالتفات إلى الوراء، وأشارت بإصبعها أن أرى ذلك في الفنجان، شارحة لي هذه البقعة هي الأشباح وذلك الخطّ الأسود هو الطريق الصعب والطويل، لم أرَ شيئًا إلّا أنّ زليخة نَبَقَت برأسها وأكّدت صحّة كلّ ما قيل واستعاذت بالله. ثمّ تابعت في منتصف الطريق، هناك خيال امرأة ثمّ أكّدت بلهجة واثقة أنّها امرأة، وقالت ستكون محبوبًا من النساء، ولكن احذر منهنّ وهناك أكثر من واحدة تشدّك إليها ولن تفوز بك أيّ واحدة سوى التي تمشي معك الطريق الطويل والصعب، لم أعد أسمع ما تقول، انتبهت عائشة إلى شرودي فلكزتني وأخرجت علبة سجائرها من صدرها وقالت لي أعطني كبريتًا، أشعلت سيجارتها وتركت صفحة وجهها لنسمات الخريف، رأيتُ أوّل مرّة في وجهها ذلك الحرمان الطويل وأدركت أنّها امرأة يليق بها التمرّغ في العشب عارية بين يدي رجل يستطيع احتواء جسدها المكتمل. نهدان مكوّران قويّان أسمران، وحلمتان أراهما تنبثقان من تحت الثوب الضيّق الذي تُصِرّ على ارتدائه رغم معارضة أمي وصراخها المستمرّ أنّها دائمًا كالعروس، ثيابها نظيفة ليست كباقي بنات العنّابية، وتفوح منها رائحة عطر لا أعرف من أين حصلت عليه. قالت لي زليخة في ما بعد أنّ فاطمة حين عادت من بيروت تركت لها عطورًا وأدوات تجميل كثيرة ومراهم وثيابًا فاضحة تلبسها حين تكون وحيدة أو حين تكونان وحيدتين في الغرفة، تروح وتجيء بألبستها الشفّافة المخجلة وتقف أمام المرآة تُقَرّبُ المرآة من فرجها وتضحك ثمّ تُعِيدُ خلع ملابسها تلك وترتّبها مرّة أخرى في صُرّة وتُخفيها في قعر الصندوق، وأكملت زليخة أنّ عائشة لا تنام إلّا وجزؤها السفلي عارٍ وأنّها لا تخجل، زليخة تقول كلّ شيء كأنّها توأمي أُحِسّ بها من بُعد، بأحلامها الصغيرة وحبّها للناس، غيرتها على أهالي العنّابية وتقديسها لجدّتي، كأنّها كنزي الذي سأظلّ أكتشف أنّني مُقصّر في حقّه، اكتشفتُ فجأةً صديقة وسط هذه الخرائب كبرت فجأة في الظلّ، وخرجت الآن لتقف إلى جانبي باحثة عن طرائق السرد ومفاتيحه، وتنتبه زليخة إلى أنّ أبي أنهى ارتشاف قهوته وكأنّه يريد شيئًا آخر، تُسرع في نزول الدرج وتقترب منه، تمسك بيده وتنهضه، أبي يقف فأرى قامته المحنية أوّل مرّة. فوجئتُ بحركته البطيئة وظهره المُقَوّس من أعلى قليلًا وضَعْفِهِ الذي لم ألحظه من قبل كأنّه هَرِمَ دفعة واحدة أو اقترب من الموت أكثر ممّا كنت أظنّ أو تظنّ أمي، دخل الإصطبل وبعد قليل خرج ومضى إلى غرفة جدّتي، قالت لي عائشة أنّها سمعته يبكي منذ أيّام وكانت شهقاته المتقطّعة خفيضة وتُنذِر بأنّ شيئًا ما سيحدث، وأنّه ليس بالصورة التي نراها.

فسحة الدار أمامي تُطبق عليّ، لا أريد تصديق أنّ كلّ شيء مضى. وقع حوافر الأحصنة ورائحة البغال، وهي عائدة من حرث الحقول، صوت أبي

المجلجل، الضاحك حين يعود من راجو، بغلاه المحمّلان بالفحم، جلاله حين تأتي أمي كي تأخذ رسَني البغلين وتُحضّر له الماءَ الساخنَ كي يستحمّ، خوفها أن تأتي بحركة لا تعجبه لئلّا يُحيلها بنظراته إلى كائن ذائب من الخوف، ثمّ ضحكاته المنبعثة من غرفة جدّتي وهو يُحَدّثُها بصوته العالي عن رحلته وعن تجارته المزدهرة، والتي لا يرغب في توسيعها أكثر كي لا يصطدم بقطّاع الطرق أكثر والمتنفّذين في عفرين وجبل الأكراد، تبتسم جدّتي فيرنّ صوتها قويًّا، واضحًا من دون اهتزاز، ثمّ الرجال في الغرفة الغربية ورائحة الشاي والتبغ ونسمات الليل الندي. صوت أبي وهو يتكلّم، والرجال يوافقونه على كلّ ما يقول. لا أريد تصديق أنّ الغبار قد غطّى كلّ شيء، ألوذ بأثواب أمي وهي تتحسّرُ على تلك الأيّام وتشكو الهجرانَ متشوّقة عطشة إلى العزّ الذي كانت تشعر به يُهيمِن على المكان، ولذّة العيش مع رجل قوي تنتظر الذوبان بين يديه، كان لا ينتظر أن يضمّه الفراش النظيف والعابق برائحة الغار حتى يأخذها في حضنه العاري على العتبة بينما تفوح من جسمه رائحة الماء الساخن والجنس.

على عتبة غرفة جدّتي، كان أبي جالسًا محدّقًا في الزاوية، سأل جدّتي ألم يحن موعد زرع الشواهد؟! أطرقت رأسها في الأرض كأنّها حزينة أكثر من أيّ وقت مضى، جدّتي بأذيالها، بثيابها، بجلالها، تجعل التنبّؤ تفاهة والحقائق أوهامًا كبيرة، يتابع حديثه عن الملل بصوت مُتَرَاخٍ ويتكلّم عن المواسم المقبلة من دون الإشارة إلى أيّ رغبة محدّدة، يتكلّم فحسب، لاحظتُ أنّ صوته مشدود أكثر، وهي تتابع صمتها. رفعت رأسها عن البساط المتشابك الألوان وقالت أنّ زرع الشواهد لم يحن بعد، انتبهت إلى وجودي واقفًا في الباب أخاف الدخول، أحسست بأنّ هذه اللحظات لا تخصّني، انسحبتُ وعدت إلى أرض الحوش الواسع، ما زالت عائشة تدخّن، تستهتر بالمكان، بأمي، بأبي، بجدّتي، بذكورتي وتدخّن، أخرج إلى العنّابية أبحث عن أنفاس ضلّت طريقها، العنّابيون يسترخون أمام أبواب منازلهم، النساء يثرثرن، والرجال ينظرون في الفراغ أو يتحدّثون بكلمات مُكرّرة منذ الأزل، كأنّ المكان مذ خلق والعنّابيون يتقمّصون أرواح أجدادهم ويُعيدون أدوارهم على المسرح. الماكياج نفسه، الوجوه نفسها، الحوار نفسه، الخشبة نفسها والزمن متوقّف على تلك البوّابة التي لا ترغب في الإجابة عن أيّ سؤال، طعم الحموضة أحِسّه تحت لساني، يذوب في فمي، أريد أن أبصقه، فلا أستطيع. المرارة تُغلّف الوجوه، الاستكانة، الرضا الباهت، أحمد الجمل في كهفه يحدّق في لوحته وينهض مرّة أخرى كي يُعيد محوَهَا. يقول لي أنّ وجه الله يشوبه الغموض ولا يستطيع تبيان ملامحه وسط الضباب الذي سار وسطه أمس حين غادر إلى مدن لا يعرفها. دخل أديرة ووقف أمام أبواب جوامع، تأمّل الزخارف والألوان المتداخلة، الزجاج المعشّق والبسط الممدودة، تأمّل سبحات المشايخ ووجوه المصلّين وثياب الإمام البيضاء حين صعد المنبر وبدأ يَعِظُ الناس المطأطأة رؤوسهم كأنّهم مُقَادون

إلى غرفة الإعدام، ضاع في مفاتيح المعابد وجال في الرمال ولم يستطع تبيان الملامح، استرخى أحمد وهو يحدّثُني عن ماهية الأزرق حين يتداخل مع الأصفر، وأسهب حتى كأنّي ما عدتُ أسمعه وهو يُردّد كلمات موت وحلم، وكنوز مفقودة، قال لي أنّه سيهجر العنّابية قريبًا. ولا يعرف إلى أين يريد ترك هذا المكان، هكذا أحمد أبدًا يحلم بأمكنة بعيدة وبألوان غير موجودة، وبانتظار دائم. الكتاب الفرنسي المرمي على الطاولة منذ زمن بعيد غطّاه الغبار وما زال مفتوحًا على الصفحة نفسها منذ أكثر من ثلاثة أشهر، قال لي أنّه مَلّ محادثة نفسه، يريد أحدًا يُحدّثه، امرأة تدخل فترتّب له المكان ويتيهان معًا في الشوارع الخلفية لمدن بعيدة، غامضة، مفاجئة، يرسم التفاصيل كأنّها الآن ستدخل وتخطفه عابرة البوّابات وطائرة فوق الدروب، ينتظر شيئًا ما، ولا يُفصح عنه، يتكلّم عن الأشياء كلّها دفعة واحدة حتى أظنّ دومًا أنّ كلماته مفكّكة وغير قابلة للترابط أو التوازن، يعود مرّة أخرى للوحته، وتحفّ به رائحة التبغ.

المساء في العنّابية الآن أكثر برودةً، يُبشّر بشتاءٍ قاسٍ، يحتاط له البشر بتكسير الحطب وتنظيف المدافئ وروث الأغنام والأبقارِ القليلة، يحتاطون بالمعاطف القديمة، تُخرِجها النساء من الصناديق، يغسلنها من روائح النفتلين والعثّ والعفن، ويُعلّقنها على المشاجب. الرجال يخزّنون التبغ والثرثرة ويتحايلون على الملل والتثاؤب، جدّتي تفتح باب غرفتها وتنتظر المطر لتُحادثه هو الذي يحمل لها أخبار البعيدين وتُحمّله الأشواق والوصايا، تنتعش حين يصخب المطر، وتعود لرسائلها المدسوسة في القوارير الزجاجية المحكمة الإغلاق بانتظار من يحملها للبحر. يقول هادي أنّه تلقى رسالة منها حين كان على شاطئ الإسكندرية تأمره فيها بالعودة فورًا، ويُخبرني بأنّه تلكّأ قليلًا، لكنّه عاد بعد ذلك واعتذر عن التأخير وهي طبطبت على رأسه وأغلقت الباب كي يتحادثا على انفراد وتسمع منه الحكاية كلّها.

لا يتركني هادي العنّابي، يلاحقني ظلّه، يغيب قليلًا ويعود متربّعًا في أحلامي وجهًا نضرًا ويدين نظيفتين وذقنًا حليقة دومًا، عكس العنّابيين الذين يُغَطّي الغبار وجوههم، يقول لي إن أنهيتُ رَسْمَ الخريطة فسأغيب إلى الأبد وأتركك لمصيرك. قلت له أنّه يتلبّسني ولا يتركني، وطلبت منه الابتعاد منّي كي أكون محايدًا في نظرتي إلى المشهد وأضفت أنّني قادر على رسم وجه ماريا الحلو، إلّا أنّه لم يأبه بكلّ هذه الكلمات وقال لي: أعد رسم الخطوط البيانية من جديد.

أيّ عبثٍ هذا أن تُعيد رسم خطوط رسمتها مرّة ثالثة ورابعة وألفًا، فيقول لي أنّ الخطوط التي أرسمها تُمْحى بسرعة وتعود الأوراق التي بيده إلى بياضها الأوّل وعتمتها، فيقول لي اصبر، فالصبر هو الطريق إلى جوهر الحكاية، أتحاشى أن أُغضِب هادي فيغيب ولا يصل إلى الأوراق المدوّنة والحقائق التي لا تكتمل الحكاية من دونها، فأغدو باحثًا طوال عمري عن خطوط باهتة لأمكنة

مندثرة وتاريخ ممحوّ، يقول لي ارسم. المركز م، وارسم محور السينات ومحور العينات، أرسم ما يطلبه منّي بصمت واستهتار يلحظه فيحجم عن متابعة كلامه ويهمّ بتركي وتوديعي. أرتبك وتتلعثم الكلمات فتخرج باردة، متقطّعة، معتذّرة، يقول لي إن وجدتَ الكنز فلك الحقّ في توزيعه كيفما شئتَ ولك الحقّ في بناء العتّابية مرّة أخرى كما تريد وستصبح ملكًا من دون أن يدري أحد أو بإمكانك إعادة الملك المخلوع إلى عرشه، ويقول لي في الكنز خاتم الملك وعصا الخليفة التي كان عبد الملك بن مروان ينتظرها بعدما أَمَرَ صُنّاعَ سمرقند بصنعها وكلّفت أموالًا طائلة تلك التحفة المشغولة بعناية فائقة موشّاة بخيوط الذهب وعبارات التبجيل لسلالة بني أميّة والتغنّي بمحاسن دمشق، وقال لي أنّ عبد الملك بن مروان أصابه غَمّ شديد حين علم بفقدانها، أستمع إلى هادي وأتيه في المكان الذي بدا لي غير الذي أعرفه، يجذبني من يدي ويُخرِجني من نطاق الجاذبية فأشعر بأنّني قادر على الطيران والتحليق فوق المدن والبيوت وقادر على رؤية الأشياء من خلف الجدران، قادر على رؤية عائشة وهي تتمدّد في فراشها ونصفها السفلي عارٍ وبأصابعها الخمس تُشكّل ما يستبيح عذريّتها فتتبلّل وتمتلئ مسامّها باللذّة، تتلوّى في الفراش الدافئ، تحلم وتتعرّق وتنام مُنهكة، زليخة على الفراش المقابل تستمع إلى زفراتها وتكتشف أيضًا أنّها بحاجة إلى من يُسكت صراخ جسدها المُتفتّق للتوّ، فيبعث بالزغب النابت على ضفّتي المشفرين وتهدل في سمائها الذكورة، ما لم تقله لي أنّها بدأت تترطّب وترمي خرقها الملوّثة بدماء الدورة الشهرية مع خرق عائشة أو تغسلها سرًّا، وأنّها أيضًا تُكابر كي لا تعوي كعائشة التي لا تخاف أن تفضح رغباتها العارمة برجل يفضّ أنوثتها ويبعثرها فينعشها، أتابع الطيران فوق البيوت وأرى أحمد وهو يخلع حذاءه على عتبة الغرفة وفطّوم تنهض من فراشها تقول له تأخّرت، ولا تنتظر طويلًا، لا تنتظر كلماته وأعذاره، فتحتضنه وتقوده إلى فراشها النظيف، تُعرّيه وتُمدّده. ثوبها الشفّاف يكشف تكويرة كتفيها وصدرها، فيلمع نهداها الطافحان بسمرتهما وصلابتهما الملتحمة مع السوتيان الشفّاف، أحمد يتشمّم عطورها. عاريًا تتدلّى زوائده، وتتحفّز يداه، يحتضنها، يقبّل شفتيها، ويذهبان في اللذّة والهنهنة، يتشمّم مسامّها ويتشبّع بأنينها حين يُعَرّي جزءها الأعلى ويدعك نهديها بين كفّيه فتصرخ مكتومة من اللذّة، تُعطيه حلمة نهدها الأيسر وتتصاعد فيه، تريد اختراقه برجليها الملتفّتين حول حوضه، أحمد يُقَبّلها من كلّ الأطراف ويُمسك بحافظ أسرارها كأنّه يمزّقه ويتداخلان، تصرخ، تتعرّق، تتلوّى وهو يغيب في النشوة وهي تتمتم كلمات غامضة غير مفهومة لا أسمعها وأنا مُحلّق فوق سمائهما.

أطير أو كأنّي طرت ورأيت خالي وقد أصبح مهرجان ألوان، يقول لي هادي ستطير يومًا ما، استمع الآن، أعود من غيبوبتي اللذيذة وأكتشف كم هو ممتع أن تطير وتدخل من كلّ الجدران والنوافذ والأبواب المغلقة وتُعيد كتابة التاريخ محافظًا على حرارة الأنفاس وقساوة الحقيقة، يقول لي هادي لا تَعُدْ إلى

شرودك وإلّا تركتُك وعدت، عليه إكمال رسم الخريطة. ارسم خطّا مائلًا من بداية س إلى نهاية ع، وقِسْ لي المسافة، أريد التأكّد من أنّ الكنز لم يخرج عن نطاق حدود العنّابية والسيل لم يجرفه أبعد من الوادي، أخبر هادي بأنّ المسافة التي يتكلّم عنها هي سفح الوادي. فيقول لي بصوت عالٍ: عظيم، الآن بدأنا نصل، الذهب في سفح الوادي ولم يذهب بعيدًا، ارسم لي مخطّطًا لسفح الوادي من شمال العنّابية إلى جنوبها. أقول له دعنا من الرسم الآن. أريد أن أسألك ماذا أحضرتَ معك من القاهرة؟! ولماذا لم تأتِ حين التقطتَ رسالة جدّتي من على شاطئ الإسكندرية؟! هادي يغمغم إلّا أنّني أرجوه أن يحكي لي شيئًا عن ماريا، فيسترخي وأسمع كلماته حنونًا حين يقول القاهرة. القاهرة. القاهرة. آه يا جرجس أين أنت الآن؟! ماريا وجه حلو أبيض، مستدير، طيّب، وقامة رشيقة، يلفّها ثوب أسود طويل ويصعد حتى الرقبة حيث قبّة البياض، كانت تقف في الصفّ الثاني دومًا مع طفل في العاشرة من عمره تقريبًا. وكنت أقف قريبًا منها، أختلس النظر إليها شاردًا عن كلمات جرجس وهو يردّد أبانا الذي في السموات أقيس قامتها وبياض بشرتها الهادئة، تلاقت عيوننا أكثر من مرّة، كلّ أحد كنت أنتظرها، لم أقل لجرجس أنّني أحبّ صلاة الأحد، وأنا أعرف القاهرة الآن شبرًا شبرًا، جلتُ في أزقّتها، في حواريها، دخلت جوامعها وجالست رجال الدين المهفهفين بالأبيض ولكنّني كنت أبحث عن ماريا التي اقتربتُ منها مرّة بعد أن وقفتُ قريبًا منها، وبعد القُدّاس عرّفتها بنفسي، فقالت أهلًا ثمّ أتتني بطقم جديد وقالت لأنّني غريب هنا تجب مساعدتي، وبعد ذلك رافقتها في صمت من الكنيسة بعد الصلاة، لم أَسِرْ معها، إنّما تركت مسافة بيني وبينها، كانت تحثّ الخُطَى وتنظر إليّ مبتسمة، طفلها الذي ما زال معلّقًا بيدها كان يطير في الهواء ويقفز فتنهره ألّا يُوسّخ ثيابه النظيفة، وصلتْ إلى باب دار خشبي عتيق، وتركته وراءها مفتوحًا، ثمّ وقفت في الباب وقالت لي تفضّل، وأشارت إلى غرفة جانبية دخلتها وتشمّمت رائحة النظافة، أبهجتني ألوان الأرائك المائلة إلى البرتقالي، في صدر الغرفة أريكة طويلة وفوقها على الحائط صورة للعذراء وأيقونة، الجدران بيضاء كلسية والبساط الممدود على الأرض كأنّه خارج للتوّ من المغسلة، تلتمع ألوانه وخيوطه، كلّ شيء يلتمع، ويدا ماريا التي دخلت تحمل صينيّة مفضّضة عليها فنجانا قهوة صبّتهما ورأيت عنقها وهي تميل على الصينيّة مرحّبةً بكلمات مقتضبة وتتمعّن في وجهي المرتبك، قالت أنّها تعيش مع ولدها بعدما توفّي زوجها منذ ثلاث سنوات، وأهل زوجها يقيمون في الدار الكبيرة المجاورة وأنّه ترك لها متجرًا صغيرًا تُؤَجّره وتصرف على ولدها ونفسها منه، سألتني عن الشام وأهلي، ارتبكتُ وأخبرتها بأشياء كثيرة لا أدري ما إذا كانت عن الشام أم عن مالطة، عن العنّابية أم عن روما، إلّا أنّني كنتُ أروي لها الكثير من الطرائف، حين غادرتها نهضت لوداعي وقالت تستطيع زيارتي نهارًا، ومدّت يدها التي أحببتُ الاحتفاظ بها بين أصابعي طويلًا، إلّا أنّها سحبتها وأطرقت رأسها غير أنّني رأيتُ

ابتسامتها. ماريا. ماريا. أصبحت أردّد اسمَهَا ويرتسم خيالها الهادئ أمامي، جرجس قال لي إن كنتَ ستغادر فإنّي أستطيع تأمينك مع قافلة ذاهبة إلى القدس، قلت له أنا سعيد هنا وشككتُ في أنّه يعرف كلّ شيء عن سرّ سعادتي بعدما أخبرته أنّني اشتقتُ للعنّابية، لحجارتها، لغبارها، ولكلّ شيء، ضحك جرجس بطيبة وقال ليكن الربّ معك، وتركني كي أتناول فطوري ثمّ أذهب لمتابعة دروس اللاتينية التي لم أعد أفهم الكثير من مبادئها وكان جرجس مُصِرًّا على أن أتعلّمها لأنّ الكثير من الوثائق مكتوبة بهذه اللغة ويجب أن أقرأها بنفسي إن كنت أريد فهم تاريخ العنّابية والعالم، وكنت أعِدُه بدراستها حتمًا، وتكثيف جهودي، إلّا أنّ الدرب إلى بيت ماريا كان بهجتي، أقطِف وردًا من فناءِ الكنيسة وأُخفِيه تحت الجاكيت، أُرتّبه، ثمّ أنتظر الوصول إليها كلّ عصر، أَلِفَت زيارتي وقالت لي إن غِبتَ أشتاقك، تفرح بالورود وتبتسم، ثمّ تأتي بقهوتها، تحدّثني وأسمعها، تتساقط الكلمات من شفتيها كعسل ألتقطه، يغمرني هدوء داخلي وسلام كبير، أوّل المساء يجب أن أغادر وأترك ماريا وحيدة مع ولدها لكنّني عدت إليها ليلًا.

ذات ليل، لم أستطع فراقها، طفتُ الشوارع وفي غرفتي لم أستطع النوم، أخرجتُ الإنجيل ولم أستطع تركيز قراءتي، كانت تقفز بين الأسطر، وجهها يرتسم مع وجه العذراء والمسيح. لبستُ ثيابي وخرجت إلى الشارع. كلّ شيء موحش، القاهرة نائمة، كانت الساعة تشير إلى العاشرة ليلًا تقريبًا، والصمت ورائحة الحجر العتيق في كلّ مكان، وصلت إلى مفرق دارها وقلبي صعد بعنف وخوف، خِفتُ أن ترفضني وتحرمني لقاءها، أن أُسبّب لها أيّ مشكل مع ولدها، مع أهل زوجها أو مع سكّان الحيّ. كنت أتمنّى لو أطير، أحَلّق فوق البيوت وأقرع نافذتها ثمّ أتسلّل إلى حضنها، وصلتُ إلى الباب وقرعته خفيفًا وانتظرت، قرعتُ مرّة أخرى وكنتُ أتلفّتُ خائفًا، خجلًا، سمعتُ وقع خطواتها على الأرض وصوتها يسأل عن الطارق، سمعتُ صوتي وهو يتنحنح، فتحتِ الباب وكان الظلام يُغلّف كلّ شيء. رأيت بريق عينيها، وأطرقت رأسي خجلًا، سمعتُ كلمة تفصّل تهمس بها همسًا، أخذتني من يدي بعدما أغلقت الباب الخارجي. في ظلام الغرفة احتضنتها وقبّلت شفتيها، خدّيها، عنقها، وقبّلت يديها قبلة طويلة، أجلستني على الأريكة وقالت سأعود انتظرني، كنت أنتظر ربّتي، رأيت وجه العذراء في بصيص الضوء الذي أشعلته ماريا، فرسمتُ علامة الصليب وصلّيتُ لها كأنّي رأيتها مبتسمة وقلت باركينا يا أمنا. عادت ماريا، فرشت الأرض، شمَمتُ رائحة طيّبة حين مدّتِ الشرشفَ الأبيضَ ووضعت مِخدّة مُطرّزة وقالت سأعود، خطفت قبلة منّي، وقالت بعد أن ينام الولد. كلّ لحظة بقرن، فاحسب كم قرنًا انتظرتُ، تلهّفت في الظلام وانتابني الحنين إليها، كدت أفقدُ طاقتي على الانتظار، لملمتُ شهقاتِها، عطرَها، ملامسها فوق الأرائك، رأيتُ الورد الذي حملته لها، مركونًا على طاولة صغيرة، فرفطته وملأت كفّي بتويجاته. آه ما أصعب الانتظار! ما أطول تلك اللحظات!

كان وجه هادي يُشِعّ، يكتسب نضارة لم ألحظها، ملامحه طفحت بشرًا وضوءًا واكتسى صوته رِقّة، كأنّني لا أعرفه، أو كأنّه وُلِدَ من جديد، كأنّه ذاهبٌ الآن للقاء ماريا، مرّة أخرى تناسى وجودي تمامًا وغاب في نشوة الانتظار الذي طال كما قال، ثمّ سَمِعَ أُكرةَ البابِ تُفتَحُ وماريا تدخل بثوب أبيض شَفّاف، شعرها مفرود على كتفيها، وقفتْ على العتبة ونهضتُ عن الأريكة. الآن ملكتي، ربّتي تدخل، ويجب أن أُقَدّمَ لها فروض الولاء والطاعة، اجتزتُ الغرفة وعند العتبة قَبّلتُ يديها فَشَمَمْتُ رائحةَ الورد، كانت رائحة عطرها تفوح منها، تلفّني وتطويني، تتركني فوق أرض الشام في تلك الجنائن، أو تُخرجني الآن من نوافير روما طفلًا اغتسل للتوّ بصرخة الحياة الأولى، حملتها بين ذراعيّ وأشارت لي ألّا أُصدِر صوتًا، هززتُ رأسي ومدّدتها على الفراش، كلّ شيء خلق من جديد، الله والأديان والبحار، الحدائق والمدن والروائح، قبّلت قدميها وتشمّمت رائحة النظافة، أنثى بأريجها تُشكّل رجلًا، جذبتني نحوها وتهتُ في رقّتها، ماريا خلقتني من جديد. دقّت أجراس الكنائسُ من جديد، قام يسوع وباركنا، رأيتُ وجهَ النبي غامضًا، ماريا فتحت قلبي، نظّفته، قذفت بكلّ الأسماك الميتة، والحيتان النافقة على الشاطئ، أحالت كياني إلى شتلة ورد، كنت أتمايل بين يديها وبودّي لو تتشكّل البراري مرّة أخرى كي نركض فيها حافيين، تجرح قدميها كي ألعقهما بلساني وأغسلهما بزيت الزيتون ثمّ أضمّدهما بأوراق الورد، حملتُ لها كلّ وردِ الكنيسة، عدتُ طفلًا من جديدٍ، يخرقُ القوانين ويتجاوز المحرّمات ويُعيد اكتشاف المدن باحثًا عن الأريج، يا لجسدها الرائع! نهداها الهادئان. جسمها الأبيض. ورائحة شعرها حين أدفن وجهي في أدغاله، كانت ماريا كأنّها تصلّي أو تبتهل في الفجر. قلت لها أحبّك وسنتزوّج، أنتِ أرض عطشى وأنا شجر مُتيبّس يا ماريا، في ذلك الفجر صلّيتُ في جامع الأزهر وكانت روحي متناثرة، محلّقة فوق المآذن، عدت إلى غرفتي فإذا جرجس ينتظرني، دعاني إلى القهوة وقال لي خرجتَ باكرًا هذا الصباح، جرجس بلطفه يأسرك، قلتُ له لقد صلّيت الفجر في الأزهر فربّت كتفي ونهض ليتفقّد الكنيسة كعادته كلّ صباح، لم أشعر بنعاس، بقيتُ ساهرًا منتظرًا ماريا والليل. ليل القاهرة التي أصبحت مدينتي، منحتني ماريا إيّاها هكذا فجأة، ما عدتُ أُحِسّ بغربتي ولا بضيق ولا بشوق. صارت ماريا وطني، أسرني ذلك الباب الخشبي وهو يُفتَحُ وتلك اليد البيضاء التي تمتدّ كي تُمسِك أصابعي وتأخذني إلى الغرفة، قلت لجرجس أنا أحبّ ماريا، فقال أعرف وبارك هذا الحبّ، يا لجرجس! يا للوجه الطافح خيرًا! كأنّه سار في درب القدس مع المسيح وعاد مع الأنبياء بعد أن أبحر في كلّ البحار واحتمل الآلام، درب مَشَاهُ وحده فبقي وحده حافظ الأسرار، قلت لماريا أنا مُسلم واسمي هادي العنّابي لا ميخائيل وأنا هنا عابر طريق قادته الأقدار والمصادفات كي أكون مؤتمنًا على سرّ من أسرار العنّابية يجب أن يُحمّلني جرجس إيّاه، وأضفت أنّني أحبّها وأحبّ أظافرها ورائحة شعرها ووقعَ الهواء على صفحة وجهها، قلت لها أنت يا

ماريا مدينتي، وسنتزوّج، بكت بحرقة واحتضنتني ولم تفُه بكلمة، ودفنت وجهها في صدري أمسكت وجهي بين يديها وقبّلتني ولم أسمع صوتها.

في اليوم التالي، قال لي جرجس أنّ ماريا سافرت إلى الإسكندريّة وتركت لي شيئًا مغلّفًا، أعطاني إيّاه وصعد إلى غرفته قال أنّه سيرتاح قليلًا، وأنّ عليّ أن أحضّر نفسي لدرس اللغة اللاتينية، لم أسمع الكلمات ولا أريد سماع تلك الحقيقة، صعدت إلى غرفتي وأغلقت الباب ورائي. كان وجهها مرسومًا على الحائط، فوق السرير والطاولة، فضضت المغلف الليّن السميك، كان وجه المخدّة المطرّز، المخدّة نفسها التي امتزجت أنفاسنا عليها، قماش أبيض ناصع مطرّز وعليه كلمة (ماريا – القاهرة)، يا للقاهرة! ضعت في أزقّتها ليلًا، لم أعد أستطيع النوم. كلّ يوم أصل إلى ذلك الباب الخشبي وأبحث عن وجهها الحلو بين وجوه المصلّين، قلتُ لإمام الأزهر سأتزوّج ماريا، ضحك وقال على بركة الله يا ولدي، العشق عبادة. كأنّه كان يعرف كلّ شيء فرأف بحالي وأحبّ مسايرتي، وجرجس قال لي في ما بعد أنّ ماريا لم ترفض الزواج بي لأنّني مسلم بل لأنّها لا تستطيع ترك القاهرة، وأنا لا أستطيع ترك العنّابية، كم كرهت الأمكنة!... وأحببت ذلك المجلّد الذي أعطاني إيّاه جرجس وأخبرني بأنّه نصوص لاتينية تحكي عن الشام والعنّابية وحلب وبيروت وتسجّل الكثير ممّا لم تقله الكتب الرسمية، وشرح لي أنّها أكبر أمانة الآن بين يديّ ويجب أن تصل، استأذنته في وداع ماريا، أعطاني عنوانها في الإسكندرية ونقودًا، وقال أنّه ينتظرني، من بحر الإسكندريّة التقطت رسائل أم مسعود، وقلت لماريا وهي تسير إلى جانبي على الشاطئ أنّنا يجب أن نتزوّج وعليها أن ترحل معي، لم تتكلّم ماريا، لوّحت لي فحسب من رصيف الميناء والمركب يغادر، حملتِ المنديل الذي تركته لها، تشمّمته وأدارت ظهرها لتغيب عنّي وسط الزحام، كانت رسالة أم مسعود السادسة كما هو مدوّن على صفحتها الأولى، قلت لها في ما بعد أنّني لم ألتقط الرسائل الخمس، لكنّني كنت أحس بوجودها، قلت لها أنّ الأوراق بين يديّ الآن... وأخبرتها عن ماريا، فضحكت وقالت كان يجب أن تأتي معك. لم أعرف ما حصل لهادي، وهو يراني صامتًا قربه ألتقط حروفه وأشكّلها كلمات، فجأة عاد إليه طبعه الشرس وقال لي ضاع كلّ شيء، لقد ضاع كلّ شيء، وكلّ كتب العالم لن تسعفني، ثمّ نهض فجأة وقال ابتعد منّي الآن فقد مللتُ، وسمعته يردّد: ضاع كلّ شيء، ويمضي، كانت ماريا قربه امرأةً تُصلّي للنجوم وتمحو خطواته، لم تسعفني الكلمات لأناديه كيلا يتركني لحيرتي مرّة أخرى، غاب عنّي هادي وبقيت النجوم في السماء ويد ماريا البيضاء تنهض كي تقطفها، أحسست بخواء رهيب وخوف من الضياع، من أن يتيه هادي عنّي ويتركني أتخبّط في الظلام باحثًا عن ذرّة ضوء واحدة في برّية مظلمة، بيوت غارقة في سباتها ومللها الأبدي أهالت التراب ذات يوم على صورة امرأة كانت بيد هادي وبعثرت أشياءه بعد أن قضم أعشاب البراري

وجال في البوادي المحيطة بالعنّابية باحثًا عن مركز الدائرة، لن تسعفني ذاكرتي كي أخطّ كلّ ما لا يُقال، ولن تلهمني هذه البيوت الدرب إلى الحقيقة.

العنّابيون ملوك التثاؤب والبعثرة، يبعثرون كلّ شيء، المفردات وتفاصيل حياتهم اليومية، كأنّهم لا ينتظرون شيئًا سوى الموت الذي تربطه بهم علاقة خاصّة، حميمة، يستهزئون به ولا يحسبون له حسابًا، وحين يأتي يقابلونه بالسخرية والضحك، كأنّي أرى الصباح، تباشيره وبرودته المنعشة. وكأنّ العبق الذي لفّني به حديث هادي قد ضاع كما ضاع كلّ شيء، سرت متثاقلًا في البرّية الشرقية وتذكّرتُ أنّ الملكَ المخلوعَ عنّابي أضاع أسراره وأبراج الممالك المشيّدة الآن، وأضاع نكهة الحكم وأسرته قنافذه وألوان القرباط فترك كلّ شيء كي يستمتع بالتبغ والغرابيل، عن أيّ عبقٍ أبحث؟ أيّ روح تهيم حولي ولا أستطيع التقاط أسرار تجوالها الدائم في فضاءات روحي المغلقة، ولا سرّ تناسلها في أجساد العنّابيين؟ أيّ غرفة ستنفتح أمام خطواتي؟ وأيّ قفل سيتحطّم في فراشي الممدود وسط الغرفة؟ تقلّبت وكدت أبكي. عَبَثٌ كلّ شيء. أريد أن أدع كلّ شيء وأقفز مع أبناء جيلي فوق السواقي، لنراقبَ نهود الصبايا ونبعثر كواديس العدس على الدروب، نُجاهِر بدفء مؤخّرات الأغنام ولذّة اصطياد العصافير والفضائح... أن أعود لألكم معلّم الرياضة بقبضتي ثمّ أُزجّ في السجن وأصبح بطلًا لم يسكت لأنّ رجلًا قال عن أمّهاتنا قحبات، وأنّ الصراخ هو من علامات حبّ الوطن والحكومة، والسير كالمومياءات والببّغاوات في المناسبات التي لا أعرف من أين خلقت، هو شرف لم يُمنح للأجيال الماضية، تقلّبت في فراشي وكدت أبكي، وضعت المخدّة فوق رأسي وحاولت أن استرخي، امتدّت يد إلى المخدّة نزعتها ومَسّدت شعري، وقالت لي: نم يا ولدي. رأيت العينين، كان وجه ماريا وهي على شاطئ بحر الإسكندريّة تلتقط رسائل أم مسعود وتدخل ملكوت الصمت والبحث عن روائح هادي على خشب الباب، وفي الفراش النظيف وفي الصفّ الثاني حين يصعد الأب جرجس كي يبدأ صلاته، ماريا تمسّد شعري وأرى ضحكتها، نم يا ولدي. وأنام، أنام. كأنّ دهورًا من النعاس تجمّدت على جفوني وبدأت تذوب كجليد وترطّب جسدي الذي تيبّس وغاب. في الصباح، توقظني زليخة، صوتها الحلو ووجهها المضيء، تقول لي الظهيرة اقتربت، أنهض ببطء وأسمع في أرض الحوش جلبة عائشة وهي تُفرغ الماء في البرميل الكبير، تقول لي ابن عمّي أحمد عندنا وقد وصل منذ قليل، تُشير بيدها إلى الغرفة العلويّة التي تنبعث منها قهقهات مختلطة، نحيب أمي التي قالت أنّ أبا الهايم قد يكون في خطر، وقد يقتله القرباط إن تمادى في عشقه لنشمة وأنّ ابنة الكلب هي التي تغنّجت عليه وأوقعته في حبائلها، دخلتُ الغرفة العلويّة فنهض ابن عمّي وقبّلني وقهقه، ثمّ التفت نحو أمي وقال في المساء سنتكلّم في موضوع أبي الهايم وسيعيده إلى العنّابية وإن آذاه القرباط فسيبيدهم وطلب منّي مرافقته إلى غرفة جِدّتي، أمي دعت له بطول البقاء وكفكفت دموعها.

تلكّأ ابن عمّي خلفي قليلًا وسمعته يصرخ على جدّتي التي رفعت عينيها إليّ ورأيت ابتسامة متآمرة اختفت فور دخوله وانكبابه على يديها ليقبّلهما، سحبت يديها، فاستغربتُ هذا الفتور الذي تبديه لحضوره رغم أنّه من أحفادها المقرّبين، ابن هلال الذي كانت تعتبره ابنها المفضّل، عمّي هلال الذي لا يعرف أحد حقيقةَ موته المبكر، ابن عمّي أحرجته نظراتي المتسائلة وظهرت أسنانه بضحكة صفراء، وقال أنّ الحجّة غاضبة، ولكن لا يهمّ سيُرضيها وسيفرش لها الأرض ذهبًا وسيُجلّل جدّنا عنّاب بأفخر أنواع المرمر حتى يعود مزاره إلى سابق عهده الوضّاء، جدّتي حرّكت يدها وتقاطرت كلماتها هادئة أوّل الأمر، ثمّ غاضبة وأنا ما عدتُ أسمع شيئًا كأنّ صَمَمًا أصابني، رأيت كلّ الأشياء أمامي، ولم أجد مفتاح ذلك القفل الرهيب الذي يُغلّف مواقف جدّتي ويجعلها لغزًا كبيرًا لا أصل إليه ويعيدني إلى نقطة البحث الأولى فأعود لأرى المسرح مقفرًا تمامًا، والستائر مُسدلة، كلّ شيء أسود، وجوه المشاهدين ممسوحة، الكراسي مخلوعة والإمبراطوريات مُنهارة خلف الستارة، كأنّي قرأت أنّ جدّتي قالت له أنت خرجت عن طاعة العنّابيين وقد خنتَ المواثيق، وأنت شخص غير مرغوب فيك وجرائمك لن تُغتَفر. عن أيّ جرائم تتكلّم؟ وما علاقته بكلّ هذ؟ا قيلَ أنّه هَجَرَ العنّابية وهو في السابعة عشرة من عمره، متقزّزًا من أسمال أهلها وضحكهم الدائم على كلّ المصائب، وأنّه تنكّر لأمه وذكرى عمّي هلال، العنّابيون تناسوا كلّ شيء كعادتهم ولم يأبهوا كثيرًا بأن يكون قد أصبح رجلًا مهمًّا في العاصمة أو في أيّ مكان آخر، ما يهمّهم الآن أنّه عاد إلى العنّابية وسيرحل بعد أيّام قليلة، وفهموا أنّهم سيصوّتون له في انتخابات البرلمان وأنّهم لن يذهبوا إلى المنطقة، لأنّ مركزًا انتخابيًّا سيُفتَح في العنّابية. وفي السهرة، كان المتصدّر في غرفتنا الغربية، تحدّث بصوتٍ رخيم عن أخبار الانتصارات وعن تأييد الجماهير للحكومة وعن فساد الحكومات السابقة، الإقطاعية والرأسمالية التي أرادت جعل البلاد خرابًا وركامًا تعبث فيها الغربان ويتسلّق سلالمها الانتهازيون، وشدّدَ كثيرًا على كلمة الانتهازيين التي كانت تجذب انتباه العنّابيين بوقعها الغريب على آذانهم، كانوا يظنّونها رتبة حكومية بدأوا يتداولونها مُتمنّين أن يصل أولادهم إليها، تكلّم ابن عمّي وأيّده مُرافِقه الناعم الذي كان يراقب من بعيد هذه المهزلة التي وضعه فيها معلّمه. كنت أراقبُ الأفواه التي تلوك الهواء والتبغ، وابن عمّي يتكلّم عن الحكومة والبرلمان ويقذف بالوعود المتتالية كنواة مشمش من دون أن يرفّ له جفن أو يصفرّ لون جلده، إنّه رجل قوي، قلت لأحمد الجمل لعلّه يستطيع إعادة أبي الهايم إلى العنّابية، فضحك وقال أنّ الحقائق الضائعة هي الوحيدة الجديرة بالبحث والتصديق، ثمّ تذكّرت أنّ ابن عمّي يردّد مفردات معلّم الرياضة ذاتها الذي جمعنا ذات مرّة، وقال لنا أنّ من ليس مع الحكومة فهو ضدّ الوطن وضدّ الأمّة وضدّ نفسه، ونحن تساءلنا عن معنى هذا الكلام، فقال لنا اخرسوا فخرسنا، ثمّ رأيناه وهو يزعق في وجه المدير الذي كان يُهدّئه ويشير بيده أن

يسمح له ليكمل كلامه، لم نعرف مناسبة لهذا الكلام إلّا حين صعد نجيب مصطفى إلى منصّة العلم ويد المعلّم ممسكة برقبته، وهو يرتجف كعصفور يُساق إلى الذبح، سألناه ما الأمر؟ لكنّه رفع سبّابته لنسكت فسكتنا وران صمت عميق، وصعد المعلّم مرّة أخرى، وقال أنّه سيحلق شعر الخائن نجيب مصطفى ويكتفي بفصله أسبوعًا من المدرسة وفي المرّة المقبلة سيسلّمه للأجهزة الأمنية للتحقيق في توجّهه غير المشروع، ويعتبر هذا إنذارًا موجّهًا للجميع، لم نعرف جريمة نجيب التي من أجلها تساقط شعره من رأسه وبدا لنا كالمجرمين الخارجين للتوّ من السجن، إلّا بعد أسبوع حين أسرّ لنا أنّه سخر من جماعة الأستاذ حين قال لها أنّ الأستاذ يشبه الخنزير، وهو يتكلّم ويهدر بالشعارات في الاجتماعات الصباحية كموتور، فكتبت تقارير تقول أنّ نجيب خائن للوطن والحكومة وأنّه عميل لجهات معارضة، استدعاه الأستاذ للتحقيق الذي استمرّ ساعتين، زعق خلالها الأستاذ في وجه نجيب، وقال أنّ كلّ سلالته خونة إلّا أنّه تذكّر أنّ قريبًا له ضابطٌ في الجيش ويشغل منصبًا حسّاسًا فهدأ الأستاذ قليلًا، وبعد تدخّل المدير ورجائه كي يعفو عنه هذه المرّة، هدأ الأستاذ وقال أنّه فتح له فيشًا، وسيبقى تحت المراقبة، ثمّ حذرنا نجيب من جماعة الأستاذ التي تستأثر بكلّ شيء في المدرسة، بالجوائز وكرات القدم وجميع المناصب في جميع اللجان، والتي ترفع تقارير عن الهواء وألوان ألبسة الطلّاب وشكل خطوطهم وما يحبّونه وما يكرهونه، وتصنّفهم ضمن قائمة أعداء موهومين أو حياديين أو خاملين غير نشيطين. عالم غريب رأينا تباشيره حين عاد نجيب وصمت، لم يعد يحتكّ بنا، أو يذهب لاصطياد السمك في النهر، والركض حول أسوار مدارس البنات، أو الفرجة على النساء في البازار ولكز مؤخّراتهن. آخر الليل قالت لي زليخة أنّ عائشة نثرت محتويات الحقيبة الحمراء وأخرجت ثوبين مقطّفين بالورود، أعطتني واحدًا واحتفظت بالثاني وفي قعر الحقيبة كانت صُرّة ورقية صغيرة لم تفتحها عائشة أمامي إلّا أنّني علمت أنّها ألبسة داخلية مثيرة بأشكال عجيبة، لبستها عائشة مساء اليوم التالي وانتظرت عودة ابن عمّي ومُرافِقه من السهرة في بيت عمّتي التي ذبحت ديكين أبيضين وأتت لاصطحاب الضيوف من بيتنا وأصرّت علي أن تأتي أمي معهما فنهضت متثاقلة تحت إلحاح ابن عمّي ومُرافِقه الذي بدأ يألف لهجة العنّابية الغريبة عن لهجة العاصمة، وحين عادوا سمعت جلبتهم ورأيت عائشة تدخّن في فراشها. تابعت نومي، وفي ما بعد تسلّلت خِلسةً وبهدوء إلى قبو المؤونة ولحق بها بعد دقائق شبح قدّرت في الظلام أنّه المُرافِق، كان كلّ مَن في البيت نيامًا، وقالت عائشة بعد أن رحلا في اليوم الثالث، أنّها تحبّه وأنّهما سيتزوّجان في الصيف المقبل بعد أن يشتري بيتًا في العاصمة، وأنّه يحبّها، وتكلّمت عن يديه الناعمتين وهما تفكّان السوتيان بحرفة أبناء العواصم ورقّتهم، ثمّ عن جسدها وهو يصطلي بنار الرغبة، وقالت لزليخة وهي تغمزها أنّه قبّلها بشغف، لكنّها لم تسمح له بالتمادي أكثر فلم تُعرّ جزءها السفلي بينما

تركت نهديها طليقين في فضاء القبو وهي تشجّعه بكلمات هامسة أن يكون حذرًا فلا يصدر أيّ صوت وهي تعض على شفتيها، امرأة مشغولة بيدي رجل وأسرار عميقة لا يصل إليها أحد، وشَتْ لي زليخة بأنّ عائشة بكت حين سافر، وأنّه ضغط على كفّها وهو يودّعها. ابن عمّي لم يستطع إقناع جدّتي في اليوم التالي بأن تفتح له الباب وقال أنّها ما زالت غاضبة وسيقبّل قدميها هذه المرّة حتى ترضى، أمي تعاطفت معه ومع رغباته الصادقة ووعدته بأن تُكلّم جدّتي التي قالت لي في الصباح عليّ أن أنهض لمناداة عائشة التي شاهدتها تحمل الماء إلى غرفة جدّتي، ثمّ سمعت طشيش الماء وكعادتها تمازحها وتغنّي لها فتضربها جدّتي وتبتسم، عائشة تُلبِس الجدّة وتقسم أنّها لم تر أصابع رجليها وأنّ غشاوة تصيبها حين تمعن النظر في ثنايا جسمها. أومأت لعائشة أن تُغلق الباب وراءها لأنّها لا تريد أن يزعجها أحد، وقالت عائشة لابن عمّي ألّا يحاول فهي تعرف معنى كلماتها، لا تريد أن تكلّم أحدًا، هي الآن مع روح عنّاب وهذه الحالة تصيبها كثيرًا هذه الأيّام، وابن عمّي سألها عمّا إذا كان الفستان قد أعجبها فشكرته، وطلبت منه أن يحضر معه زوجته في المرّة المقبلة وأن يبتني منزلًا في العنّابية، فقال أنّه سيفعل ولا بدّ بعد الانتخابات. ابن عمّي سأل عنّي فقالت أنّني مدلّل أم مسعود وأنّها لا تنام إلّا على يدي وأنّني الوريث الشرعي لكلّ الوصايا واسمي مكتوب في السجلّ السرّي للورثة الحقيقيين للعرش. ضحكت وهي تردّد كلمة العرش بسخرية، وابن عمّي ازداد فضولًا فتركته ومضت كي تخبر أبي بأنّ موعد حمّامه الأسبوعي غدًا، فابتسم لها وقال أنّ القَرّاد قد غزا صواوين آذان البغلين ولحظت عائشة شحوبه وضعفه فرَجته أن يخرج للشمس، وقالت لابن عمّي أن يحاول إقناعه بالذهاب إلى العاصمة، فصحّته ليست على ما يرام، لكنّ الوالد لوح بيده وقال أنّه في الربيع المقبل سيبذر أرضه، ثمّ سكت.

أيّ وريثٍ أنا؟ وريث الخراب والكلمات الممحوّة، قلت لأبي أنّ الدرب طويل فهزّ رأسه كأنّه فهمني ولمحت نظرة رجل قوي، أوّل مرّة منذ خمس سنوات أرى أبي ينظر إليّ كرجل، سألته عن هادي فقال أنّه ضاع وضيّعته العنّابية، ولم يلتفت إليّ بعد ذلك، عاد إلى بغليه وأغلق باب القبو تاركًا حيرتي وأسئلتي ترنّ فوق جدران ممالك منهارة، تفتّش عن مشروعية وعن سند، عن خرائط تاهت تحت أكوام تبن محروق، فغدت الذاكرة وكرًا للسحالي والثعابين ولمصران الخروف الذي جدّدت أمي تعليقه وجدّدت ذهابها إلى الشيخ في القرية المجاورة مع خالتي، وعادت فسفحت أربع طاسات ماء على بوّابة القبو، محاولة إقناع أبي بأن يرتشف كوبًا من الشاي كانت قد غلت فيه ورقة كتبها الشيخ، وطلب منها أنّ تغلي الشاي حتى تذوب الورقة بأكملها، فذابت الحروف، ثمّ تفكّكت الورقة وأمي تفاءلت بعد أن ارتشف أبي كوب الشاي وعاد إلى القبو، فأخرجت من صُرّة صغيرة مصران خروف معقودًا وعلّقته على بوّابة القبو من دون أن يراه، وتمتمت مع خالتي التي كانت تنتظرها في

الغرفة، ثمّ ذهبت إلى غرفة جدّتي وبكت ثمّ عادت إلى سيرتها القديمة بأنّ عينًا أصابته فأحالته هلامًا، الجميع لحظ أنّ أبي بدأ يَهِنُ، وسمعته من جديد يسأل جدّتي عمّا إذا كان موعد زرع الشواهد قد حان مبديًا تبرّمه من أنّ الوقت قد طال، وأمي تراقب من نافذتها كلّ صباح المصران المعلّق على بوّابة القبو وتتفرّس في وجه أبي الذي طلب منها أنّ تُسخّن له ماء ليستحمّ. أمي أغلقت الباب غير مصدّقة أنّه نَطَقَ أوامره بلهجة واثقة، فقامت كامرأة تستعيد تاريخًا قد سُفِحَ كسطل ماء على بلاط نظيف، وقامت فلملمته قطرة قطرة، وقعت في منتصف الغرفة، قرأت آية الكرسيّ ونذرت كبشًا للأولياء إن عاد أبي إلى عزّه، أخبرته بأنّ الماء قد سخن وأخرجت له ملابس بيضاء نظيفة معطّرة، وكانت عائشة وزليخة تتجسّسان على حركاتها المتلعثمة في ذلك المساء، أبي صعد الدرج وأغلق الباب وراءه وأمي أغلقت النوافذ، عائشة غمزت زليخة معلنة أنّ الأمور على ما يرام، وذهبت قفزًا لتخبر جدّتي بأنّ أبي عاد شابًّا، ضحكت جدّتي متآمرةً مع عائشة، وقالت لي زليخة أنّ طرطشة الماء في العتبة كانت تُبهِج عائشة كأنّها عروس في ليلة زفافها، وأنّ أمي خرجت في الصباح امرأة مختلفة، نضرة، واثقة، خجلة من تعليقات عائشة المُسرِفة في إباحيّتها، وأتت خالتي ظهرًا ورأت أبي قد زاد نحوله فطمأنتها أمي إلى أنّه استحمّ أمس ومدّدها على الفراش كما كان يفعل أيّام زمان، ووطأها فتندّت أمي، وعادت مرّة أخرى امرأة لا تجرؤ على مخالفته، لذا يجب أن تذهب إلى الشيخ وتأخذ له ديكًا روميًّا آخر، لأنّ السحر قد انفكّ عن أبي والشيطان غادره، أبي عاد إلى القبو يفتّش عن القرّاد في صواوين آذان بغليه، إلّا أنّه كرّر النوم في فراشها أكثر من مرّة والاستحمام بين يديها.

تفاءلتُ مع المتفائلين وقلت لأحمد الجمل والدي قد عاد عريسًا من جديد ويبدو أنّ عضوًا جديدًا انبثق في جسده بعد هذه السنوات، والأم مستبشرة خيرًا وأصبحت أكثر مرحًا ورغبة في الحياة. ذهبت إلى الشيخ برفقة خالتي، وحملت له سلّة بيض وديكًا روميًّا كبيرًا وقبّلت يده، وأخبرته عن نحوله الذي يزداد، فنصحها بأن تضع حجابًا أعطاها إيّاه تحت وسادته، فتفتح شهيّته على الأكل والعمل وتعود صحّته من جديد. استمرّ الأمر أكثر من شهرين، وأمي قبلت بالوضع الجديد وهي ليلة ينام معها كلّ فترة يثبت فيها أبي أنّه معافًى ولم يُصَب بالخبل أو العته، وحاولت إقناعه بالذهاب إلى الطبيب مع ابن عمّي الذي عاد لزيارتنا بعد شهرين مصطحبًا معه أوراقًا كثيرة أعطاها لابن عبيد الذي أصبح الناطق الرسمي باسمه، وأمره بتعليقها على جدران عفرين والقرى المجاورة بعد شهر من الآن، وسمّاها الحملة الانتخابية تاركًا له مبلغًا من المال ليصرفه على تلك الحملة التي ستكون بإشراف مُرافِقه حين يحين موعدها، ابن عبيد رمى تلك اللفّافات الورقية في الإصطبل، وابتهج بالنقود فاشترى بندقيّة ومنظارًا وخمس غنمات وفروة للشتاء، أبي أومأ بيده لأمي أن تسكت، فسكتت، وفشلت الجهود في إقناعه بالذهاب إلى العاصمة أو حتى

إحضار طبيب له إلى العنّابية. في تلك الأيّام رأيت بريقًا لا يخبو في عينيه، لاحظت حزنه وهو جالس يحادث جدّتي، غاب الاهتزاز من كلماته وسمعت جدّتي تتحدّث مُطرِقة رأسها في البساط المتشابك الألوان، أبي صعد إلى فراش أمي مرّة أخيرة، يومذاك نهنهت أمي حتى صلاة الفجر، ورجت أبي أن يتركها فقد تعبت، إلّا أنّه لم يتركها إلّا منهكة ومبلّلة بالعرقِ والمني وسوائلها، وبعد خمسة أيّام صعد إلى فراشه، وقال أنّه سيموت، بكت أمي، وصعدت جدّتي إلى الغرفة، وأتى العنّابيون لزيارته، فلم يعد يميّز أصواتهم، مازحهم واطمأنّ على مواسمهم وفي أواخر الليل دخل أبي في غيبوبة، وسمعت صراخ أمي وهي تنوح وتقصّ خصلات شعرها الذي رأيته أوّل مرّة طويلًا، مجدولًا، أسود، هُرعت أختاي من غرفتهما إلى أمي التي انهارت على الدرج، وتعالى صوت بكائها، وانفجرت زليخة كطوفان، وسمعتها تصرخ بأنّ أبي قد مات، جدّتي التي رافقت أمي في تتبّع أنفاسه الأخيرة نهضت ونزلت إلى أرض الحوش، وخرجت إلى دروب العنّابية، اصطحبت معها ثلاثة عنّابيين مع فؤوسهم ومعاولهم، وفي المقبرة أشارت إلى مكان قريبٍ من قبر عمّي هلال، قالت ازرعوا الشواهد هنا، بدأ الرجال الترحّم على أبي، العنّابية كلّها هرعت إلى حوشنا، صعد الرجال إلى الغرفة، حيث تمدّد أبي كأنّه شبح أو كومة عظام مكسوّة بجلد مهترئ، والنساء التففن حولنا وبدأن نحيبًا لا ينتهي، كأنّي كنت أنتظر هذه اللحظة أو أتوقّعها، لم أتفاجأ ولكن حين رأيتُ وجهه الذابل على المخدّة بكيت وشعرت بأنّ رحيل هذا الرجل خسارة فادحة، بكت العنّابية معنا، واهتم العنّابيون بأمر الجثّة، أحضروا التابوت الوحيد من الغرفة التي تُسمّى جامعًا، وقالوا إكرام الميت دفنه، لم ينتظروا أختي فاطمة حتى تأتي أو يذهب أحدٌ لإعلامها، أو انتظار عمّي ليحضر مع عائلته من العاصمة. اتّفقوا على الإسراع في الدفن وجدّتي حالما انتهت من تحضير القبر، وافقت على ذلك، وفتحت صندوقها العتيق الذي رأيته أوّل مرّة، فأثارني بألوانه الصدفية، أخرجت كفنًا وزجاجة عطر لم أتشمّم من قبل كعبق هذه الرائحة التي فاحت في أرض الحوش، أمرت الرجال بتجهيز الجثّة، وجلست أمام باب الحوش على كرسيّ واطئ قدّمته لها إحدى الصبايا، كلّ شيء كانت له رائحة مختلفة: الدموع، الثياب والغبار الذي عجّ وراء الرجال الذين فوجئت بعددهم القليل، وكانوا كلّ رجال العنّابية، تهادى التابوت على أكفّهم، والنساء في الخلف يندبن ويقلن كلامًا كبيرًا في صفاته، وهنّ ممسكات بأمي. كنت ضائعًا، أسير تارة في المقدّمة وأخرى في الوسط قريبًا من التابوت، أحاول أن أمسك بطرف التابوت، وتارة أبحث عن جدّتي التي وجدتها قرب الشاهد تنتظر وصوله، جدّتي لم تبكِ، إنما اكفهرّ وجهها، وحين أهال الرجال عليه التراب كانت تُردّد كلمات لم يسمعها أحد أو يفهم معناها، ثمّ حملت بكفّها قليلًا من التراب ونثرته على قبره، أمرت الرجال بتثبيت الشواهد وعادت وحيدة إلى غرفتها، الرجال عزّى بعضهم بعضًا، ثمّ أمسكني أحمد وسلمان وقف جانبي

كي أمدّ كفّي للرجال الذين تقاطروا للتعزية، ثمّ صرخ سلمان على البنات ألّا يبكين كثيرًا فَخَفتَ الصوت قليلًا، ورأيت أمي جالسة على الأرض، في الليل أتى عمّي وأولاده وزوجته وأحمد هلال ابن عمّي مع مُرافِقه قبل أن ينفضّ مجلس العزاء، عمّي بكى، وامرأة عمّي بكت، وأولاده قبّلوني ثمّ قبّلوا يد أمي وحكوا كلمات كثيرة بتأثر، وابن عمّي أصرّ على أن نكرّم المرحوم، جلس في صدر الغرفة كعادته، وتكلّم عن معاني الموت فوافق الرجال، ثمّ دعا الجميع إلى مولد يقام على روحه الطاهرة مساء الغد، ابن عمّي تكلّم، وعمّي وافق ثمّ أمي وافقت، وأنا تذكّرت جدّتي، هرعت إلى غرفتها كان الباب مغلقًا والضوء خافتًا، كان الوقت متأخّرًا وأصوات المعزّين ما زالت تتصاعد مع روائح تبغهم. فتحت جدّتي الباب وعادت إلى جلستها على قماشة سوداء متربّعة، أشارت لي بالسكوت. جلست قربها، ورأيت جلدها يتقصّف من على جسدها النحيل ويخرج من تحته جلد جديد، لا أعرف ما إذا كان ما رأيت حقيقة أم وهمًا! جلد جدّتي مُكوّم أمامها، متقصّف، أتت بزجاجة وأدخلته فيها، أغلقت الزجاجة ولفّتها بقماشة سوداء، ودهنت جلدها الجديد برائحة عطرة، أخافتني بحيث لم أعد أستطيع النوم، حدّقت في السقف ثمّ فيها، رأيتها منهمكة وهي تردّد كلمات لم أستطع الوصول إلى معناها، ثمّ سمعت صوت ابن عمّي يستأذن للسلام عليها، قالت له غدًا، الآن هي مشغولة ثمّ أتى عمّي، فصرفَته أيضًا، ولم تعد تردّ على أيّ طارق، ثمّ أغلقت الباب بالمزلاج. في الصباح، أتت فاطمة وعلي، علي جلس مع الرجال وفاطمة تابعت بكاءها الذي بدأته حين وصولها، هدأ كلّ شيء، ذهب الجميع إلى غرفة جدّتي، قَبّلُوا يدها وبكوا. أحمد الجمل اصطحبني إلى كهفه، وقال أنّ الموت هو العلامة الوحيدة التي تليق بالعنّابية، وأبي كان يعرف بموته منذ خمس سنوات حين أخبره الطبيب بأنّه مُصَاب بالسرطان، وأنّ الأمر قد يطول حتى خمس سنوات، استنفدها بكاملها في التأمّل وتجميع دروع السلاحف وتطبيب البغلين اللذين لم يتذكّرهما أحد حتى كادت تموت من العطش، قالت عائشة التي أحضرت الماء أنّ البغلين كانا يبكيان وصدّقها الجميع، وقال لي أحمد تستطيع التدخين، فدخّنتُ وتمدّدت على الأريكة، ثمّ رأيت ملامحه المَلُولَ وقلت له جدّتي خلعت جلدها، فضحك وقال كانت تعرف أنّه سيموت، وهي التي زرعت له الشواهد كي تنمو، زرعتها قرب قبر أخيه هلال، وسألني ماذا ستفعل الآن؟ فأنا سيّد المنزل كما قال ابن عمّي وعمّي، أمي لم تأبه كثيرًا بهذه التسمية فانشغلت بحديث دامع مع زوجة عمّي التي بدت أكثر نظافة وليونة في استعمال لهجتها العنّابية فكانت تربط إشاربها الذي يسحل عن رأسها، بعد أن قذفت بالغطاء المدقوق بالخرز وراحت تتحدّث عن أحوالهم في المدينة، وأنّ أولادها يعملون مع أحمد هلال وهو يجزيهم العطاء، وهي تعرف أنّ ما يفعلونه هو الأعمال الحرّة، وعمّي ناطور بناية. تابعت أمي الغرق في الرؤى التي حاصرتها كامرأة وحيدة، وأنا لا أستطيع أن أكون رجل هذا البيت، فهي لا تُعوّل على طبعي الهادئ والحالم بأيّ

شيء. كانت كلّما تذكّرت خالي أبا الهايم عاودت البكاء، سألت امرأة عمّي عمّا إذا كان قد زارهم في العاصمة، فنفت وتابعت أنّها سمعت قصّة رحيله وراء القرباطية وطمأنتها إلى عودته الأكيدة حين يسمع بموت أبي. الجميع أكل من الخروف الذي ذبحه ابن عمّي وطبخته امرأة عمّي وترحّموا على أبي وقالوا لابن عمّي، الذي كان يذكّر الجميع، مُرافِقه وأولاد عمّي، بأنّ الانتخابات قد اقتربت والقرى الأخرى سَتُصّوتُ له، ابن عبيد تذكّر الملصقات وقال أنّها بخير. كانت الغرفة مضاءة باللوكس والحاضرون مستمتعين بارتشاف الشاي والقهوة المرّة وبأحاديث ابن عمّي الذي كان يذكر المرحوم بين حين وآخر ويتابع الكلام عن مشروعاته، وعن بدايتها التي كانت صعبة هو الذي صَبَرَ فأعطاه الله، لم يسأله أحد عن عمله، وهو لم يتكلّم. في اليوم الثالث، بدأ أولاد عمّي يزورون العنّابيين ويطمئنّون على أحوالهم وامرأة عمّي تُبالِغ في نظافتها وفي قرفها وابتعادها من لهجة العنّابية، وذهب أولاد عمّي مع المُرافِق لقطف ما تبقّى من تين متأخّر مستمتعين بمنظر الحقول، وهم يستعرضون السيّارةَ اللامعةَ وينظرون بخيلاء إلى أنفسهم وهم ينزلون من الباب ثمّ يعيدون إغلاقه بقوّة مستمتعين بنظرات العنّابيين البليدة المراقبة، عمّي جالس جدّتي كثيرًا، حكى لها أنّ هواء العاصمة ثقيل، والازدحام شديد، وأنّه يريد العودة إلى العنّابية إلّا أنّ زوجته لا توافق، عمّي آخر السلالة الأكثر طيبة وضعفًا، الأمر الذي جعله لعبة بيد زوجته التي كانت لا تتوانى عن الجلوس في مجالس الرجال ولفّ التبغ معهم ومشاركتهم الرأي في كلّ شؤونهم الزراعية والتجارية والعائلية، وكانت لا تخاف إلّا من جدّتي، إذا أخطأتْ كانت تستدعيها وتُغلق الباب وراءهما، ولا يعلم أحد ما يجعلها امرأة تعترف بأخطائها وتعاود سيرتها، أخواتي هدَأنَ قليلًا واعتصمن في غرفتهنّ بعد موت أبي. عائشة منكسرة كأنّها ورثت البغلين ودروع السلاحف وكلّ شؤون أبي وبدا أنّ تفاهمًا خفيًّا كان قائمًا بين عائشة وبينها، والآن انقطع حبل المودّة مع الكائنات الأخرى، وقالت لي زليخة أنّ فاطمة وعائشة تحدّثتا عن جميع الشؤون وضحكتا في بعض الأوقات، ما جعل زليخة تنسحب من الجلسة وتعتبر الضحك وإن كان ابتسامًا في اليوم الثالث امتهانًا لروح أبي التي كانت زليخة تحاول ليلًا التقاطها حين تزورها، وأكّدت لي أنّ أبي سيذهب إلى الجنّة، فهو لم يُؤْذِ أحدًا، بدت مهمومة، بالغت في حزنها وأقسمت على ألّا تخلع ثوبها الأسود إلّا بعد سنة، وبدت لي ملامح طفولة في وجهها وهي تقسم وتغرق في بكاء مرٍّ، كانت الدمعات تتدحرج على خدّيها وتبلّل بشرتها فتبدو لي أجمل من ذي قبل. في الصباح، كانت عائلة عمّي قد تجهّزت للرحيل، عمّي قبّلني وبكى، وامرأة عمّي قبّلت أمي، وأخذت وعدًا منها أن تأتي لزيارتهم، أولاد عمّي افتعلوا الرجولة وقبّلوني، أخذوني بعيدًا من العائلة وقالوا كلامًا عن الموت والجنّة، والعمل الصالح، وشدّوا على يدي مرّة أخرى وركبوا السيّارة اللامعة التي ازدحمت بهم، والمُرافِق أشار لنا مودّعًا مع ابن عمّي الذي صرخ عليّ وقال دير بالك على أهلك فأنت رجل الدار. لا أعرف

المشاعر التي انتابني، وأنا أقول كالرجال نعم، نعم. نسيت أنّني منذور كي ألملم الحروف الضائعة وأرمّم الخراب، فتوهّمت في لحظات أنّني فعلًا سيّد المنزل والمسؤول عن نساء الحوش، ولكوني ذكرًا يجب أن أفتخر بذكورتي وأهيمِن بصوت غليظ ويد ثقيلة، السيّارة أثارت الغبار وراءها ولحَظتُ امرأة عمّي، وهي تغلق الباب، كم هي فخورة بأنّها تستمتع بنعمة المخمل، وأنّها تسافر من دون أن تسمع زعيق سائق السيّارة الوحيدة في العنّابية التي تذهب صباحًا، ولا يعرف أحد متى ستصل إلى المدينة وتعود مساءً، بعد أن يكون وجه السائق حمّود قد تلطّخ بالشحوم والزيوت والكفر بهذه الماكينة الجربانة! العنّابيون عادوا إلى عاداتهم في الثرثرة وتدخين التبغ، سرت إلى المقبرة، ووقفتُ قليلًا عند قبر أبي وهمستُ له بأنّه جدير بالحياة فلماذا رحل؟ وكأنّني سمعت ضحكته الهازئة وأنا أدخل كهف أحمد الذي بادرني فورًا إلى أنه سهر أمس مع أبي، وأنّه راضٍ عن تدويني الحكاية، وأضاف أنّ وجه الله كان في مخيّلته لكنّه ضاع، وهو يحاول الإمساك به لكنّه يفلت دومًا ويضيع، وقال لي انظر. كانت الألوان على اللوحة منثورة. برتقالي وأزرق، وفي الإطار العلوي اللون الأحمر معالج بالأخضر الكاشف، كلّ شيء ضائع على اللوحة، وفي ذهن أحمد الجمل الذي بدا لي أنّه هرم خلال أشهر قليلة، قال لي أنّ الموت هو الحقيقة الوحيدة، قلت له الحقيقة التي لا تُدَوّن، تابع وهو ينفث دخّان سيجارته بطريقته المعهودة أنّ الموت لا يحتاج إلى مَن يدوّنه، وأنّه سيهجر العنّابية قبل أن يَتكلّس، والخراب سيشمل العنّابية أيضًا، لن تبقى مساحة مفتوحة للمطر والقرباط والرذالات المحبّبة، وسيستمع إلى صوته الداخلي أخيرًا، يحمل كلّ شيء، رائحته وكتبه القليلة ولوحاته، ويهجر العنّابية إلى الأبد، سألني عن هادي وأحواله، فأخبرته بأنّ كلّ شيء كما كان، الحكاية لا تتقدّم، كلّ شيء ضائع، الخرائط والمفردات وأقلام الحبر والصفحات ولا أعرف من أين أبدأ التدوين أو ما أدوّن. هذا السكون، اللامبالاة، العجز، القوّة. الحبّ، الأجساد وهي تستمني رغباتها وتبحث عن موطئ قدم لها، طَمأنني بأنّني سأصل إلى بداية التدوين، وهو لا بدّ سيساهم في تلوين المَشهد. أحمد عاد إلى تدخينه وقال أنّ كلّ المتع فقدت بهجتها، فطُوم أصبحت مملّة... تحدّي الأب، البحث عن المعرفة. أحمد يُحدّق في السقف مستلقيًا على الأريكة يدخّن، وأنا جالس قبالته، أعرف أنّ كلّ شيء عابر وزائل، حتى هذه المتعة الوحيدة، الجلوس ورؤية المشهد مُلَوّنًا أمام عينيك. سأبقى وحيدًا، سيدعوني الرحيل ولا أعرف ما إذا كنت سأجرؤ على عبور درب الغياب وترك كلّ شيء وإعادة المفاتيح لأصحابها والانسحاب من فصول لا تُكتَب. الريح تمحو كلّ شيء، وأنا كطائر فوق الحقائق، فوق الرامات، فوق البيادر، فوق حموضة آباط العنّابيات وهُنّ عائدات من الحصاد، فوق تاريخ موهوم تكتبه جدّتي ولا تستطيع الإخبار به، تتركه بين يدي هادي العنّابي والملك المخلوع الراحل دومًا مع القرباط لا يستطيع العودة إلى ملكه ولا يستطيع الإفصاح عمّا لديه، ضاع كلّ شيء... هكذا قال لي هادي العنّابي

وهو يريني حبال الليف التي يجب تسلّقها كي أرى المنارة، حيث يجتمع أبي الآن مع أصدقائه القدامى ويتسامرون، وعنّاب كطفل صغير فرح به، يصبّ له الشاي ويدعوه إلى تأمّل أكفانه الجاهزة للدود، ما زالت رائحة عطور أم مسعود تفوح منها، قال لي هادي أنّها حبال ليف منها تستطيع الوصول إلى السماء، حيث المنارة. هناك يتربّع عنّاب وحوله النساء قد عدن صبايا، الرجال وقد عادوا شبّانًا يدقّون الأرض بأقدامهم، هنا تشعر بتفاهة الحياة، والبحث عن مفردات لتدَوّن ما لا يُقال.

أنا وهادي نعبر البرّية الشرقية في اتّجاه التخوم، تتراءى لنا شجرة الزعرور متمايلة كأنّها ترحّب بقدومنا، شجرة وحيدة في برّية فسيحة... سألت هادي: لماذا لا تسلّمني ما أعطاك إيّاه جرجس؟ ضحك وأجابني بدأتَ تخطئ، عن أيّ شيء تتكلّم؟ ألم أقل لك أنّ الحروف الضائعة هي جوهر الحكاية؟! سألته هل تعرف أنّ أبي مات؟ قال منذ زمن بعيد كان عنّاب ينتظره، وكلّ ليلة يتفقّد الجالسين ويسأل عنه. شدّ على يدي بمعنى ألّا أقلق عليه، فقد وصل إلى الحقيقة الكبرى وسيكون سعيدًا وقبل أن يتركني همس في أذني أنّ أبي كان منذورًا لحراسة الصفحات الممحوّة، لكنّه تركها وأصبح تاجر فحم، أبديت رغبتي في الذهاب بعيدًا من هذه الأرض للتخلّص من الكوابيس التي تنتابني، أذهب مع سلمان إلى تركيا، نعبر الحدود سويًّا ونُتاجر بكلّ شيء، وهناك نضرب كؤوسنا ببعضها بعضًا ونشرب نخب نساء لم يرَ التاريخ أجمل من صدورهنّ وغنجهنّ بحسب ما أخبرني سلمان، أو أنّني سأتابع تلوين المشهد مع أحمد الجمل، لا أريد أن أبقى أسيرَ وَهْم، هادي العنّابي استرخى قليلًا لرياح خفيفة باردة وردّد إن عرفت الجهات فلن تستطيع ترك المركز، أنت متورّط أكثر ممّا يجب، وقال لي إن استطعنا أن نرسم ونحدّد مكان الكنز فإني سأرى ياقوتًا وزمرّدًا لن تشهد عينا كائن بشري مثل جماله، وسأحلّ كلّ الألغاز التي يتجمّع العنّابيون في الساحة ويفكّرون بها وهم يدخّنون، وسأستطيع استدعاء كلّ العنّابيين الذين ترسل إليهم أم مسعود هذه الزجاجات عبر البحر، سيأتون جميعًا، كما سأستطيع الجلوس في المنارة من دون أن أموت، قال لي مشدّدًا على كلماته، عندئذ ستتسلّق حِبَال الليف، وهناك ستضطجع وتتأمّل المشهد، ستضاجع عنّابيةً عاشت أيّام البابليين ودخلت بابل، ستروي لك عن الحدائق المعلّقة وعربات الملوك المذهّبة وتخلع ثيابها بين يديك كي تضطجعا على العشب الأخضر، أيّ جنّة يا هادي؟ أيّ عنّابية دخلت بابل وروّحت عن نفسها بشرب الخمر في حدائقها المعلّقة؟ انظر إنّني وحيدٌ، وسأبقى وحيدًا، أبحث عن مفردات ضائعة بين ركام آلاف السنين، قادتني قدماي إلى قبر أبي، قبل أن أصل إلى تخوم المقبرة رأيتُ شَبَحًا أعرفه، واقفًا قرب الشواهد. اقتربتُ، تمنّيتُ لو أستطيع الطيران أو الركض كي أعانقه، أمسِك به من أذيال ثوبه وأقول له لا ترحل. كأنّه وجه أبي الهايم، قرب الشواهد. مشهدٌ نديّ في ليلٍ متأخّر. اقتربتُ لكنّ الشبح كان يبتعد... نعم... إنّه خالي، كدتُ أصرخَ فأصِبت

بالخرَسِ، لمعت عيناي في الظلام، كلّما كنت أقترب كان يبتعد، وصلت إلى الشاهد، وسمعتُ قهقهةَ أبي وانسحابه من داخل الكفن، كدت أسأله، رأيت آثار خطواته قرب الشاهد وتشمّمتُ رائحته في الفضاء، رائحته التي أعرفها أكثرَ من أيّ رائحةٍ أخرى، وشَكل خطواته على الأرض. أيّ ثباتٍ هذا، وأيّ قُوّةٍ هذه؟ جلستُ قرب الشاهد وبدأت أنتحب، كلّ شيء يفرّ من يدي، ها أنذا أتسلّق حِبال اللّيف لكنّها تنقطع ويغمرني الزبد، أعود وأقف، أسأل عن أسرار المشهد، وأركّب كلّ الحروفِ الناقصة فأحمل إلى النقصان، والشكّ، كأنّ أبي يهمس ألّا أتكلّم، فسكتّ ومررت على القبور. كلّ الشواهد نديّة، والصباح نديّ، نديّ. مطرٌ أنعشني، أيقظ يباسي، وبلّلني، وأمام باب الحوش الواسع، كنت أقطّر وأرتوي، العنّابية تغتسل والتراب يخلع يَبَاسَه، وجدّتي فتحت الباب وكنت أسمع الشجار بينها وبينه... ثمّ رأيتها جالسة قرب العتبة، وبيدها الزجاجة السوداء وهي تناولها لفاطمة كي ترميها في بحر بيروت فور وصولها، ولا يعلم أحد بأمرها، فاطمة هزّت رأسها، وقبّلت رأسها ويدها، تركت لها جبينها كي تقبّله وتَدُسّ في يدها زجاجة عطر أو سائل لا أعرف مفعوله، ثمّ خرجت فاطمة، بلّلها مطر خفيف، كانت أمي تبكي وعلي يُهدّئها، ومن خلفها زليخة وعائشة التي كانت آخر من احتضن فاطمة وبكى، بكت بحرقة فبكى الجميع، وقالت فاطمة أنّها ستعود أواخر الشهر المقبل وتغامزت مع عائشة من بين الدموع، وكانت السيّارة الوحيدة بألوانها المُغبرّة وكراسيها الخشبية بانتظار فاطمة وعلي، أمي رافقتهما إلى السيّارة موصية السائق الذي لا يحتاج إلى مَن يوصيه، ثمّ دَعَت لهما بالسلامة وتابعت طريقها إلى المقبرة.

# الدفتر الثالث
# أقنعة الشيء

أقمار طافحة بالغبار، العنّابية تُعاود كسلها وتطفح بالغبار، نوافذها غبار، أبوابها غبار، خطوات أهلها ووجوه المتمدّدين في المقبرة الوحيدة غبار. قلت لهادي أريد مجالسة الموتى، فقال لا تأبه بهذه الترّهات، فحديث الموتى مملّ، قلت له لو أنّك أسّستَ ذريّتك بعيدًا من هذا الغبار لكان لك قبر في الأقلّ يزوره أحفادك ويضعون أعواد الآس على ترابه النديّ، أشار بيده أن اسكت وأخبرني بأنّه محكوم عليه بألّا يؤسّس ذرّية، كان يجب أن يموت تاركًا وراءه أشياء تبعثرت في الإصطبلات وبين عبث العنّابيين، ثمّ أردف أنه شاهد عنّاب مرّة، وعاتبه على اختياره هذه الأرض كي يُقيم سلالته عليها، عنّاب قال هذه الأرض طيّبة، وربّت كتف هادي الذي سألني هل تبحث عن اليقين؟! لا أعرف عمّا أبحث، أريد انتهاء أزمنة التدوين كي أرى الصورة واضحة، قال لي لن تنتهي من التدوين، ستبقى أصابعك ملوّثة بالحبر والألوان والحقائق الضائعة، تركني وسار وحيدًا، وقال لا تلحق بي الآن. كلّ الأشياء كانت تبدو لي عبثًا وغبارًا وكلّ ما تقدّم كان يضع قناعًا، سأرمي بهذه الأوراق وأنهي هذه المهزلة، تجب إزالة الأقنعة، وقفت قرب قبر أبي ورأيت أعواد الآس التي أحضرتها أمي وخالتي من الجبل القريب مرمية بخضرتها الفاتنة على التراب المبلّل بالماء، كانت أمي تعتقد أنّه عَطِشَ فحملت له الماءَ وسكبته على التراب وعادت بصحبة خالتي، كلّ يوم كانت تُنَدّي قَبرَه وتُجَرجِر ثوبها الأسود الطويل خلفها، وقالت لخالتي أنّه منذ خمس سنوات يعرف أنّه سيموت ولم يقل لأحد، خالتي طيّبت خاطرها وقالت لها أن تنسى كلّ شيء فالموت حقّ. درب مشى فيه من قبلنا عنّاب وجميع الأولياء والصالحين وذهبت برفقتها إلى الشيخ القريب من العنّابية، حملت له ديكًا روميًّا وقليلًا من البرغل، وطلبت منه أن يقرأ لروح أبي مولدًا، خالتي لم تُفارق أمي طوال هذه المصيبة كما أسمتها، كانت تنام معها في الغرفة نفسها، وفي الليل أسمع نشيجهما اليومي، ثمّ أسمع كلماتهما

المتقطّعة، وهما تُكفكِفان دموعهما وتغطّان في نوم عميق، عائشة قالت لزليخة أنّ الثوب الأسود يعذّب أبي في قبره، ويجب أن تخلعه بعد الأربعين لكنّ زليخة لم تأبه وأبدت تحدّيًا كأنّها تعلن استقلاليتها عن الجميع، أصبحت تحمل صحون الطعام لجدّتي وتُطيل المكوث عندها، تنظّفها وتحمي عزلتها التي ازدادت، فتعتذر بدلًا منها عن عدم استقبال العنّابيين كما أوصتها. جدّتي تحبّ زليخة كأنّهما متواطئتان على سرٍّ ما، وحان وقتُ افتضاحه، فلم تمانع أن تنام في غرفتها قريبة من قدميها في الكثير من الأحيان تاركةً عائشة وحيدةً في غرفتها تسير عاريةً، لم يطل الأمرُ طويلًا حتى عادت عائشة لنشاطِها وحيويّتها، فمازحت الجميع وقالت بلهجة يائسة أنّ البغلين قد هزلا كثيرًا والتقرّحات لا أمل بشفائها، قالت أمي أنّها ستطلق سراحهما، لكنّ عائشة احتجّت وتابعت أنّهما صاحبا أبي في أواخر أيّامه، أمي قالت: «دعيهما يموتا في الفلا أحسن ما تخنقنا رائحتهما». وفي الصباح، فتحت باب الإصطبل واقتادت البغلين من رسنيهما، سارت بهما إلى ساحة العنّابية، وهناك فكّت الرسنين وضربتهما كي يعدوَا بعيدًا، لأنّ القروح والروائح النتنة عادت إليهما. لم يتشجّع أحد من العنّابيين على إيوائهما، كلّ عناية أبي لم تأتِ بنتيجة، زليخة ظلّت تسقيهما كلّما اقتربا من البئر وتمسح على رقبتيهما... البغلان جالا بنظريهما في العنّابيين وتابعا مسيرهما ببطء في اتّجاه البراري ثمّ عادا واستوطنا بين القبور، يمضيان الليل قرب قبر أبي، أمّا النهار فأغلبه قرب باب حوشنا مثيرين غضب أمي، تضربهما بعصًا فلا يتحرّكان من مكانهما، تنبّأت عائشة بأنّهما لن يغادرا هذه الحوش حتى يموتا، ازداد المشهد قتامة، وأمي تمارس مزاجًا متناقضًا. مرّة تهدأ وتتروّى في الكلام وتعود إلى عادتها في الاهتمام بشؤوننا وتتقبّل مزاح عائشة الدائم معها، ومرّة تثور من أتفه الكلمات وتندب حظّها ووحدتها وترمّلها المبكر وتذهب إلى غرفة جدّتي، تجلس على العتبة وتبكي بحرقة، جدّتي تُهدّئها وتدعو لها كي تعود إلى صفائها، أمي تتذكّر أبا الهايم كثيرًا وتعتب عليه لأنّه تركها ولم يأتِ ليقوم بواجب العزاء، تشتم القرباط ونشمة وحظّها وتنظُر إليّ ككائن غير موجود، تتعثّر بي في أرض الحوش، مرّة تُبدي رقّةً وتدعوني لمتابعة دراستي وهي مستعدّة لإرسالي إلى الجامعة، ومرّة تلكزني لأبتعد من طريقها وتقول لي لن تصبح رجلًا، تقترح على جدّتي تزويجي فتضحك بهدوئها وتقول لأمي: دعيه فهو ما زال صغيرًا، تضيف أمي ولن يكبر. قالت لي عائشة إن أردت الزواج فأستطيع أن أخطب لك عروسًا أرغب فيها، ضحكت ونحن نرتشف قهوتنا على قرص الدرج، أختي تدخّن كعادتها وتقول لي أنّ الزواج حلو وكذلك العيش في العاصمة، وأنّها لن تمضي عمرها في هذه الخرائب... وبين هؤلاء المجانين المتخلّفين، أوّل مرّة أسمع كلمة متخلّفين منها وتساءلت عن مصدرها، أخبرتني زليخة في ما بعد بأنّ المُرافِق يُحدّث عائشة دومًا عن رُقِيّ المدينة وهو يكرهنا... أي يكره العنّابيين ويقول أنّهم بكم ويصفهم بالتخلّف والقذارة، ويستغرب انتماء معلّمِه إلى هذه الأرض التي لا

تُوحي إلّا بالموت، وقد أتى بكريم لعائشة كي تغدو أصابعها ناعمة. عائشة تعبد جسدها، لا تترك مسماةً فيه من دون أن تكرّمها، تستحمّ كلّ يوم، تبتلّ بالماء فتنتعش، تفرد شعرها الأسود الطويل وتسكب طاسة البيلون الذائب وتهتمّ بأمر خصلاتها الزائدة، دومًا أراه ناعمًا، لامعًا، معطّرًا، ومن فتحة ثوبها المحبوك دومًا على جسدها، تظهر التفاصيل والثنيّات التي تبالغ في إظهارها حين تمشي، فتنتصب وتتقولب في النظافة، تأتي بنات جيلها إلى غرفتها فتعلمهنّ أسرار العطور والكريمات التي تليّن مسامّها وتُطَرّي جلدها كما تقول – وتقول لي زليخة أنّ عائشة تنظر كلّ يوم إلى جسدها الملفوف بالمنشفة أمام المرآة الكبيرة، تلحظ الرقبة، العينين، الحاجبين اللذين تنتفهما بعناية وأناة وقد دلّت البنات على كيفية تخطيطهما كي يغدوا أكثر جمالًا وأناقة وهي بدورها تعلّمت من فاطمة التي تحدّثها دومًا عن أدقّ الأسرار. لا تترك فخذيها للترهّل، تأتي بنباتات تُوصي عليها، تغليها قليلًا وبعد أن تبرد تمسح بيدها كلّ أنحاء جسمها الذي يمارس الغواية التي تريد حين تمرّ أمام أنظار الرجال، والعازبين الذين يخافون سلاطة لسانها وجرأتها حين يحاولون التغزّل بطريقتهم العنّابية الفجّة، فلا ترحمهم وتطرب للتشبيه الغريب فتضحك وأحيانًا تغمز صاحبه الذي يعرف أنّها صعبة المنال فيكتفي بتلك الغمزة ولا يتجرّأ على أكثر من ذلك، عائشة عادت إلى عاداتها في الدوران طويلًا بحثًا عن أشياء لا تعرفها في أرض الحوش وسماع العنّابيات وهنّ يُحدّثنها عن رغباتهنّ التي تتكشّف صريحة. حين تغلق باب الغرفة، تخرج دفاتر ملوّنة من صندوقها، وتشرح للصبايا ما ليس بحاجة إلى أيّ شرح.

العنّابيات في هذه الغرفة يخرجن عن أطوارهنّ فيتحدثن بكلّ شيء، ويُلْزِمن عائشة بأن تنهض قليلًا كاشفةً عمّا تملك من أسرار، عائشة لا تُفصح عن كلّ أشيائها دفعة واحدة، تختار من تصاحب وتنتقيه، ولكلّ سرّ بير كما تقول دومًا، تدور في أرجاء الغرفة، تعود نازلة الدرج إلى غرفة جدّتي، ترى زليخة التي ما عادت تتردّد على الغرفة كثيرًا كأنّها أعلنت العصيان على عالمها فجعلها موت أبي فتاة مختلفة ما عادت تعرفها أو تعرف كيف يمكن التفاهم معها، جدّتي قبلت تحوّلات زليخة كأمر مفروغ منه لا يحتاج إلى أيّ تبرير أو استغراب، وبدأت زليخة تستمتع بهذه الصحبة، ترى جدّتي في كلّ حالاتها، بدأت تهتمّ بكلّ شؤونها منفردة، باستمتاع شديد وقدسية ترتّب أثوابها، وتنهض كي تسخّن الماء لتستحمّ، تخلع عنها ملابسها وترى جلدها الذي تساقط ونما بدلًا منه جلد جديد، تلمسه زليخة بيدها بعذوبة، وتُباركها جدّتي التي ما زالت تتآمر مع عائشة وتبتسم لمزاحها الذي لم تكفّ عنه، قالت أنّ الموت ليس نهاية الحياة، وأنّ أبي قد أكل عمره وليس معقولًا أن تحزن عليه طوال العمر، والدموع لا تُعيده. ولو كانت تُعيده لملأت سدود الأرض وسقت حقول العالم بدموعها كي يعود، جدّتي وافقت على كلامها، وزليخة انسحبت من الجلسة لإحساسها بأنّ الكلام مُوجّه إليها وهي لا تريد أن ينتهي الأمر بهذه البساطة،

حاولت أن تعيد زليخة للنوم في غرفتها في الأقلّ واصطدمت بجدّيتها في الابتعاد والإبغال في عالم جدّتي، وتأكّدت عائشة أنّ أختها الصغرى كبرت، فتركتها وشأنها.

في المساء، أتى سلمان وبيده صُرّة وقال لأمي وخالتي أنّ أبا الهايم يسلّم عليهما كثيرًا، ويطمئنهما عليه ويبعث لهما بهذه الهدايا، وأنّه حزن كثيرًا على أبي وهو لا يستطيع العودة حاليًّا لكنّ أمرَ غيابه لن يطول. الاثنتان رشقتا سلمان بسيل من الأسئلة المفاجئة كأنّهما استيقظتا من نوم طويل. فقال سلمان: تمهّلوا حتى أستريح. واستراح سلمان فتحلّقنا حوله جميعًا، وهو يروي لنا أنّه رأى خالي في مكانٍ ما لم يسمّه وأنّه بخير ويسلّم على الجميع، خصوصًا عليّ، وأوصاه أن يقول لي أنّي الآن رجل البيت ويعتمد كثيرًا عليّ في تسيير شؤون العائلة، أمي كأنّها لم تصدّق وخالتي سُرّت وبدأت دعواتها ليعود إلى العنّابية ويتزوّج كي ينجب أطفالًا ويفتح منزله مرّة أخرى، سلمان ضحك ومازح أمه أنّ خالي سيتزوّج نشمة ويعود بها إلى العنّابية، واتّقى ضرباتها، أمّي فتحت الصُرّة ووجدت قطعتي قماش مخمل قال سلمان: واحدة لأمي والأخرى لخالتي، وفستانين لعائشة وزليخة ودفاتر ملوّنة وأقلامًا لي وبنطلونًا جديدًا، قال لي سلمان أنّه من أغلى الأنواع، وغمزني أي أنّ هناك أمانة لجدّتي يجب أن تصل فورًا، واستأذن سلمان وسط صراخ أمي وخالتي وعائشة كي يجلس ويحدّثهما عن أحواله ومكان رؤيته، لكنّ سلمان حسم برقّة الموقف وهو على العتبة: قلت لكما كلّ شيء ولا تسألا كثيرًا، المهم أنّه بخير. لحقتُ بسلمان الذي توجّه إلى غرفة جدّتي، قَبّل يدها وقبّلت رأسه وأجلسته قربها، وأخرج من جيبه مُكعّبًا مغلّفًا بورق ملوّن، جدّتي ابتسمت ولم تفُه بكلمة، كأنّها تعرف كلّ شيء، هزّت رأسها وسألته عن أحواله وأوصته بألّا يضرب زوجته وألّا يتزوّج تلك التركية التي تسمع عنها، سلمان بدا خجولًا مرتبكًا، وعدَها خيرًا وبدأ يشكو لها غباء زوجته ويداري كي لا يفصح عن الأسباب التي تجعلها غبيّة.

سرت مع سلمان، استنشقنا هواء العنّابية، اجتزنا الساحة متجّهين إلى الحقول المغلّفة بغبش المساء، حيث كلّ شيء ممتدّ أمام الأنظار، أخرج علبة تبغه وأشعل سيجارة وقدّم لي واحدة فرفضت، حدّثني عن أحوال خالي الصعبة، فهو ما زال هائمًا بنشمة، لا تفارقه صورتها ليلًا ونهارًا، يبحث عنها في كلّ الأماكن، يقولون له ذهبت إلى الشمال فيلحق بها، لا يجد سوى آثار الليلة التي أحيتها، ولم يبقَ شيء سوى صورها معلّقة على جدران كئيبة، وسلمان التقاه في تركيا، حيث تسلّل خالي عبر الحدود تأكّد له وجودها هناك وأنّها مدعوّة لإحياء حفلة ابن أحد رؤساء العشائر، وقال لي سلمان أنّ خالي انتظره مدّة ثلاثة أيّام في البنسيون الذي يبيت فيه في ماردين، وأخبرته صاحبة البنسيون بموعد مجيئي القريب، كان خالي مفلسًا، تائه النظرات، شبحًا يسير على قدميه، بدت المفاجأة مُذهلة حين وجده جالسًا في صالون البنسيون على كرسيّ من القشّ وأمامه كوب شاي، فتح ذراعيه وعانقه، قبّله ولمعت عيناه

وهو يضرب مؤخّرة صاحبة البنسيون ممازحًا شيخوختها كعادته، تجاهل سلمان الأمر كأنّه لم ير خالي، أشار له أن يستحم، وأعطاه ثيابًا نظيفة، ثمّ اصطحبه في شوارع ماردين، جلسا في مطعم، وتحادثا كرجال حكمتهم الأقدار، أخبره بموت أبي، لم يفاجأ لكنّه اغتمّ وتمتم: كان رجلًا طيّبًا. وبقيا طوال الليل يتحادثان، سلمان تفرّغ لخالي وفي اليوم الثالث دعاه إلى نادي ماردين الليلي وسَكِرَا، طلب له فتاة كي تجالسه لكنّ خالي أومأ بيده وقال سأجد نشمة أوّلًا. كان خالي هائمًا في البراري في الحواري، في المدن وبين مضارب العشائر، علم في تركيا أنّ نشمة لم تبقَ سوى يومين بعد أن أدركت أنّ وجودها سيسبّب مشكلة بين رجال القبائل الذين أحبّوا الاستئثار بها لأنفسهم وفرض سلطتهم للوصول إليها، فاستأذنت صاحب الحفل كي تغادر، وكان رجلًا مسنًّا ووقورًا فأذن لها بالرحيل وأعطاها أجرها كاملًا مستعيضًا عنها بمغنّية تركية تجوب القرى وتغنّي في الأعراس. خالي الآن ضائعٌ بين الحدود، في عينيه ذلك الألق القديم الذي كنت أراه يشتعل في ترفّعه عن الأشياء، قلت لسلمان هل أستطيع رؤيته؟! قال لي لن تستطيع العثور عليه، سيعود إلى العاصمة ويلتقي الملك المخلوع، الذي كان خالي يقول عنه أنّه عنّابي وسنعيد له الملك ذات يوم. الطريق طويل وأبو الهايم من دون زوّادة، كأنّ النجوم تحرسه. في الليل، لم أستطع النوم. خرجت إلى أرض الحوش وسمعتُ أمي وخالتي تتحدّثان بلهجة الواثق في أنّ خالي سيعود وسيتزوّج عنّابية، رأيت عائشة جالسة على قرص الدرج تدخّن رغم البرد الذي بدأ ينذر بشتاء قاسٍ سيحلّ مبكرًا، قالت لي خالي لا ينتقي أشياء كهذه التي أتى بها سلمان وأنّ سلمان هو الذي اشتراها، أجبتها لا أظنّ بل خالي هو الذي حَمّلَ سلمان هذه الهدايا، كانت دفاتري لا تزال مرمية في غرفة أمي، لم يقل لي سلمان أنّه أعطاه نقودًا واتّفق معه على موعد للقاء قد يكون قريبًا من العنّابية فينساب من بين يدي كالماء ولا أراه، اشتقت له، كأنّ قرنًا من الغياب قد طال واستقام بيننا جدار من الوهم والسراب الذي يركض خلفه خالي ولن يصل إليه، لن يُمسك بأثواب الموسلين بين يديه ويتحسّس نعومتها، ولن يرتاح في حضن نشمة أخيرًا، سيبقى أسير الخطوات الممحوّة والصور المعلّقة على جدران مغبرّة، قال لي هادي أنّ العاشق لا يُمسِكُ إلّا بالسراب، أجبته أريد أن أصبح ظلًّا لخالي، فضحك ورأيت أسنانه أوّل مرّة لامعة، متماسكة، مصفوفة بعناية شديدة، لم يمهلني كثيرًا كي أفكّر بمعنى ضحكته، كأنّه يقول لي أنّني سأبقى أسير هذه الجدران المغبرّة وهذه البراري الصامتة، هذه الخرافات التي يقذفها العنّابيون من أفواههم كحقائق لا تقبل أيّ جدل، ومسلّمات ليست بحاجة إلى أيّ مراجعة أو نقاش، حول درب الغياب وجَدّهم عنّاب وعذاب الأوّلين وصفاء سلالتهم وغربتهم عن العالم الذي لا يعترف بأنّهم أصله... في مللهم، في ثباتهم، تتكشّف الأشياء والحقائق الواهمة عن تاريخ ضائع وعن صفحات بيضاء اختفت الحروف منها فأربكت متتبّعي الأثر وضلّلت كلّ الباحثين عن الخيوط

الأولى، عن الحروف ومعاني الكلمات، قلت لهادي، ليست المشكلة في رسم الخريطة بل في تحديد النقطة المصيرية التي سوف تكشف لنا حقيقة الكنز والمدوّنات التي ضاعت، بعدما بعثرها العنّابيون في لهوهم، وفي عدم اكتراثهم لكلّ ما قيل وما سيُقال عن أنّ تاريخهم هو حفنة من الوهم ذرّتها الريح مرّة فتغلغلت في مسامّهم وسكنت تحت جلودهم، هادي لم يعد يكترث كثيرًا لما أقول وبدأ الملل يتسرب إليه كأنّه ما زال ذلك الجالس على كرسيّ يراقب البشر يمرّون أمامه ويستغربون إصراره على ذقنه الحليقة ووجهه النضر، وتأكيده أنّ الحديد يطفو فوق سطح الماء محمّلًا بالبشر والسمسم والقطن، وقراءته الدائمة في تلك الدفاتر السوداء التي يفتحها، يشير بقلم يحمله في جيبه دومًا إلى كلمات وجمل يضع تحتها خطوطًا ويعيده إلى جيبه، تمزّقت دفاتره وبدأ يأكل أعشاب البراري متحدّثًا عن دروب قافلة ضلّت وطمرت تحت التراب. هادي العنّابي ملامح ضائعة، متساقطة عليّ جمعها وإعادة النضارة إليها، يقول لي أحمد الجمل أنّ الألوان التي تضيع هي الجديرة بالبحث، أقول له ارسم لي بورتريه لهادي فيؤكّد أنّه سيفعل، لكنّه مشغول الآن برسم وجه الله الذي تفيض ألوانه على حافّة لوحته، فيقول لي انظر، وأرى أمامي ذلك البياض، يشرح لي أنّ الأزرق المتداخل مع البرتقالي لون عصيّ ويتعبه، لكنّ الملامح لا تظهر، تعود للغياب مرّة أخرى، وأنّ الله يفلت من بين يديه كلّما اقترب من الملامح الرئيسية. أسترخي على الأريكة الوحيدة، وتنتابني رغبة في الراحة فأتمدّد، ولا أعود أسمع صوت أحمد، يتركني لصمتي ويعود إلى ألوانه، أو يجول في الكهف، ثمّ يحدّثني عن فطّوم، ورائحة الأنثى في هذا الجحيم المسمّى العنّابية، فهمت أنّه ملّ منها، لكنّه إن غاب عنها فسيشتاقها ولا يعرف لماذا تقوده قدماه إلى ذلك الفراش، وإلى جسد مترهّل لكنّه لذيذ ودافئ، وأخذ يخبرني بأنّ أوان رحيله قد حان، سيذهب إلى العاصمة، نقوده بدأت تنفد، والألوان لن تكفيه كثيرًا، سيبتعد من هذه المرارة التي يُحِسّها في حلقه كلّ صباح، وبهذه العيون التي تتعلّق به حين تراه خارجًا من كهفه فتتأمّله باستغراب وتستعيد مفرداته الجاهزة للردّ على أيّ سؤال لا يعجبه، خصوصًا الأسئلة التي تستفسر عن أبيه الذي هجر منزله وتشرّد على البيادر وفي الحقول، زائغ النظرات، قذر الثياب ولا يستطيع النوم. تحاشاه أحمد تمامًا وامتنع عن ذكره تمامًا كأنّه لا يعنيه، وإن كنت أحسّ بداخلي بأنّه لم يسامحه ولا يكفيه كلّ هذا الجنون والازدراء، إذا ترك أحمد هذه الأرض، فماذا سيتبقى لي في هذه البراري التي يطنّ فيها الذباب وتسرحُ في أرجائها الأرواح الهائمة؟ أفكّر وأنا مستلقٍ كأنّ خدرًا أصابني وأنا أتذكّر أنّ العنّابية غبار... وغبار... ولا شيء إلّا الغبار، يجب إنهاء التدوين أو التخلّي عنه لمن سيأتي ويكون أكثر احتمالًا وأنطلق معه، نجوب المدن ونبحث هناك عن مفردات أكثر جمالًا، ومشهدًا أكثر حيوية كي نُلوّنه، أسمع صوت ضربات ريشة أحمد على اللوحة البيضاء المعلّقة في المرسم، وكلماته المتقطّعة عن حقائق لا وجود

لها، أو لا تهمّني، يعاودني الصَمَم، أرى حركات يديه، ولا أسمع شيئًا، أدخل أرض الحوش من الباب الواسع فأرى البغلين واقفين كأنّهما يستجديان مكانهما، أرى أشكالًا بشرية تتحرّك وتمارس دقائقها ترعبني حالة الصَمَم التي تعاودني بين حين وآخر، حين أكون جالسًا مع جدّتي كثيرًا ما تنتابني كأنّ عليّ اكتشاف كلّ شيء بنفسي، أو تعلّم قراءة الشفاه والمخفي من اللغة التي لا تظهر، أرى طيف عائشة، ثمّ تصبح الرؤية واضحة، تكلّمني فلا أسمعها، تدور في أرجاء الحوش وأمي تكلّمها من شبّاك غرفتها، أودّ أن أقول لعائشة كلّ شيء، أخبرها عن المدوّنات المفقودة وجولاتي مع هادي العنّابي في تحديد الأمكنة الضائعة، وعن الكنز الذي يحوي عقودًا من ذهب وعقيق تزيّن عنقًا جميلًا كعنقها، قد تدلّني على إشارات تعرفها وتشاركني السرّ الذي من أجله أصبحت مُدوّن الحكاية، وأنا غارق في الصَمَم تارة وفي الغباوة تارة أخرى، ودائمًا الحيرة تتلبّس ثيابي، فلا أستطيع المكوث طويلًا عند أيّ حقيقة تأتيني من روايات العنّابيين، فأعتبرها دومًا بحاجة إلى مراجعة وإهمال في ما بعد، علّ عائشة تصل إلى مفاتيح الأبواب المقفلة وتزيح الرتاج، تدخلني عالمها السحري وتُعلّمني أسرار المرأة التي أتقنتها من دون أن تضيع كثيرًا في الأوهام والأخلاقيات المتناقضة، فغدت أنّها عارفةً كلّ شيء وستفصح عن سيرتها حين يبلّلها الماء وتخرج عارية تمامًا ثمّ تبدأ كتابة تاريخ جسدها الشهي، وتقول هذا قانون الكون فَدَوّنْه. أسيرُ بتباطؤ إلى غرفة جدّتي، الخطوات نفسها، جدّتي محدّقة في البساط وزليخة ترتّب أشياءها وتشغل نفسها برائحة المكان، أجلس على العتبة وأتخيّل أبي جالسًا هناك ويسألها عن موعد زرع الشواهد، وددتُ أن أسألها أما نبتت شواهد أبي وأثمرت؟... التفتت زليخة إليّ وقالت لي سأعدّ الشاي، عاد السمع إليّ فهدأت قليلًا، رفعت جدّتي نظرها إليّ ورأيتها متعبة كما لم تكن من قبل، تغضّنات وجهها ازدادت، طيف ابتسامتها أكثر حزنًا. بحثت عن المفردات المناسبة كي أسألها هل عَبّرَ لها عن إحساسي بجثمان التدوين الثقيل؟ تخبرني بأنّ الشتاء سيأتي قارسًا أكثر من المعتاد، أبحث في أرجاء الغرفة الواسعة عن روح ضالّة، عن خطوات أناس تناستهم الأمكنة، ووجوه ضاعت في الزحمة، أبحث عن الصندوق الذي بقي لغزًا، تفأجأت حين أخرجت منه كفنًا مُعَدًّا لأبي فأحال كلّ فرضياتي إلى سراب وأعادني إلى نقطة البحث الأولى، كأنّي أرى الدفاتر السوداء مركونة في قعر ذلك الصندوق الذي لم أعرف وجوده من قبل، زليخة بيديها الطيّبتين قَدّمت لي الشاي وكان ثوبها الأسود يزيد عمرها فيجعلها جديرة بالحزن والتروّي أثناء الحديث.

دومًا، عيني الأخرى التي تدخل الأماكن المحرّمة تخبرني عن ألوان صخبها وعنفوانها، زليخة كبرت فجأة، موت أبي أحالها إلى أنثى وأورثها مملكة أم مسعود التي بدت أنّها من صلب نسيجها، كأنّها وُجِدَت معها هنا ومنذ زمن بعيد لا تطاولها ذاكرتي ولا تفصح عنها حروفي الضائعة، روحي هدأتِ وأنا أغادر

الغرفة صاعدًا إلى غرفة عائشة التي كانت منهمكة في شغل أكمام كنزة صوف، الأسياخ بين يديها وهي تتناوب النسج بمهارة، انتبهت إليّ فدعتني للجلوس، وهمست لي أنّها ستصنع كنزة لي فالبرد آتٍ.

لحظاتُ عائشة مختلفة مثقلة بالانتظار. تحيك لحظات حياتها المقبلة، بسرّية تامّة، لا تأبه بالآخرين ولا تستمع لوجهات نظرهم، تعتبر أنّ مصيرها يَخُصّها وحدها، وبعد رحيل أبي أصبحت أكثر حرّية، بعد ذهاب الذي تشعر بودّ واحترام كبير له، رغم ضعفه ودروع سلاحفه وبغليه اللذين تَقَيّحت جروحهما، كانت تقرأ قوّته حين تنظر في عينيه، وتتمهّل في عودته أبًا كبيرًا، حاميًا للدار والحوش والسلالة، كانت قادرة على مدّ جسور التفاهم العميق معه كأنّها تشاركه المصير، انتظرت أن يوقفها عند حدّها في رفض من تقدّم لخطبتها وإعلانه أنّ العريس المتقدّم لخطبتها عنّابي وهو أَحَقّ من يتزوجها، لم ينهض من ضعفه، تركها تتسلّل في الليل إلى حضن المُرافِق الذي تمهّل قبل أن يُمَرّغ وجهه في صدرها ويلتقط حلمتيها العاريتين بين شفتيه ثمّ ينزلق بشفتيه على كامل جسمها الأسمر، المتين، الراغب، الفوّاح. تشكّت من أهلي الذين بالغوا في الحزن على أبي، وافقتها، عادت لأسياخ الصوف وصمتت، كنت قريبًا من النافذة، أراقب حلول المساء، الصمتُ يهيمن على أرض الحوش، كأنّ كلّ شيء انتهى، خالتي لم تفارقنا، كأنّها تراجع مع أمي سيرتهما، تسترجعان التفاصيل القديمة، ومن غبش الماضي تنهض الوجوه البعيدة، خالتي بإيمانها الشديد بالقدر تُهدّئ أمي حين تثور أو يعود إليها الإحساس بالخسارة واليأس، تقرأ لها آية الكرسيّ والفاتحة وتحثّ أمي على الإكثار من الصلاة، أمي لم تكن تكترث كثيرًا لهذه القدريّات مقتنعة أنّها مُعدّة كي تؤدّي دور سيّدة هذا الحوش الكبير. خذلها أبي برحيله المبكر وتركها وحيدة تلوك الصمت ولا تستطيع استجماع طاقتها على ترتيب الأنفاس والتفنّن بإعطاء الأوامر لأخواتي أو تزويجهنّ كما ترغب، انكسرت دفعة واحدة وأصبحت غير مكترثة لشيء ومصيرها الذي وصل إلى خواتمه لم يكن في الحسبان. العنّابية صامتة، عائشة صامتة، وأنا صامت، الليل صامت والحجارة، المزاريب وباب الحوش والفسحة، الإصطبلات من دون زفير البغلين وبَولِهما وبعيدًا من روائح التبن.

كلّ شيء صامت ويُوحي بالموت، لم أرغب في الخروج أو الحديث مع أحد، فتابعت التحديق والتدخين مع عائشة، قالت فرشت لك قرب النافذة كي تراقب القمر، رأيت في ذبول الضوء كتفيها العاريتين وركبتيها السمراوين، وبان لي صدرها المكشوف وشعرها النظيف، غابت تحت اللحاف، غالبتِ النوم، وسمعتها تتقلّب، استرخيتُ في فراشي وتركت النافذة مفتوحة علّها تأتيني بالهواء فأنام، عائشة تحلم بمدن واسعة، بأضواء كثيرة تتيه في ألوانها وتضيع في زحامها، بسرير نظيف وغرف نظيفة، بأناس نظيفين ومحالّ تبيع كلّ شيء.

في الصباح، كانت الجلبة والضجة تناهتا إلى سمعي، ابن عمّي ومُرافقه عادا. سمعت صوته الغليظ يُمازح أمي وعائشة تقهقه في أرض الحوش، رأيته وأنا أستطلع من النافذة ما يحصل وغبش النوم في عينيّ، أحسست بأنّي نمت دهرًا، الشمس تحجبها الغيوم المنذرة بمطر غزير والهواء بارد، المُرافِق سلّم عليّ وهو في طريقه إلى غرفتي التي أصبحت غرفتهما حين يأتيان إلى العنّابية، في يده حقيبتان صغيرتان، وصندوق كرتوني مُغلّف بعناية، قال لي ابن عمّي أنّه من لوازم الحملة الانتخابية التي يجب أن أساعده فيها وأنّه يعتمد عليّ، قالها وهو يزمّ شفتيه، لا أعرف بما سيعتمد عليّ، وأنّ الانتخابات بعد أسبوعين وأنّه اجتاز المرحلة الأولى بنجاح، أخذ موافقة السلطات على ترشّحه وبقي أن يضمن أصوات أهله العنّابيين وجيرانهم في القرى المجاورة، وأنّه مرشح العمّال والفلّاحين، وسيدافع عن مصالحهم في البرلمان، أمي كانت تهزّ رأسها وتقول إن شاء الله من دون أن تفقه أو تسأله عن معنى البرلمان وعمّا إذا كان رتبة عسكرية كمدير المنطقة أم... كانت تبتهج لحماسته وأصبحت الآن لا تكترث كثيرًا لما يحصل بينه وبين جدّتي، وتقول أنّ غضب جدّة على حفيدها سرعان ما سيزول حين يغدو شخصًا مهمًّا يدعم العنّابية، عائشة لم تُخْفِ سرورها بالمُرافِق، فجلست قربه على الدرج يرتشفان القهوة ويدخّنان، رأيتُ أصابع المُرافِق تقرص فخذها وهي تضحك، مهدّدة بأصابعها أنّها ستُميتَه، حين لا حظت وجودي هدأت وقالت قهوتك جاهزة. كأنّ أبي قد مات منذ سنوات بعيدة. لا شيء يذكّر بذلك الجثمان المحمول على خشبتين وباب، سوى ثياب زليخة السوداء وتجهّمها الذي صَدَمَ المُرافِق حين سلّم عليها ورَدّت باقتضابٍ شديدٍ.

السماء بدأت تمطر، رائحة الأرض فاحت في المكان، من النافذة تشمّمتها، كأنّني منذ زمن لم تنعشني رائحة، تغيّر شيء ما في داخلي. أحسست بانتعاش، وأنا أرى الأحجار تلتمع، تغتسل، تتشرّب والأرض تمسح جفافها وتعلن حِقَبَها، المطر كأنّه سيّد كلّ شيء. العنّابيون ذهبوا في هدأة المطر، قالوا كلامًا كثيرًا لابن عمّي، كلامًا غير مترابط ومازحوا أمي قليلًا، ثمّ هرعوا إلى بيوتهم، كنت أرى نشاطهم وهم يغادرون بعد أن رأيتهم مسترخين بملل وثبات يدخّنون، ويوافقون ابن عمّي على كلّ شيء. عائشة أبدت رغبتها في النوم قرب النافذة، المطر عاد للهطول خفيفًا، ناعمًا. جدّتي لم تنم، فتحت الباب وجلست قرب العتبة كأنّها تحادث المطر أو تستمع منه إلى الأسرار... كانت تبتهج حين يزداد غزارة، لا أعرف ما إذا كنت نمت أم إنّ شيئًا ما وسوس في صدري، عائشة رفعت اللّحاف عن وجهي ورأت عينيّ المغمضتين، ثمّ تسلّلت بخفّة على الدرج، المطر توقّف ثمّ عاد ثمّ توقّف ليعود شديدًا، غزيرًا، عائشة تبلّلت على الدرج وارتوت مسامّها، كنتُ أرى بهجة عينيها وهي تدخل من باب القبو، ثمّ ظِلّ المُرافِق يتبعها، جلست خلف النافذة، ساعة أو ساعتين أو العمر كلّه قد مضى، سمعت كأنّ باب القبو يفتح بهدوء، خرج المُرافِق وصعد إلى

غرفته، ثمّ عائشة رأيتها تدخل الغرفة متسلّلة وكان وجهها مشرقًا، وهي مبلّلة، خلعت ثيابها وغطّت في نوم عميق، وفي اليوم التالي رأيتُها في الظلام تلفّ يديها حول عنق المُرافِق وتقبّل شفتيه وتوغل فيه، عارية إلّا من سروالها الضيّق الذي يُبرز مفاتنها، امرأة تستعجل اللذّة، المُرافِق يهمس لها اهدئي قليلًا، تهدأ، وتتمدّد على حصيرة بالية، تفرش ثوبها وتتمدّد، المُرافِق عارٍ، تلامس جسده وتكتم تأوّهاتها يقول لها أنّه يحبّها، وهي تقول أنّها تحبّه وتنتظر أن يخطبها، رائحة النوم تتصاعد من ثياب الجميع، وحدها الرغبة والنظافة تشِعّان من عائشة التي أصبحت مشاعرها تجاه المُرافِق مفضوحة لحظها الجميع. ابن عمّي زار عفرين والقرى المجاورة، تحادث مع مدير المنطقة وموظّفي الحكومة ومن يهمّهم الأمر، وعاد مسرورًا. قال كلّ شيء سيكون على ما يرام، أصبح سيد منزلنا من دون أن أدري لماذا وكيف؟ كان يقوم بدوره كسيّد، يتفاهم مع أمي حول أفضليّة تأجير الأرض ومستقبل عائشة وزليخة. قال سنزوّجهما، أمي في زحمة الزيارة عادت إلى طبيعتها وإن بدت أنّها هرمت وحركتها أصبحت بطيئة وما زالت ملامح الحزن تظهر على وجهها، حين تعود من المقبرة كلّ يوم، تجلس على الدرج وتبكي، وإن كانت نوبات البكاء لا تدوم طويلًا تنتهي بالترحّم على أبي وتمسح بباطن ثوبها دموعها ثمّ تنهض آمرةً عائشة بأن تذهب وتأتي بالماء من البئر متناسية زليخة التي ما عادت تخرج كثيرًا خارج الحوش، ابن عمّي قال أنّه سيأخذ أمي معه إلى العاصمة لتزور بيت عمّي، وأنّهم سيعودون جميعًا قبل الانتخابات بثلاثة أيّام، أمي لم تُبدِ رأيًا، وتحمّست عائشة وقالت نذهب جميعًا، وأقنعت أمي بأنّه يلزمنا الكثير من الأشياء قبل أن يدخل الشتاء، أمي لم توافق ولم ترفض وبعد يومين قالت خالتي يجب أن تذهبوا، وأوصتني بأن أبحث عن أبي الهايم، وجدت نفسي متحمّسًا للذهاب إلى العاصمة، وقلت لأمي علينا أن نذهب، فوافقت ممنّية نفسها برؤية خالي وتحت إلحاح عائشة، استأذنت جدّتي التي شجّعتها على زيارة بيت عمّي، وقرّر الجميع موعد السفر في الصباح. العنّابية موحلة، المطر استمرّ في الهطول متقطّعًا وخفيفًا، ثمّ غزيرًا، ينقطع فجأة ويعود، ثلاثة أيّام لم تشرق الشمس إلّا من وراء الغيوم التي استمرّ عبورها في سماء العنّابية، أوصاني أحمد الجمل بأن أستمتع بوقتي في العاصمة، وأعطاني نقودًا كي آتيه بألوان، ألوان قليلة تكفي لهذه اللوحة، وأشار بيده إلى لوحة وجه الله، التي كلّما ازدادت ألوانها ازدادت طلاسمها وعادت إلى بياضها الأوّل، إلى عمائها، أحمد عاد إلى الأريكة، وقال لي أنّ اللغة الفرنسية بحاجة إلى من يتحدّث معه بها كي يتقنها، الكتاب على الطاولة مُغَبرّ، يُوحي برجل ترك وراءه كلّ شيء ومضى، قال أنّه سيهاجر ولا بدّ، إن لم يكن في هذا الشتاء فبعده، ولن يستطيع الاحتمال أكثر في هذا المكان الغريب، أصبح المكان غريبًا وغدا أحمد أكبر، صامتًا كأنّ حبال الكلام قد تقطّعت أو اكتشف اللاجدوى من تكرار الأمنيات والأحلام وانتظار من سيغيب من العنّابيين أو من سيرجع منهم كي

يتحدّث عن أشياء غريبة، كعودة ابن عمّي الذي سيصعد أدراج البرلمان عبر العنّابية وأصوات العنّابيين رغم أنّه حين تركها بصق على حجارتها وأقسم أمام ذاته ألّا يعود إليها مطلقًا، ويذكر معاصروه أنّه حقيقة لم يعد إليها حتى يوم وفاة أمه، لم يأتِ إلّا بعد الدفن بعشرة أيّام، ولم يتأخّر في المبيت أكثر من ليلة، تلقّى خلالها التعازي الذابلة من أفواه العنّابيين وعاد مرّة أخرى إلى أعماله في العاصمة التي لا يعرف أحدٌ عنها شيئًا، والعنّابيون بطبعهم لا يكترثون للكلام كثيرًا، نادرًا ما تحمّسوا لشيء، يعتبرون هذه الساحة الترابية التي يستريحون في ظلال جدرانها في الظهيرات ويستمتعون بنسائم العصر الباردة في فضائها، هي كلّ العالم، حزنهم لا يطول وفرحهم لا يكتمل، كأنّه لا يوجد ما يستحقّ أن يقاتلوا من أجله أو يعيشوه حتى الثمالة، ومع الزمن تولّدت لديهم قناعات بأنّ كلّ الراحلين سيعودون إلى هذا التراب الذي بصقوا عليه ويُكثِرون الكلام عن الشوق وعظمة التراب الذي سار عليه عنّاب ذات يوم، قال لي أحمد الجمل أنّه لن يعود إن خرج من العنّابية، هذه الخرائب موتٌ مؤجّلٌ، بطيء، تجعل الإنسان سحليّة تبحث عن دفء جحرها وملامسة جسمها التراب، تلامسه وتمضي، لا ترفع رأسها ولا تحفر في العمق، تراءت لي العنّابية بعد المطر الخفيف مختلفة، أكثر حنانًا وأقلّ قسوة، الريح الخفيفة الباردة تُنبئ ببشائر الشتاء تجعلُ التدخين متعة. كان هادي واقفًا قرب المقبرة قال لي تأخّرت، رأيت وجهه نضرًا، وخطواته واسعة، وأضاف أنّ العواصم لا تُفصِح عن جوهرها فابحث عن العمق، أخبرته بأنّ زيارتي قصيرة لن تسمح لي بالتسكّع في الأزقّة واكتشاف ما لا يُرى، أريد الوصول إلى نهاية هذه المهزلة. أين الحكاية يا هادي؟ وما علاقة ابن عمّي الذي سيصبح نائبًا؟! أوّل مرّة نائب عنّابي، ضحك هادي وقال لي أنّ الكثير من العنّابيين سبقوه إلى مواقع السلطة، حتى وإن كانت جلودهم نسيت رائحة التبن، وكثيرًا من العنّابيين تلاقوا في مواقع مختلفة، متعارضة، فكانوا الجلّادين والضحايا في آنٍ واحد، الحاكم والمحكوم. البرّية الشرقية امتدادٌ شاسعٌ، مُحيّر، أرغبُ في أنْ أركضَ حتى أصلَ إلى نهاياتها، هناك أضع حجرًا تحت رأسي وأنام، أو أجد حبال الليف الموصلة إلى تلك الموائد التي يجلس حولها عنّاب وحوله صحبه، لم أعد أرغب في مجاراة هادي، كلّ شيء أمامي، الوثائق الضائعة لا أحتاج إليها، التاريخ يكتب هكذا من فراغ ثمّ يبدأ رسم الحدود، كلّ التاريخ كتب من فراغ، هم كتبوا تاريخهم ونحن يجب أن نكتب تاريخنا، لكنّ بأيّ لغة وكيف؟! وأحمد الجمل بأيّ لون سيخطّ الدروب والسماء والبيوت وأرواح البشر، شكل شواهدهم وعبق أنفاسهم حين يعشقون، كيف ستبدو عائشة في الحكاية، كيف ستدلّي قدميها هازئة بملل العنّابية، واللحظات المنفلتة سهوًا؟ كيف ستمدّ لسانها لحجارة العنّابية وتخطو على درب الغياب، وهناك في مكان ما ستخلع روائح جلدها، وتبقى العنّابية كأيقونة تحفظها في أعماقها وترشّ على جسدها ما تشاء من العطور التي يحبّها رجل يأتي إليها فتهفهف في اتجاهه كحمامة؟ كيف يبدو

جسدها المتشقّق من طول الانتظار، من الجفاف، من الخوف، من الأخلاق التي لا تعرف متى ترفع سيوفها لتقتصّ من مسامّها وشفتيها العذبتين بامتلائهما؟ أيّ تاريخ هذا الذي يتسرّب من شقوق سروالها ويمضي تاركًا كلّ شيء للعَمَاء؟ أيّ نفس عذب يتركه شهيق المرأة على رقبة الرجل؟ كأنّي بدأتُ أخاف من انهيار كلّ شيء وضلالي، يُضَيِّعُّني الضجر فأنتظر زرع الشواهد وأحفظ كلّ تفاصيل اليوم العنّابي، العنّابية التي لا تطيل السهر في الشتاء ذابلةٌ فوانيسها، أرى جدرانها ترشح سأمًا وضجرًا أحالا عائشة إلى كتلة أحاسيس حاقدة على هذا الخواء الذي انتظرت انهياره طويلًا فاختارت الماء صديقًا حين يسيل على جسدها، يتغلغل في مسامّها، ينحدر من بين نهديها الأسمرين، الصلبين، كأنّ تلك الأصابع التي تعرف سحر لذّتها بدأت تطهيرها. أمي قالت أنّها لن تسافر، فاجأتني رغم أنّي لم أكترث كثيرًا حين أكّدت أنّني سأسافر مع عائشة لتشتري أغراضًا وتزور بيت عمّها أيامًا قليلة وتعود، لم أناقشها، نظرتُ إلى عيني عائشة، ورأيت البريق نفسه الذي لا يخبو. كلّ يوم أحبّها أكثر، أحبّ هذه القوّة وهذه الحيويّة التي يُضفِيها حديثها حين تبدأ التعليق على حديث عنّابي لا يُصدّق، أو حين تريد أن تثير أحدًا فتوقظ الرغبات النائمة، في الليل قالت لي عائشة أنّها فرحة، سترى العاصمة وتتجوّل في شوارعها. في الصباح، استيقظتُ مبكرًا على جلبتها وكانت ترتدي فستانًا جديدًا ملوّنًا بأزهار حمراء منمنمة، محتشمًا وطويلًا، وفوقه جاكيت من الصوف الأسود وتفوح منها رائحة عطر أعرفه، أمي همست لها بكلمات كنتُ أُقدّر فحوَاها، مجموعة من الوصايا لا بدّ منها. خرجنا من العنّابية، انتبهت إلى غبش الصباح، البرّية الشرقية ضباب، كلّ شيء ضباب، نظرتُ إلى عائشة كانت عاشقة... هادئة... متوازنة... خائفة من شيء ما، فقدت جرأتها في الحديث والتعليق اللاذع الذي لا يفارقها، استرخت وانشغلت بالتأمّل، كأنّها تسترجع حساباتها، بوّابة العاصمة كانت مفتوحة على حديقة كبيرة انتصبت وسطها لوحة معدنية رُسِم عليها جنود وعمّال وفلّاحون، لا أعرف ما إذا كنتُ نمتُ خلال الساعات الأربع، أم إنّي كنت في غيبوبة من الأحلام، عائشة قالت أنّني نمت وكنت أشخر ولم أنزل معهم عندما استراحوا في كافتيريا على الطريق وتناولوا العصير، كانت عائشة مندهشة تُحَدّقُ في كلّ شيء، الأبنية العالية، النسوة اللواتي يسرن على الرصيف فرادى وجماعات، متأبّطات أذرع الرجال أو وحيدات، تتابع بنظراتها مداخل المدينة، كانت الجدران بدأت تغصّ بصور المرشّحين لمجلس النوّاب، واللافتات المؤيّدة لمرشّحي الحكومة تشرح أهدافهم، كان كلّ شيء يُثْقِل عليّ، صور رجال معلّقة على الجدران، قال ابن عمّي لمُرافِقه أن يُنزِله في مكانٍ لم أتبيّن اسمه، ويتابع بنا إلى بيت عمّي، الذين فرحوا بنا، أتت امرأة عمّي وقبّلتنا، ثمّ أثنت على جمال عائشة ونظافتها. ثمّ قادتنا إلى غرفة الضيوف كما كانت تُسمّيها، وأخذت عائشة من يدها إلى غرفة أخرى، وقالتِ لي أن آخذ راحتي في هذه الغرفة المفروشة بستّ كنبات

قديمة ومهترئة قليلًا وعلى الحائط رأيت صورة لعمّي، يبدو فيها في عمرٍ لا يتجاوز الثلاثين سنة، التفتّ أولاد عمّي حولي وقالوا لي احكِ لنا عن العنّابية، وسألوني عمّا إذا كان أبي هو الذي توفّي الشهر الماضي. المُرافِق أبدى استعجاله، وقال أنّه سيأتي مساء لاصطحابنا في مشوار، عائشة كأنّ المكان غيّرها، بدت خجولًا، وهي توافق وتطلب منه بخفر ألّا يتأخّر، كلّ شيء كان مملًّا منذ اللحظات الأولى عكس ما توقّعت بأنّي سأجد شيئًا جديدًا، الشوارع المزدحمة كانت تُضيّعني وتجعلني أحسّ بأنّي سأتبخّر في كلّ لحظة، وأنّ نقَاط العَلام التي نبحث عنها والخرائط التي أُعيد رسمها مع هادي العنّابي ما هي إلّا مهزلة أمام هذا الطوفان الهائل من الضغط الذي أحسسته. صور المرشّحين كانت كلُّها تنظر إليّ واللافتات المحيّية للحكومة كانت من الكثرة بحيث إنّي خلت أنّ معلّم الرياضة سيُمسِك بأذني الآن ويُخرِجني إلى السبّورة ويركلني أمام كلّ التلاميذ ويقول لي هل رأيت كم أنت خائن وكلب؟ ويأمر التلاميذ بأن يبصقوا عليّ ويرشقوني بأحذيتهم، التلاميذ سيتردّدون قبل أن يبصقوا عليّ، وفي الخارج سيعتذرون منّي ويتضامنون معي، عائشة تفاهمت بسرعة مع امرأة عمّي التي تحاول دومًا إبراز شبابها الزائل، والتظاهر بتأقلمها مع الجوّ في العاصمة،، قدّمت لنا القهوة بفناجين نظيفة وكانت تمطّ الكلام وتريد إفهامنا أنّها نسيت لهجة العنّابية وترأف بسكانها، الذين يأكلهم الوسخ، عائشة توافق أحيانًا، وأحيانًا أحِسّ بِلؤمٍ يتلبّسُها فتعيد تَذكيرها ببيتهم المؤلّف من غرفة وإصطبل. فتجعلها تتوقّف قليلًا وتسألنا بالتفصيل عن أحوال الجميع. عمّي أتى مساءً، وقال أنّه سيتناول عشاءه ويعود، وسيأتي صباحًا بعد موعد انتهاء ورديّته من حراسة البناء، سُرّ بحضورنا، سألني عن كلّ شيء في العنّابية، المواسم، المطر، أمي وجدّتي والعنّابيين، بطيبته كان يهزّ رأسه، ويحمد الله على كلّ شيء.

العنّابية طين وجدران مبلّلة بالمطر، وحشة المكان والمساء المتثاقل يتهادى، كأنّي رأيتُ آخر المشيّعين وأنا أراقب الشواهد في المقبرة، قالت لي أمي تدثّر قبل أن تخرج، تدثّرت أم خرجت عاريًا، المهمّ أن تبحث عن درب الأرواح كي تهتدي أخيرًا إلى ملاذك الأخير قلت لنفسي، كانت العنّابية وجهًا ممسوح التضاريس، كلّ شيء ممحوّ، من دون نكهة، ومن دون ملامح، كلّ يوم أغوص أكثر وأشعر بأنّني سأغرق في هذا الوحل وسيلطّخني الطين، لن أصل إلى تلك الأبجدية التي أبحث عنها، لا أحد يمتلك الحقيقة. قلت لجدّتي ارحميني أريد أن أقذف بكلّ ما أعرف من النافذة ليتحطّم الزجاج المعشّق وتضيع خطوات الرجال. لم أعد أرغب في شيء، لا أريد أن أكون شاهد هذا الجنون، هذا التبعثّر، هذا الألق المفقود، قلت لهادي ونحن نعبر في اتّجاه درب الغياب، قال هناك حجر خبّأت تحته المفاتيح قبل أن تضيع الخرائط، قلت له مللْت الوهم، لماذا تحاصرون الحكاية بأوهامكم؟ قل ما الذي حصل حتى ضلّت الأبجدية طريقي؟ قال لي جادًّا وبدا لِي أنّه غاضب إذا كنت تظنّ أنّ الحياة

جملة من الحقائق فأنت واهم، يجب أن تخلق وهمك كي تعيش، وأشار إلى صخرة كبيرة وقال لي هناك خبّأت مفاتيحي التي تُفيدُك إن وجدتها، حتى لو كانت صدئة، سرت وحيدًا إلى الصخرة وعرفت أنّها مدخل إلى كهفٍ يُشبِه كثيرًا كهف أحمد الجمل، الظلام في الداخل والإحساس باللاجدوى يجعلانني أعود ضائعًا، تائهًا. في البرّية الشرقية أرى الظلام وقد حلّ ثقيلًا كعادته في الشتاء، العنّابية صامتة، صامتة وأضواء الفوانيس ترسل ضوءًا شحيحًا لا يُوحي بأنّ هذا المكان مأهول، قرب شاهد أبي رأيت البغلين اقتسما الفسحة بين قبره والقبر المجاور، كلّ ليلة كان المطر يزيد نتانة قروحهما، والشمس في الصباح لا تستطيع تجفيف عفنها، واحد منهما بدأ يعرج ويتحامل على ألمِه كي يستطيع الابتعاد خطوات باحثًا عن بقايا عشب أو تبن من بقايا البيادر، البغل البنّي ما زال يجول في أزقة العنّابية وحيدًا، يقف قرب عائشة التي تُمسّدُ له رقبته وتسقيه وتبتهج حين ترى امتنانه العميق للمستها. المقبرة تبدو لي أكثر الأماكن حرّية وصخبًا كأنّني أرى الأموات مُعلّقين على أغصان شجرة التوت الكبيرة التي تُظلّل مزار عنّاب وما حوله من قبور، وتقول جدّتي أنّها شجرة عنّاب التي احتمى في ظلّها وأقام تحتها حتى فارق الحياة. أمام باب الكهف، رأيت أحمد الجمل فأومأ لي بالدخول، دخلت، قال لي أنّه ذاهب وقد يتأخّر، كانت رائحته العطرة ووجهه النظيف وحالته النشيطة توحي لي بارتياح لم ألحظه من قبل، تابع أنّني أستطيع العبث بالمكان كما أشاء وفطّوم تنتظره. وقد وعدها بأنّه لن يتأخّر. رأيت ظهره وهو يغادر ويخبّ على الدروب غير المألوفة، بين السناسيل، ويدخل الأراضي المحاذية للطريق، يتخفّى أحمد كي لا يراه عنّابي يفسد عليه متعته. دخلت الكهف وجلست على الأريكة. شعرتُ بوحدة رهيبة وإلفَةٍ لم أشعر بها من قبل. تسمّرت في مكاني، رأيت على المرسم اللوحة نفسها التي لا تنتهي، بحثت عن وجه الله، عن ملامحه، الخطوط الأساسية التي توصلني إلى تخيّل الوجه أخيرًا، كان كلّ شيء ضبابيًّا، الألوان متغيّرة، البياض مرّة أخرى غشى عينيّ، والفقدان الذي كنت أحاول ألّا أصل إليه، تلبّستني حالة الانتقال إلى مكان آخر، ترك هذا الكهف الذي مارس عليّ خلال اللحظات القليلة نوعًا من الهيمنة التي لا أستطيع الهروب من مناقشة حقائقها، وتذكّرت أنّ هادي أخبرني بأنّ المفاتيح تحت الصخرة، وتحت الصخرة سراديب لا أقوى على رؤية نهاياتها، باب المغارة واضح، ضيّق يسمح بمرور جسد طفل في الثالثة عشرة من عمره، بمرونة كنّا ننزلق، أنا وسلمان وجماعته إلّا أنّنا لم نجرؤ على الإيغال بعيدًا، كان الظلام مخيفًا، أين ضيّعتَ المفاتيح يا هادي؟ على الطاولة الكتاب الفرنسي وقد مسح الغبار عن غلافه وصفحاته، فرأيت رسمًا لرجل يلبس ثيابًا مزركشة وبيده أنبوب اختبار، أدركت أنّه طبيب عبّاسي أو أموي، لا يهمّ كثيرًا. أحمد وضع تحت بعض الكلمات خطوطًا حمراء، وأخرى شدّد عليها، أريد الخروج، لا تستطيع قدماي أن تحملاني وتسيرا كما كانتا تفعلان. لو أستطيع الاسترخاء، لا أستطيع. كأنّ هذه

الريح الشتائية ستمحو آثاري وتطمرني، تنثرني في أرجاء العنّابية كي أضيع، فكّرت أنّ أنسب وسيلة لمقاومة هذه الحيرة ألّا أغادر كهف أحمد الجمل أو أنشغل حتى أذنيّ كما كلّ العنّابيين بزراعة الأرض ثمّ السأم والضجر، ولفّ سجائر التبغ والتحدّث ببطء أو الرحيل عبر درب الغياب، متناسيًا المفردات والصفحات والخرائط والمجلّدات التي ضاعت تحت الغبار تاركًا هادي العنّابي بيديه النظيفتين ووجهه النضر جالسًا عند الزاوية منتظرًا إبحار السفن مرّة أخرى محمّلة بالسمسم والقطن والرجال. المكان مرّة أخرى حامض ومثير للهزء بكلّ ما يحمله من ثبات، لا أرى أمامي كأنّني لم أتنبّه إلى أنّني مللتُ فعلًا هذه اللحظة التي أعبر فيها تحت القنطرة كي أصل إلى أرض حوش مفتوحة على سماء واحدة، أصعد إلى غرفة عائشة التي تركت لي الفراش ممدودًا قرب النافذة كأنّنا نتبادل الأدوار، ونتفاهم بشيفرة سرّية وبانسجام كامل، كان وجهها مكشوفًا، حالمًا، قويّ التفاصيل بما يكفي كي ألحظ أنّها تنتظر شيئًا ما، قد يكون رجلًا، مدينة، صديقة، طفلًا، حكاية تُروى... مُدوّنَات تقرأ، عائشة هي الهَتْكُ الوحيد للزمن، تضامنتُ معها أكثر حين أيقنت أنّها عاشقة فعلًا، ولا تعبث فحسب كما كنت أخمّن وأقدّر من تلصّصها، بدت لي مهمومة حين كنّا في العاصمة رغم انبهارها الشديد بالأضواء وألوان الثياب الفاضحة التي تحبّها، واعتززتُ بها حين أفحمت امرأة عمّي ونسوة الحيّ اللواتي تعرّفت إليهنّ فأصبح وجودها ضروريًّا في دائرة القهوة الصباحية، بدت منفتحة، مرحة، لذيذة، حلوة بثيابها المدنية، بانت لي ساقاها المنتوفتا الشعر عمودين من مرمر أسمر، مصبوبين بعناية من دون أيّ خطإ، وأبدت خبرة فاجأت الجميع وهي تُظهر ركبتها بلؤم حين تلفّ ساقًا على ساق وتَدّعي أنّها تركت الروب ينزلق ونسيته ثمّ تتنبّه إليه فَتُنْزله بهدوء وتأنٍّ. كلّ شيء فيها بدا لي حلوًا، رغبتُ في ترك مَهمّة التدوين لها والبحث عن الكلمات والمفاتيح والخرائط في أنفاق الظلام، كانت نائمة ومن تحت اللحاف لحظت ساقها الخارجة عن سيطرة اللحاف. امرأة تعبد جسدها، حركتي أيقظتها، نظرت إليّ ملقية التحية ثمّ عادت للنوم. تشمّمت عبق الشرشف، وعرفتُ أنّها منحت أسرارها، تحتفظ بالشراشف في خزانتها ولا تسمح لأحد ملاحظة أنّها لا تستطيع النوم على أيّ شرشف ما لم يكن معطّرًا. وسط هذا القَفْرِ تُقيم مملكتها الخاصّة، لا تتكلّم عنها ولا تفصح، حتى جلساتها السرّية مع البنات بدأت تفقد بهجتها وما عادت تُثيرها، أو تملأ خيالها برغبات جامحة في الانعتاق، وما عاد ذكور العنّابية يعنون لها شيئًا، أصبحت أكثر تحفّظًا بعد موت أبي، ما عادت تُفسح مجالًا للعيون أو للكلمات القليلة المتساقطة من أفواه العنّابيين أن تُغريها بالابتسام، ما جعلهم يُحجِمون عن التغزّل بغندرتها واقشعرار بدنها بلذّة حين تتسرّب المياه إلى رقبتها، أصبحت بعيدة، كأنّها تُحلّق وحدها فوق الخرائب وتصعد إلى منارة عنّاب كلّ ليلة، هناك تجلس وتشارك الأموات الضياء والحقائق الأزلية التي ما زلت أبحث عنها. عائشة تفلتُ من يدي بنضوجها الذي كنت أعرف أسبابه،

الحبّ يجعلنا دومًا في مواجهة الذات والتفاهة، هذا ما قلته لنفسي وأنا أرى بريق عينيها حين يمدّ المُرافِق يده ليصافحها، تمدّ أصابعها متمهّلة تريد احتضان يده والصعود إلى رقبته أمام الجميع، لكنّها تؤجّل كلّ شيء. وصل المُرافِق وحيدًا وأخبرنا بأنّ ابن عمّي سيلحق به في الأيّام المقبلة، أي قبل الانتخابات بيوم، أنزل المُرافِق من السيّارة صندوقًا كبيرًا وبطّاريتين كبيرتين وقال هذا تلفزيون لتتابع العنّابية الانتخابات في الشاشة، قالها بفخر وطلب منّي مساعدته بنقل الأغراض إلى غرفته، أمي قالت له أن يعتبر نفسه في بيته وأنّه أصبح واحدًا من أفراد العائلة، المُرافِق شكرها بتأثّر وناولها صورة كبيرة لأبي، كان قد أخذها ابن عمّي وقال أنّه سيُكبّرها ويبروزها ويلوّنها ويأتي بها لنعلّقها في صدر الغرفة، أمي وافقت بحماسة، ورأيت عينيها تلمعان وهي ترى أبي مبتسمًا، كان شابًّا حين زار العاصمة وأقنعه مصوّر في الحديقة العامّة بالوقوف قرب النوافير والابتسام، وقف أبي قرب النوافير وابتسم وانتظر حتى ناوله صورته التي قال عنها أعجوبة أن تثبت هذه الابتسامة في الزمن، احتفظت أمي بها في صُررها الكثيرة، حملت الصورة بين يديها وذهبت إلى غرفة جدّتي التي لوّحت بيدها بعد أن تأمّلته مليًّا، ولم تتكلّم عمّا أحبطها، ورغم ذلك علّقتها في صدر الغرفة ووضعت فوق جزئها العلوي إشاربًا شفّافًا ملوّنًا بأزرق متماوج متداخل مع أحمر فاقع كانت قد اشترته من القرباط منذ سنوات بعيدة، عائشة ضحكت حين رأت الإشارب وتهكّمت بأنّ أمي كانت تستعمله للإثارة، وقالت للمُرافِق أنّها ستعدّ القهوة، جلسنا جميعًا على قرص الدرج نُدخّن ونرتشف القهوة، كانت القهوة لذيذة وكنتُ أُحِسّ بإلفة أوّل مرّة أشعر بها تتوالد تجاه المُرافِق، بدا مرحًا وطيّبًا وذكيًّا، كان يجلس قربي ورأيت نظراته مصوّبة على نهدَي عائشة البارزين وقد أبرزتهما حين كانت المياه تفور في دلّة القهوة النحاسية، أكملت استعدادها في الغرفة وحملت فناجين نظيفة. وبدت أنّها تتبختر في أرض الحوش، المُرافِق قال أنّ لديه الكثير من العمل لينجزه وأخبرنا بأنّ ابن عمّي ضَمِنَ نجاحه لأنّه نزل في قوائم الحكومة ممثّلًا عن العمّال والفلّاحين. وأنّ جورية وراء هذا النجاح وجميع مرشّحي الحكومة ناجحون سلفًا. استغربت كلامه الواثق كأنّه يتكلّم حقيقة لا أعرفها، سألته عن جورية، كأنّه تورّط في ذكر اسمها أمامي، فغمغم بأنّها امرأة مهمّة، وهي معلّمة ابن عمّي وسكت، ونظر إلى عائشة التي بدت أنّها تعرفها أو سمعت عنها أو حتى من الممكن أنّها جالستها وتحادثت معها حين كنّا في العاصمة، عائشة قالت علينا إغلاق هذه السيرة ولنتصور، لقي اقتراحها قبولًا شديدًا من المُرافِق الذي نهض وقفز إلى غرفته ليحضر الكاميرا، تركتهما ومضيت. العنّابية في النهار شيء مختلف، شمس وهواء بارد قليلًا، العنّابيون في أراضيهم يُحَضّرُونها للبذار، منهم من بَذَرَها. وجلس ينتظر المطر كي يضمن أنّ حبّات الجلبان والشعير والقمح لن يلتقطها الطير المهاجر، بل ستغور في أعماق الأرض وتنتش ثمّ ترتفع سيقانها كي تقارع الريح فيرتاح أخيرًا ويطمئنّ

إلى تحضير مؤن الشتاء، والعنّابيات بعضهنّ مع رجالهنّ في الحقول، بعضهنّ من ملأ الإحساس بالوحدة أجسادهنّ ولحظاتهنّ فكنّ يبتسمن أو ينظرن بخفر ومن دون تركيز، رأيت فطّوم في طريقي وكانت تحمل الماء فوق رأسها، كان صدرها ذابلًا وعيناها مطفأتين، سلّمت عليها ومضيت، ردّت السلام بحرارة كأنّني شريكها في السرّ، وقد بدأتُ أؤمن بأنّ العنّابية لا تخبّئ أسرارها طويلًا لكنّها تسكت عنها، الجميع يعرف ويسكت، هذا هو القانون. خرجت إلى الأراضي وقاسمت العنّابيين زوّاداتهم باحثًا في وجوههم عن اللغة التي لا أصل إليها، والتي تفرّ قبل أن تندرج أمامي كي تشكّل الأقسام الممحوّة من الحكاية المفقودة، عدت مساءً إلى الحوش وسمعت ضحكات عائشة العذبة وأصواتًا أخرى. انعطفت إلى غرفة جدّتي كأنّني أبحث عن مستقرّ لخطواتي الضائعة، زليخة قريبة منها تبدو من مكاني على العتبة أنّها تحتضنها، ووجه جدّتي قاس، جافّ، تتفوّه بكلمات متقطّعة لم أفهم منها شيئًا، زليخة خائفة كأنّ كارثة ستحلّ أو أنّ جدّتي تحدس بأوامر للشياطين أو للأرواح التي تناساها الزمن، فغابت في الزحمة التي غَلّفت كلّ شيء، شعرت بأنّني زائد عن حاجة المكان وأنّ جدّتي لا ترغب في رؤية أحد، في هذه اللحظات التي قدّرت أنّها متوحّدة مع ذاتها، تركت العتبة واستدرت. السماء تمارس غوايتها، وتهبط على يدي، أسمع صدى خطواتي في أرض الحوش، جلبة السهر المنبعثة من الغرفة الكبيرة، عائشة تروي وصوتها العذب يصلني ثمّ كلمات أمي المتقطّعة، صعدت إلى غرفتها، حيث أحببت أن أشاركها أسرارها، الضوء ذابل، وكلّ شيء ساكن. فتحت النافذة، وجلست في فراشي، غالبت قلقي ورغبت في نوم عميق لا يوقظني منه أحد، نوم مُبكّر، ترتيب جديد للعادات، وددت لو أنّني أستيقظ مبكرًا، أعلف البغلين، وأخرج مع العنّابيين حيث الحقول، وهناك أستقبل الصباح متفائلًا ثمّ أدخّن وأتكلّم عن المواسم، وأسترخي في المساء وأعبث بالتبغ وجسد امرأتي، لا أدري ما إذا كنتُ سمعتُ الضجيج الذي رافق نهاية السهرة، وصعود المُرافِق إلى فراشه الممدود وسط الغرفة، أو أنّني سمعت همس عائشة له أنّها لن تتأخّر حتى تلحق به، أمي أطفأت الضوء، أغلقت النافذة والباب، وكلّ شيء سكن. عائشة كأنّها فوجئت بي وأنا أحاول النوم وبعينيّ المغمضتين، ما أوحى إليها بأنّني نائم منذ وقت، جالت في الغرفة بهدوء ورأيتها تخلع ثيابها، وعبقت روائح الكريم وعطور لم أتشمّمها من قبلُ في الغرفة، رأيتها من خلال غبش عينيّ وهي تدهن جسدها، رقبتها، طفح نهديها، ساقيها، ما بين ساقيها وبطنها ثم أخرجت من صُرَرِها قميص نوم شفّافًا لم أره من قبل، لبسته فالتمع جسدها من بين نسيجه، فَرَدَتْ شعرها وأعادت ترتيب خصلاته، وجلست في فراشها قلقة تدخّن غير آبهة بوجود أيّ كائن، كأنّها ملكة على خرائب. عصف الليل ينذر بمطر عنيف، تسلّلت عائشة من فراشها، لبست عباءة سوداء وخرجت، وأنا أتقلّب بين النوم واليقظة، إلّا أنّني رأيت كلّ شيء. ذلك الهتك اللذيذ لجسد امرأة تتمنّى لو أنّ الحياة كوب

ماء صاف لتشربه أكثر من مرّة وهي لا ترتوي، رأيتها، لحقت بها أم إنّ نظراتي اخترقت المكان من ثقب الباب أم من النافذة، أم إنّني كنت حارسًا لرغباتها، وقفتْ على العتبة هادئة، نهض المُرافِق واحتضنها، أشارت له بيدها وقالت له تمهّل، عبرت العتبة وخلعت العباءة، أسرار جسدها كانت مفضوحة، زنداها الأسمران العاريان، نهداها الأسمران الراغبان في الصراخ والخروج من نعومة الساتان الشفّاف.

المُرافِق ارتبك، أخرجت عائشة من صُرّة أنزلتها من الخزانة شرشفًا أبيض معطّرًا ومدّته على الفراش، رتّبت مكانها واضطجعت بين يدي المُرافِق، كان وجهها مهمومًا، كأنّها عبرت في هذه اللحظات وأصبحت متمهّلة في ترتيب أمور لذّتها، عَرّت صدرَ المُرافِق، وهي تخلع عنه قميصه الداخلي القطني، تحسّست جلده، صدره وغابت في رائحته، المُرافِق ضاع في عبق جسدها، وكنت أرى نهديها متدليّين من دون سوتيان وبطنها اللامع في شحوب الضوء، ساقيها وهما يلتفّان حول حوض المُرافِق، الذي بدأ يهنهن ضائعًا بهمساته وسط صوتها المكتوم. صوت لذّتها، كانت عارية تعيد اكتشاف كلّ شيء دفعة واحدة كأنّها تكتب تاريخها الخاصّ غير آبهة بالخرائط الضائعة، كان صوتها المبحوح عذبًا، عنيفًا، وهي تهمس في أذنه المشبوبة أن خذني. المُرافِق لم يتلكّأ، في عتمة السراديب كانت تتكشّف اللحظات التي لا تموت، خيط الدم الذي بَقّع الشرشف لم يُخفْ عائشة قدر ما أخاف المُرافِق الذي صُدِمَ حين وجدها غير آبهة كأنّها تختار مصيرها وتنكشف كلّ الأشياء دفعة واحدة هكذا، قال لها أنّهما سيتزوّجان وقالت له في أسرع وقت، لم تعد تستطيع احتمال العنّابية وضجرها، امرأة منحت نفسها لرجل تحبّه، حقيقة لم أستطع أن أُخبِرها بأنّني رأيتُها أو سمعتُها أو خَمّنتُها. بعد سنوات طويلة ونحن عابران في شوارع بعيدة، في مدينة بعيدة وهي تروي وتتذكّر طعم تلك اللحظة، تصف لي ارتباك المُرافِق، قلت لها أنّني كنت شاهدًا فضحكت. عائشة تجول في أرض الحوش ثمّ تقدّم القهوة للمُرافِق، قَبّلت شفتيه، رقبته، صدره وانزلقت إلى بطنه إلى ساقيه وفَرّت تاركة القهوة قريبة من الفراش، قال المُرافِق أنّه سيذهب إلى عفرين وأستطيع الذهاب معه إن أحببت مُرافقته، وكان ابن عبيد منذ الصباح قد أخرج الرزم الورقية من الإصطبل وبدأ يفردها، صور ابن عمّي... وكلمات... شعارات وكلام كبير حول التجربة الديمقراطية، أمره المُرافِق بتعليق الصور في كلّ مكان في العنّابية والقرى المجاورة، ابن عبيد هزّ رأسه دلالة على الفهم، وغادرنا إلى عفرين، المُرافِق يبدو مهمومًا، وهو يقود السيّارة ويسألني عن العنّابية ودراستي وجدّتي ويُبدي تأفّفه من هذه البلادة والتخلّف. كنت أردّ بكلمات مقتضبة وأقول له لا أدري. شردتُ بنظراتي، كنت أشعر بأنّني أرى المكان أوّل مرّة، عفرين تظهر لنا من بعيد، نقترب منها، أرى انتظام شوارعها وأتشمّم رائحة أشجار الزيتون والرمّان ثمّ ومن فوق الجسر أرى النهر بمياهه المختلطة بالطين وعبثه في الضفاف غير المحدّدة ومحاولته رسم خطّ

لمسيره، النهر العابث بمحاولات تطويقه وسرقة مياهه، كان يخترق البساتين ويُضِيفُ ألقًا على صفحة وجهه المليئة بالندوب، يهزأ بالعفرينيين الذين يستهينون به، بالفلّاحين النازلين من القرى الذين يبصقون وهم يرون مجراه العريض، أعماقه الضحلة، علاقة خفية تربطني بضفافه، كنت أتنزّه قريبًا منه، وأداعب أشجار الرمّان وأشكو له كلّ هذا العبث، كنت أحلم بأنّني أستدرج المعلّم الذي لم يترك مناسبة إلّا وبصق في وجوهنا وأعلمنا أنّنا خونة لأنّنا لا نستطيع الصراخ والدبكة وشتم رؤساء الدول الأخرى، كنت أحلم بأنّني ومعلّم الرياضة على ضفاف النهر، أقول له اخلع ثيابك، وهو يرتعد خوفًا من حلفي مع النهر، حين يخلع ثيابه، كنت أقول له انزل إلى النهر فيرجوني ألّا أتركه لبرودة المياه ووسخ الطين، أقول له انزل فينزل وأتفاهم مع النهر بلغتنا السرّية.

النهر يلفظ جثّته بعد آلاف الأمتار فلا يتعرّفُ إليه أحد ويدفن في إحدى المقابر إلى جانب الكثير من ضحايا النهر، أعود إلى مدرستي، ولا أُخبِر أحدًا بأنّ النهر ابتلعه وما زالت الضفاف تلتمع في الربيع، العاشقون يختلسون النظر إلى بعضهم بعضًا ثمّ يقتربون حين يتأكّدون أنّ المكان خال، يغيبون في أدغال الرمّان والنهر شاهد كتوم، يغطّي وجهه كي لا يخجلوا ويكتب تواريخ لا يعرف كُنهها أحد، المُرافِق بصق على النهر، وقال أنّه ساقية، التفتّ إليه ولم أتكلّم، ونظرت إلى النهر، كان المعلّم والمُرافِق يغرقان وأنا أتآمر مع النهر، الضفاف خلفنا مبهجة، الألوان الفاقعة، عيون الكرديات، وشراويل الأكراد، أياديهم المرفوعة للسلام وطيبة وجوههم، أمام السراي قال المُرافِق يجب أن نسلّم على مدير المنطقة، ما زلتُ مشدوهًا ومرتبكًا، أشار لي بالنزول فنزلت، صعدنا الدرج المتأكّل الحوافّ، مخترقين الزحام الشديد لمراجعي موظّفي النفوس والمالية والقضاء، قال المُرافِق للشرطي الجالس أمام باب مدير المنطقة أن يُخبر معلّمه بأنّ أشخاصًا من العاصمة يريدون رؤيته وأعطاه بطاقة صغيرة، الشرطي نظر إلينا كأنّه يقيس قاماتنا ومدى أهمّيتنا، وأشار لي قائلًا هذا معك، فأجاب المُرافِق متبرّمًا كأنّه بدأ يفقد صبره، نعم معي، دخل الشرطي وعاد بعد لحظات قليلة، فتح الباب وكان وجهه أكثر بشاشة، قال تفضّلا، دخلنا القاعة الفسيحة التي تتصدّرها طاولة مدير المنطقة وخلفه خريطة طبوغرافية لقرى عفرين، نهض من خلف طاولته ورحّب بنا وهَلّلَ لهذه الزيارة المفاجئة.

مدّ يده وصافح المُرافِق الذي اعتذر عن مفاجأته، وقال كلمات مجاملة قبل أن يستريح على الكنبة المواجهة لطاولة مدير المنطقة الذي تناسى وجودي كأنّني تابع أو خادم للمُرافِق الذي كانت تفوح منه رائحة عطره ومن أصابعه تلمع ثلاثة خواتم ذهبية، أشار لي المُرافِق بالجلوس وقال لمدير المنطقة هذا ابن عمّ الأستاذ... أي بمثابة أخيه الأصغر، فتمتم ونظر إليّ مرحّبًا وطلب لنا قهوة، لحظنا ارتباكه رغم ضخامة جسمه والرُتَب على كتفيه، قال المُرافِق أنّ ابن عمّي يُهديه تحيّاته وقال كلامًا في مدحه. بدا لي مدير المنطقة خجولًا

ومتواضعًا وهو يردّ على التحيّات فخمّنت أنّ ابن عمّي فعلًا رجل قوي، حتى ذِكر اسمه يَهزّ مدير المنطقة الذي يُعتبر إلهًا يجثم فوق صدور العفرينيين الذين يلتقطون الرضا من زعفران خطواته، ويَدَي حُجّابه. تَكلّم الاثنان حول الانتخابات والاستعدادات الجارية كي تمرّ الأمور بسلام وتحدّث مدير المنطقة عن تلقّيه التعليمات الناظمة لعمليات الانتخاب، كان اللقاء ودّيًّا لم يقطعه سوى الحاجب الذي أتى بالقهوة ثمّ عاد مرّة أخرى حاملًا بيده ورقة وَقّعَها مدير المنطقة بعد أن همس له الحاجب كلمات لم أسمعها قبل أن نغادر، قال مدير المنطقة أنّه يرجو المُرافِق أن يُبلّغ ابن عمّي تحيّاته وأمنياته بأن يأتي لزيارته إذا أمكن وأنّ له طلبًا كان يتكلّم بخجل وتواضع، سأله المُرافِق عن طلبه، فقال لو أنّ ابن عمّي يتكلّم مع السيّدة جورية لتكلّم له وزير الداخلية كي ينقله إلى الأجهزة الأمنية أو يعيده إلى مدينته، لقد ملّ الغربة وقرف القرويين وزعرنات الحرامية، ملّ عفرين والأكراد. المُرافِق تفَهّم الوضع وهزّ رأسه ووعد بأن تصل الرسالة، وهو لن يرفض طلبًا كهذا لرجل مثله. ذاكرتي مثقوبة كأنّها تسيل الآن، أنا وسط كرنفال من الطين والوجوه المغبرّة، رجال يعبرهم الزمن فيتخشّبون ونساء عاريات يخرجن من النهر يصطففن على الضفاف ويمارسن الحبّ مع الماء، تنزل الآلهة من السماء وتَرتع على الضفاف، الآلهة وجوه متشكّلة من خمر، تفتّش عن النساء اللواتي لا يراهنّ أحد سوى الماء، تعود تلك الوجوه التي تغبّرت واندثرت.

أيّ حلم يلفّني الآن؟ عفرين زُيّنَت بلافتات من القماش الكتّاني الرخيص تُحَيّي المرشّحينَ، الجدران غصّت بصورهم ونظراتهم إلى كاميرا المصوّر الذي أعادهم شبابًا وقورين، رجالًا لهم هيبة وسطوة وقوّة لم تعرفها البلاد، كانت أسماء المرشّحين تشي بهم، لم أكن محتاجًا إلى دقّة ملاحظة فقائمة العمّال والفلّاحين تضمّ اسم ابن عمّي وإلى جانبه أسماء سبعة رجال هم أغوات عفرين ورجالاتها الذين قالوا في بياناتهم الانتخابية أنّهم يُحِسّونَ بآلام الفلّاحين وسيعملون على تحسين ظروف معيشتهم.

عفرين لم تُغَيّر من رتابتها شيئًا، كلّ شيء كما عرفته، شرفات المنازل حيث كنّا ننتظر أن تُطِلّ منها صبية كي نتحدّث عنها طوال اليوم، ونساء يجلسن أمام الأبواب يتحدّثن بكردية مرنة عن أسعار البقدونس والثياب ومواسم الزيتون ويتابعن انتظار رجالهنّ، رجال يمضون إلى أعمالهم ويعودون كي يشتموا ويشربوا العرق، ثمّ يمازحون الزوجات ويشتمون الأولاد، عفرين مكان يَغُصّ بالإلفة والنظام الذي يُخبّئ خلف أقنعته الكثير من الجنون الذي لا يراه إلّا من عشّش في تلك المنازل والأرواح والضفاف، مكان يُخفِي ذاته. عدنا إلى العنّابية فطالعتني الصور التي نَثَرَها ابن عبيد على الحيطان بشكل مُثير للضحك أو للعبث، قال أنّه انتهى من مهمّاته وبدا معتزًّا وهو يشير إلى المُرافِق، حيث علّق الصور أيضًا على أبواب الإصطبلات. والعنّابيون لم يكترثوا كثيرًا، تناسوا الموضوع بعد ساعات قليلة، مازحوا ابن عبيد وهو يحاول أن يجد

مكانًا للصق الصور وتعليق اللافتة الكبيرة التي تقول أنّ العنّابية تحيّي مرشّحها وابنها البارّ أحمد هلال وتدعمه بقوّة، فكّر ابن عبيد أنّ هذه اللافتة تصلح لصنع سراويل داخلية وقال للمُرافِق بأنّه سيحتفظ بها بعد الانتخابات، المُرافِق انزعج، لكنّه أدرك أنّ العنّابية لا تستطيع أكثر من هذا فسكت، وتابع أيّامه بين مراقبة عائشة التي تخلّت عن حَذَرِهَا وبدأت تنفرد به في الحديث وتغامر بأن تمدّ يدها إلى ظهره، تداعبه وتضحك بشبقٍ لامتناهٍ أو تدخل غرفته وترمي بنفسها في حضنه ولا تتوانى عن ممارسة الجنس معه ظُهرًا، والباب مفتوح وهو ما زال لا يعرف كيف يُبَدّدُ حيرته، أراه يتمعّن في تفاصيل جسدها المثير ثمّ يشرد بعيدًا، كلّ يومٍ كانت عائشة تستقبل الصبح معه وتتركه منهكًا في فراشه ولم تعد تنتظر كَي تطمئنّ إلى نوم الآخرين، بل كانت تُغافل الجميع وتمضي كأنّها تعبد الفضيحة، غدوت أنا منتظرًا هذه الفضيحة التي ستتفجّر بين لحظة وأخرى، حين أراها تدخل الغرفة، تدهن جسمها وترتدي سراويلها الضيّقة النظيفة، المثيرة، تتأمّل نفسها في المرآة قبل أن تلبس عباءتها وتخرج إلى غرفة المُرافِق.

زليخة كانت حزينة، بدت لي أنّها هرمت وجدّيتها بدأت تناسبها، قالت لي أنّ عائشة تبالغ كثيرًا في الاستهتار بمن حولها وأنّ الفضيحة لا بدّ واقعة وأنّها عرفت أنّ المُرافِق قد فضّ بكارتها وأنّه وعدها بالزواج وأخْذِها إلى العاصمة لتعيش معه، وعائشة تعامله كأنّه زوجها، ورجتني أن أنبّهها أو أتدخّل كوني رجل البيت كي أحميها وأضع حدًّا لهذا الاستهتار وهذه الدعارة كما سمّتها، ثمّ أخبرتني بأنّ جدّتي غاضبة جدًّا وهي تنهض ليلًا وتبدأ نهش الجدار الطيني ولا تعرف زليخة ما إذا كانت جدّتي قد بدأت تفقد عقلها أو أنّها ستموت، إذ بدت شاحبة أكثر من أيّ وقت مضى، وعصبية لا تستطيع الكلام بهدوء، لا تستمع لأحد، قالت زليخة ذلك وأوصتني بألّا أقول أيّ شيء عن نهوض جدّتي ليلًا لنهش الجدار.

في طريقي إلى كهف أحمد، كان كلّ شيء ساكنًا، اقتربت من المقبرة، أحسستُ بأنّي حرّ، بعيدًا من الأعين، السماء بألوانها المتداخلة، حمراء وسوداء وزرقاء وبيضاء، ذلك المشهد الداكن الذي ترتاح إليه نفسي كان بارزًا كأنّه سيهبط الآن بين يدي أحمد الجمل كي ينثره على قماش اللوحة الأبيض، قال لي أنّ وجه الله قد اقترب من التبدّل، ضحكت وقلت له أنّ هذا وهم من أوهامه ولم أدع له مجالًا كي يشرح، أو أنّه لا يرغب أصلًا في أن يشرح لي، أحسسته متعبًا والألوان التي أحضرتها له لم تُمسّ، ما زالت في علبتها أخبرني بأنّه سيترك العنّابية قريبًا وأحسست بأنّه هذه المرّة جادّ وهو لم يعد يطيق شيئًا وإن بَقِيَ هنا فسينتحر.

وحيدين نعبث بمفاتيح المكان، كأنّنا نصنع حبلًا من الأسرار كي نصعد إليه ونُشرف على لحظات العنّابية التي ازدادت سأمًا ومللًا، كلانا صامت، أحمد لم يرغب في متابعة الرسم وقال أنّه منذ ثلاثة أيّام توقّف عن مزج الألوان، كانت

اللوحة الكبيرة ما زالت موضوعة على المرسم، رأيت ألوانها البرتقالية والزرقاء نفسها، قلت له أريد البقاء هنا ولا أرغب في الذهاب إلى المنزل، قال تستطيع النوم على الأريكة وأنّه يجب البحث عن مفاتيح هادي، فهي أهمّ شيء سيقودني إلى خزائن العنّابية المغلقة، حدّثته عن صندوق جدّتي وذكّرته بالمغارة التي كنّا نعبث بها، أشار بيده أنّ الوهم هو سيّد الحقيقة.

في الليل، أتى سلمان، سمعنا صوته وهو يصيح بمرح واصفًا أحمد بالملك، رحّبنا به ونهضتُ كي أعدّ الشاي، قال سلمان أنّه يحمل تحيّات من أبي الهايم إلينا، وأنّه توقّع وجودنا معًا، لم يُفاجئني سلمان، كنت أنتظر أن يُكمل كلامه ويُخبرني عن خالي، أحمد التمعت عيناه وابتسم كأنّه اطمأنّ الآن على أبي الهايم، تابع سلمان وقال أنّه رآه هذه المرّة في العاصمة وأموره جيّدة، ويعمل ولا ينقصه شيء سوى الاطمئنان على الأهل والعنّابية، وقال سلمان أنّ أبا الهايم التقى بنشمة في العاصمة التي انتقلت إليها حديثًا وتنوي أن تُقيم فيها وتتزوّج بعَوّاد وقد أصرّت نشمة على أبي الهايم أن يبقى إلى جانبها، استطاعت أن تقنِعَه بالعمل معها في فرقتها رغم اعتراض عَوّاد، ما زال أبو الهايم يحبّها وهي تحبّه أيضًا، قال سلمان كأنّه يُقَرّر حقيقةً لا يعرفها أحد. توقّفت الكلمات في حلقي، أودّ أن أعرف كيف ينام العاشق، كيف يتزين! كيف تبرق عيناه حين تخطو نشمة بقامتها المتناسقة وجسدها اللدن، بروحها المنفلتة وهي تلفّه كي تتركه وراء زوابعها غبارًا معطّرًا أو رجلًا ذائبًا وزائدًا عن حاجة الواقع. صببت الشاي، وأحمد سأل سلمان عن أعماله في تركيا وطرق التهريب، قال سلمان أنّ العمل ما عاد كما كان، رجال الحدود زادوا حصصهم، أصبحوا شركاء ولا يقبلون بالقليل وأنّه يخطّط لضربة كبيرة سيرتاح بعدها ويمتلك مالًا كثيرًا، ثمّ اقترب من أحمد واتّخذ وضعية جدّية في حديثه وطلب منه أن يرعى شؤون والده الذي فقد عقله تمامًا وبدأ سيرة مجنون آخر من مجانين العنّابية، كأنّ تعاطف العنّابيين معه أحال روحه الشرسة إلى قطعة قماش بيضاء أو ورقة شجر يابسة من السهل الرأفة بها. أحمد صمت تمامًا، وهو يعرف كلّ ما يقال عن نوادر أبيه وآخرها أنّه يعتقد بأنّه محارب ينتظر المجاهدين لمرافقته إلى فلسطين. سلمان ألحّ على أحمد ثمّ صمت الاثنان، أحدّقُ في أمكنة لامرئية، أقفُ أمام بوّابة السرداب الطويل المظلم، أزيح الصخرة وأدخل في الظلام، تلفّني العتمة وأهتدي بأصابعي إلى جدران السرداب، أقلّبُ حجرًا وأبحث عن مفاتيح صدئة، أتوغّل أكثر لا ألحظ نورًا ولا أسمع سوى وجيبِ الصدى الذي وشّ في أذني، عاد الصَمَمُ إليّ وما عدتُ أسمعُ أصواتَ الصمتِ، أشعلتُ فانوسًا ورأيت المكان. سقفٌ مبقّعٌ برطوبةٍ أزلية وحوافّ السرداب ارتسمت عليها أشكالٌ غريبة لا أعرفها، جلست على حجر ولاحظتُ اتّسَاعَه وأيقنتُ بعد أن توغّلتُ كثيرًا أنّ مركز محور السينات قريبٌ من هذه الفسحة التي ظهرت أمامي، شعرت بأنّي أوغلت أكثر ممّا يجب وأنّ الجدران والسقف سينهار فوق رأسي وأندثر في هذا النفق

المجهول، عدتُ وما زلتُ أصَمّ، أقذف بحجر علّني أسمع صوته، إلّا أنّني في ملكوتي الساكن مُستَعذِب أغشيتي التي لا تهتزّ، عدت من الطريق الوحيد الذي أعرفه وأحسست بأنّني سأختنق، لمحتُ فتحة السرداب فأسرعت، كان الفانوس قد انطفأ.

كان هادي العنّابي واقفًا يستطلع ما حوله، حارسي أو دليلي إلى تلك الألغاز والضياع، أشرتُ له أن يساعدني على إعادة الصخرة إلى مكانها، أمسك بالفانوس، وأشار لي أن أعمل وحيدًا، جلست على الصخرة وما زال الصَمَم يتلبّسني، أشار لي بالتمهّل قليلًا كي يعود إليّ سمعي، تمهّلت وراقبت الغيوم المسرعة وأحسستُ بأنّ الوقت مهزلة... والتاريخ مهزلة... والخرائط الضائعة مهزلة، قال لي هادي هيّا خمّن لي موقع القافلة إذا كانت م هي شجرة الزعرور، قلت له أنّني أبحث عن مفاتيحه الصدئة، عاد إليّ سمعي تدرّجًا، وبدأت ألتقط الحروف من بين شفتيه، أؤلّف الجمل وأفكّ ألغازها، طلبت منه ألّا يتركني هذه المرّة وحيدًا فأسقط في الوحل أو ينهار السرداب على رأسي وأضيع مع القافلة والخرائط المفقودة، ضحك ورأيت شيئًا كالأسنان البلّورية تلمع في فمه، قال لي أنّ البحث في السرداب هو الذي سيوصلني إلى الحقائق التي لا يعرفها أحد. ثمّ ربّت كتفي وقال لي لا تيأس، قلت له إذا كان هذا السرداب هو بداية محور السينات فإنّه ينتهي في بيتنا، وأشرت بيدي إلى خطّ مستقيم يوصل إلى بيتنا، وتحديدًا إلى الإصطبل، أعجبته الفكرة وتحمّس فأشار بيده ثمّ تراجع إلى شجرة الزعرور، لحقت به ورأيته يُشير إلى حقيقة أنّ بيتنا هو ليس نهاية المطاف وإنّما يجب أن يكون هناك وادٍ ووافقني بأنّ البيت يقع على نقاط هذا المحور، وقال لي ارسم إذًا الخرائط مرّة أخرى ولا تترك المعلومات تتساقط من بين يديك وتضيع في الوحل أو يغطّيها الغبار.

غادرني هادي وأنا مضطرب أقف وأصرخ أنّ كلّ شيء كان وهمًا، القافلة وسبائك الذهب، عصا الخليفة والخليفة نفسه، كلّ شيء وهم.

القرباط هذا ما نحتاج إليه دومًا، الحلّ الأخير لهذا السأم وللعنفوان المنثور بين الخدوش، من كهف أحمد الجمل أرجو الله ألّا يثبت بملامحه الهائلة في خطوط اللوحة التي ما زالت تبحث عن ألوانها، سرت وحيدًا ورأيت أمامي.

باب حوش قديم في حيّ بعيد، كان الباب مفتوحًا، دخلتُ قال لي خالي لقد تأخّرت وسألني عمّا إذا كنت متعبًا من السفر، قبّلني وأجلسني قربه، وكنت أراقب أصابعه وهي تلفّ سيجارة التبغ الأشقر، تتمهّل قليلًا كأنّها المتعة الوحيدة، لم يسألني عن العنّابية وقال لي أنّه متوحّد الآن مع طيف نشمة، يرافقها في الليل مع أنغام الناي، وتتلاقى نظراتهما طوال الليل، تشدّ على يده قبل أن تودّعه وتأتيه بعد ظهر كلّ يوم ثلاثاء، تدخل امرأة متخفّية بألبسة سوداء، تغلق الباب وراءها وتخلع ثيابها وترتمي في حضنه، امرأة معطوبة، يابسة، حنون، هائجة ومجنونة، تترك له حرّية العبث بأزرارها وقماش الموسلين، بنهديها ومسامّها ورقبتها، قيل لها يجب أن تتزوّج عوّاد وتعمل في

أماكن اللهو، منذ زمن لم ينجب القرباط امرأة بهذه الفتنة، أحاطوها بحراسة وحدّدوا لها كلّ شيء، تزوّجت عَوّاد وقالت لأبي الهايم: كن رفيق دربي، أحبّك ولن أموت إلّا في حضنك. وهو كالنسيم يحيطها بذراعيه، كنت أراقب كلّ شيء، الغرفة الصغيرة تخرج عن طورها، تتلاطم الأشياء وتتناثر الفتنة، تأتي مرّة في الأسبوع بعد الظهر، تنتظر هذه الصلاة وتمارس طقوسها بخفاء قيمته مدفوعة للخدم والحرّاس وعَوّاد الذي أصبح كالمطّاط وهو يتأرجح كبندول حين تتأخّر في السهر وتعود مع مُرافقيها، تترك له كلّ شيء وتنام عارية ووحيدة.

نشمة أسرار الأرض تنفرط بين يدي رجل يرتّب غرفته ويتآمر مع الهواء كي لا يغلط ويثرثر على هواه، قبّلت خالي واستأنست بتلك النظرة الحنون، الوديعة، قال لي أنّه لا يستطيع الغياب عنها وجروحه الآن مندملة وسينجب منها ولدًا يسمّيه عنّاب وسيكبر مع القرباط ويغدو ملكًا، قالت له عرّافة هذه الكلمات وهو يعبث بسجائره فوق الأرصفة في المدينة الكبيرة التي لا يحبّ أضواءها ولا يريد سماع سيرة ابن عمّي وأولاد عمّي والعنّابيين، هذه صومعة العاشق وهذه سدرته.

لم تكن الصورة واضحة. كلّ شيء ضباب وطرق موحلة. العنّابية كأنّها تغيّرت. لم تعد تكترث لأن تفتح جدّتي كوّة في الجدار، هل تريد الصعود إلى مجمع عنّاب عبر حبال الليف أم إنّ الأمر مجرّد رسالة ونزوة؟! في النهاية لن يصدّقها الجميع. سيذهلون ويلطمون خدودهم، يشتمون كلّ شيء، صور ابن عمّي، ابن عبيد، البرلمان ومدير المنطقة والنفوذ المنتظر للعنّابية، وسيندمون، يبكون ويندمون، كانت الصور منثورة في كلّ مكان بشكل مضحك ومثير للدهشة أن تعلّق على أبواب الإصطبلات وأقنان الدجاج والأشجار وشواهد القبور، ابن عبيد كان ينثر هذه الأشياء التالفة من رطوبة الإصطبل، حيث احتفظ بها على تبنه كأنّ الموضوع هو نوع آخر من البذار وبانتظار إنتاش هذه الصور يجب عليه أن يبتسم حين يرى المُرافِق وبيده الكاميرا... يدعو العنّابيين كي يبتسموا وينظروا إلى العدسة، كلّ شيء يجعلني أكره الدوائر... ذلك البعد المتساوي من المركز.

جدران الكهف كأنّي أراها أوّل مرة، تأمّلت تلك الخدوش بعد أن تركني أحمد وحيدًا وخرج، قال أستطيع أن أفعل ما أشاء وألّا أنتظره، وقال أنّ الملل قد وصل إلى نخاعه، كلّ شيء له الطعم ذاته. البغل الأبيض المرابط قرب باب الحوش الواسع والعناكب المتدلّية، وجه عائشة البشوش الرضي. جسدها الذي بدا أنّه نضج فجأة فأصبح يانعًا، لذيذًا حين تستدير في هدوء ومكابرة، المُرافِق ألف المكان وأصبح أحد سكّانه المولعين بالتفاصيل الكثيرة. سير الراحلين، أخبار المطر، قروح البغل، أسعار التبن، رحيل أبي الهايم، القرباط وذكريات أثواب الموسلين وصافرات الجِنّ العابثة بخيامهم. برادع حميرهم، الانتخابات المقبلة التي ستتوّج العنّابية مكانًا يمتلك سلطة القرار وقنوات الاتّصال مع أعلى مستويات السلطة عبِر مرشحِ البرلمان الذي أتى إلى

العنّابية قبل الانتخابات بيومين، وبدا منهمكًا ومشغولًا وإن كان لا يكترث كثيرًا للنتائج التي ينتظرها الجميع.

في المساء، كان كلّ شيء جاهزًا، قبل يوم الانتخابات، أتى المُرافِق بالتلفزيون والبطّاريتين وسط دهشة العنّابيين وتلذّذهم بانتظار الشاشة التي بدأت تنطق وتبثّ أخبار الحملات الانتخابية في أرجاء البلاد. رجال يدبكون ونساء ينثرن الأرزّ، صبايا مجنّدات بألبسة عسكرية مستعدّات لحروب وهمية، اللون الكاكي يمنحهنّ ثقة مفرطة وطلّاب يصفّقون ويزعقون، الضجيج لم يشدّ العنّابيين وقتًا طويلًا، بدأوا ينتظرون المذيعة الجميلة التي تظهر لتتحدّث عن التجربة الديموقراطية الرائدة التي تعيشها البلاد ثمّ تختفي بعد أن تبتسم لتقدّم أغنية أو مشاهد لرجال ونساء لا يعرف أحد من جمعهم ولماذا. ابن عمّي كان مشغولًا باستقبال وفود القرى الأخرى الذين سُرّوا برُؤيَةِ التلفزيون المنصوب أمامهم في الخيمة الكبيرة، أبدى حيوية كبيرة، كان يتحرّك في كلّ الأرجاء ويشرف على الضيافة والشرح المطوّل، العنّابية لا تعرف كيف تتصرّف في هذه المناسبات، سأله العنّابيون كيف تُجرى الانتخابات؟! أسهب في الشرح والكلام عن أشياء لم يفقه الناس شيئًا منها فتابعوا التدخين وانتظار ظهور المذيعة في شاشة التلفزيون الذي كان صوته يهدر. صباح اليوم التالي، استيقظنا مبكرين على ضجيج الانتخابات، أتت سيّارة جيب وأنزلت ثلاثة شبّان مع صندوق وأوراق كثيرة، الشباب وقّعوا أوراقًا رسمية وجلسوا خلف طاولة مستطيلة طويلة وضعت في صدر الغرفة الوحيدة في المدرسة إيذانًا ببدء الانتخابات، توجّه بعض العنّابيين إلى الصندوق وسألوا كيف سننتخب؟! كان المُرافِق يشير إلى اسم ابن عمّي ويقول الثالث من اليسار اشطبوا كلّ الأسماء الأخرى، العنّابيون يقولون للشابّ وراء الصندوق أعطنا ورقة مشطوبة، يبصمون ويغادرون، يعودون إلى ساحة القرية حيث الخيمة ما زالت منصوبة.

في صباح اليوم التالي، كان الموظّفون الثلاثة قد ملّوا من غباء العنّابيين وثرثراتهم أمام التلفزيون مساءً وأسئلتهم الساذجة وتعليقاتهم اللاذعة، فبدأ الموظّفون ملء البطاقات من الجداول التي استحضرها ابن عمي من مديرية السجلّ المدني وبدأ الانتخاب. الأحياء والأموات. البشر والحيوانات. النساء والأطفال. المعارضون والموافقون. الغائبون والحاضرون، امتلأ الصندوق فختموه بالشمع الأحمر وسَلّمُوه إلى الجهة التي أتت لاستلامه وكافأهم ابن عمّي فامتنعوا عن البصاق على هؤلاء البشر واستغربوا أن يكون الأستاذ واحدًا منهم. مساء، سمع العنّابيون أنّهم بعثوا برقية يشكرون فيها الحكومة، وفي اليوم الثالث أذاع المذيع أسماء الناجحين وكان ابن عمّي من ضمن قائمة الفلّاحين والعمّال مع أربعة أغوات ومهرّب كبير، العنّابيون ضحكوا حين سمعوا أن أكثر من عشرة آلاف صوت عنّابي قد منح ابن عمّي الثقة، هنّأوه ولم يَعُدْ يمتلك الوقت كي يردّ على التهاني، فرحل مسرعًا هِو ومُرافِقه حتى من دون

أن يودّع أحدًا سوى من التقاه في طريقه، كهارب أو كمن انتهت فترة سجنه فرأى السماء أوّل مرة، البراري أمامه، التلفزيون وضعه المُرافِق في صندوق السيّارة وقال أنّ البطّاريات قد فرغت وغمز عائشة التي رافقتهما إلى ساحة القرية، حيث اصطفّت سيّارتان تركتا وراءهما الغبار حين انطلقتا بسرعة.

# الدفتر الرابع
# رائحة الصباح

عائشة تحدّق في السماء من النافذة، تدخّن بنهم وتنتظر شيئًا ما، قالت لي أنّ المُرافِق حتى لو تأخّر فإنّه سيعود ليخطبها ويرحلان إلى المدينة كي يتزوّجا هناك، وأنّها تفتقده كثيرًا، عائشة امرأة وحيدة، لا تشرك الآخرين أسرارها، ترتّب ثيابها، تدور وحيدة في أرجاء الغرفة، تحضّر نفسها لسفر طويل، تقصّ أظافرها وتدلّك جسمها بالكريم كي يصبح طريًّا، لامعًا، تخلّت عن عاداتها وبدأت تشعر بأنّ كلّ شيء سيغدو رائعًا حين تدير ظهرها لهذه البقايا، تاركة وراءها الثرثرات وطيف العنّابية. حموضة آباط الرجال فيها وضجر النساء اللواتي بدأن يثرثرن كثيرًا عن المرايا ودفء الرجال ولذّة الاضطجاع قرب جمر الحطب.

بدا لي البغل كمن يستنجد كي أعيد له حرارة الأنفاس، ودفء الإصطبل. كانت عيناه تلتقيان بعينيّ ثمّ يخفضهما كأنّه يعرف بمفرده أنّي لا أجابه أمي ولست رجل البيت، إنّما كائن وجد مصادفة وفي يده ألواحٌ ممحوّة عليه أن يلتقط الحروف ويركّبها جملًا ويصل إلى إعادة الحقائق الزائلة إلى الوجود، فعلُ عبثٍ يمارسه مقامرٌ على طاولةٍ خاليةٍ من المقامرين. يقامر لوحده، يلعب مع الهواء، ثمّ ينزل الستارة يجلسها على كرسيّ مقابله، يفرش أمامها أوراق اللعب، ويدعوها لأن تبدأ لعبة الكونكان يصرخ ويشتم حين يفوز. يتنبّه إلى أنّ الستارة تودّ العودة إلى النافذة المكشوفة فَيُخَسّر نَفسَهُ كي يربح في المرّة المقبلة، أرضٌ لا تنتهي، وأحمد الجمل يشير لي بالدخول فالبرد قد بدأ يغدر، أحسّ بالدفء وأرى ارتياحًا جليًّا على وجهه، اللوحة ما زالت كما هي، عالمًا من البرتقالي المتداخل مع الأزرق ببوهيمية وفوضى وغموض، لن تصل إلى الله قلت له، ووافقته على دعوته إلى شاي ساخن، نهض كي يعدّه، أكّد لي وهو يشعل الوابور أنّه سيصل إلى وجه الله ويتيه في تفاصيله وملامحه وسينشغل به وحده، أحسست بالمرح وأنا أراه وقد بدت عليه علامات الرضا،

وتشعّ من عينيه نظرات العارف، كان الكهف مرتّبًا كأنّ يدًا أنثوية امتدّت إلى غباره وفوضاه وإلى أشيائه المبعثرة فأعادت مرّة أخرى ترتيبها، وتركت وراءها إلفة لم أعهدها، حميمةً، حنونًا، صاخبةً على جدران الكهف، وغطاء الطاولة، البخار المتصاعد من الشاي يلفّ وجه أحمد، يغيّبه في ضباب شفّاف، أحسست بالقوة كأنّ الكآبة قد تساقطت عن روحي كأوراق صفراء في خريف مسرع، أدرك أحمد معنى نظراتي، أتاني صوته ثابتًا يفصح عن أشياء لم أَتَوَقّعُ حُدُوثَهَا وإن كنت أخاف منها، قال لي أنّه سيورثني الكهف – المنزل كما كان يحبّ أن يُسمّيه، وأوصاني بالحفاظ عليه، وقال أنّه سيرحل عن العنّابية خلال الأيّام الثلاثة المُقبِلة، لم يبقِ زمن طويل يبعثره بين أزقّتها وشبابيكها المغبرّة ثمّ صمت، شعرت بأنّه راحلٌ الآن حقًّا، اللوحات مرتّبة بعناية بحسب أحجامها ضمن صندوق كرتوني مشبّك بخيوط من القنّب وأشياء أخرى في الزاوية لم أتبيّنها، شعرت بأنّها اللحظات الأخيرة التي سيجمعنا فيها مكان واحد وأنّي سأغدو وحيدًا وسيغيب وجهه المألوف عنّي، ولن أستطيعَ الاستلقاءَ على الأريكة وبصري مشدود إلى أصابعه وهي تُلَوّنُ، كانت تنقصني الجرأة كي أترك كلّ شيء ورائي وأرحل. قال أحمد أنّ أخاه صالح أتى البارحة وأمضى الليل عنده، تسلّل سرًّا إلى العنّابية وبكى حين رآها من بعيد وشاهد آخر البيوت يغرق في الظلام، قال أنّ أوضاعه جيّدة وتزوّج بفتاة بدويّة، ويعيش مع عشيرتها مُرَتّبًا حياته، متناسيًا بؤس الماضي. وتابع أنّه فرح به جدًّا وكان ينتظره منذ أكثر من شهر، وأنّه ترك لأحمد نقودًا وكاد يذهب ليقتل والده ويهرب كي تكتمل المأساة فيصبح قاتلًا حقيقيًّا. امتدّ الصمتُ بيننا، خَيّمَ على الكهفِ غبارٌ أعمى البصائر، حاولت أن أستعيد مرحي وأن أصدّق رحيله هكذا دفعة واحدة، قال أنّي سأرثُ كلّ شيء وحدي، وأنّه سيبعث لي بالرسائل من كلّ مكان يصل إليه، وغمز ملمّحًا إلى فطّوم التي سأرثها أيضًا، وأنّه أوصاها بي، كأنّنا نتبادل الأدوار، هو الذي يبحث عن يقينه. يرسم وجه الله ويفتّش بين الألوان عن ملامحه، ولا أدري إلى أين ستقوده قدماه، قال لي أنّه سيذهب إلى العاصمة موقّتًا، بعد ذلك لا يدري وأنّه يتوقّع أن يعيش أخيرًا في إحدى الصوامع، ويعيد بناء كهفه، وليس متفائلًا بأنّه سيستطيع نسيان روائح غبار العنّابية سيحنّ إلى لحظة صعوده إلى منارة عنّاب كي يجلس إلى الطاولة الواطئة يدخّن ويهزأ بكلّ ما مضى، قال أنّه سيترك لي ثلاث لوحات على الجدار كذكرى لمروره من هذا المكان العظيم، أشار بيده بحركة مسرحية وشعرت خفيةً بأنّه راحل الآن، أو أنّ تلك البوّابات التي حلم بأنّها ستفتح له، وتحضنه قد فتحت وتكسّرت أقفالها.

كان كلّ شيء عصيًّا، درب الغياب مرّة أخرى، لن يجلس أحمد على المقعد الخلفي في سيّارة العنّابية الوحيدة، القديمة المتّسخة بلونها الأخضر الذي كسته ألوان أخرى وصوت سائقها حمّود، وهو يمدّ رأسه من النافذة ويصرخ أن

يبتعد الناس من الطريق لأنّ الزمّور معطل، لن يجلس أحمد كأيّ عنّابي أو كأيّ صندوق مهمل تحت الكراسي.

أمي تندب حظّها السيّئ في رجولتي الناقصة وتُسَلّمَ أمرها إلى الله، كان أبي يأمرني بتكسير أعواد الحطب بيديّ كالرجال، وبدء تَسَلّم مَهَمّاتهِ في حال غيابه، غضّ البصر عن تدخيني وقال لأمي فرحًا أنّني بدأت أدخّن وأخرج من طفولتي إلى رحابة الرجال، وأقسَمَ أن يُزَوّجني إن تركتُ هواجسي هذه التي كان يسمّيها خزعبلات. الرجولة المبكرة لم أفهم معناها إلّا بعد موته ونَدبِ أمي حظّها العاثر في بقاء بيتها بلا رجال يحمونه ويذودون عنه في الملَمّاتِ ويمنعون تَطَفّلَ الغرباءِ وتطاولهم على أعراضِهِ، تقول أمي في رقبتك حريم ولا أفهم لماذا في رقبتي، وما عليّ أن أفعل! عصر اليوم التالي، أتت فاطمة وحيدةً، محمّلة ببقجٍ ملوّنةٍ وأكياسٍ كثيرةٍ، قالت أنّ زوجها مشغولٌ وأنّها اشتاقت لنا، قبّلَت أمي وبكت، ثمّ احتضنت عائشة وغرقتا في ضحكٍ ودموعٍ، زليخة لم تنضمّ إلى المجلس، ذهبت فاطمة إلى غرفة جدّتي، فتحت الباب، فرأتها راقدة على فراشها، تيقّظت زليخة القابعة قرب رأسها مطرقة، التمعت عيناها ونهضت لتحتضن فاطمة، قبّلتها وبكت بكاء مرًّا أدهشني وسمعتها تقول أنّ جدّتي ستموت وهي تذكر الجميع من دون أن تأذن لنا باستدعاء جميع أفراد العائلة، ترفض أن ترى أحدًا من العنّابيين، فاطمة قبّلت رأس جدّتي ويديها وأسَرّت لها كلماتٍ قليلة عن أحوالها في بيروت وسلامات علي لها، جدّتي وسط الخرائب تضطجع في فراشها تنظر إلى فاطمة التي لم تفهم شيئًا، أصابتها نوبة ذهول وهي ترى زليخة تتجوّل في أرض الغرفة الواسعة كعجوزٍ كساها السوادَ، بان جلدها مُتَغَضّنًا، الجدّة لم تتكلم سوى كلمات معدودات وبدت لي عيناها مبتسمتين، استمعت إلى فاطمة المرتبكة، هزّت رأسها كأنّها موافقة على شيء ما، فاطمة غمزت زليخة كي تلحق بها واستأذنت جدّتي بالخروج. بهجةُ الماضي ذهبت. طعمُ الغبارِ في كلّ مكان، والغبَار يغطّي كلّ شيء، قلت لها: كيف بحر بيروت؟! نظرت إليّ متفحّصة، باردةً وحنونًا، كأنّها تكتشف فعلًا مأساة أمي أنّني لست رجلًا ولن أكون سيّد المنزل، كأنّها أشفقت عليّ وتراءى لها المستقبل الغامض، فاطمة في كلّ زيارة كانت تفاجئنا بأنوثة متصاعدة، وأناقة مدنية لم نعهدها، أصبحتُ أحبّ أقراطها الملوّنة التي تتزينُ بها وأبتهجُ بخشخشةِ القلاداتَ الغريبةَ التي تتدلّى من رقبتها النظيفة، بأثوابها الجميلة التي تتبختر بها وسط تعليقات عائشة اللاذعة والفرحة وتعفّفِ زليخة عن هذه البهرجة كما كانت تسمّيها.

أقول لهادي أنّ هذا النفق سيودي بي إلى مصير كلّ الأشياء، وسيكشف كلّ الغموض الذي ينتاب أحاديثنا، يشيرُ إلى الصخرة ويقول لي زحزحها من مكانها وابدأ الدخول إلى نهاية الكهف. اكتشف عمقَ الأشياء ولا تقف على العتبات، ابدإ العدّ وتجاوز الصفر، السماء رجراجة، أسمع صوت ارتطام مطر مقبل، هادي مقرفص في الزاوية يراقبِ الغرباء وأنا أزحزح الصخرة التي استجابت

لي وبان لي باب النفق، تذكّرت أنّ الدخول إلى البداية سيوصلني إلى الجوهر ولن تصدأ عظامي بعدها.

كان النفق محفورًا ومرصوفًا بحجارة رائحتها أزكَمَت أنفي، أحاول أن أَنتَقي البوّابات لأدخلَ وأتيه في الظلام. كان هذا النفق هو مَسِيل الماء الذي أبحثُ عنه، شبيهًا بالقنواتِ الرومانية التي كان يُحَدّثُنَا عنها أستاذ التاريخ مفتخرًا بسلالات الأجداد الأوائل وبالإنجازات العظيمة التي أهدوها للعالم، ليس حلمًا هذا قلت لهادي وأنا أحاول إقناعه بأنّ جلوسه هكذا في الزاوية خطأ والغرباء لن يمرّوا من هذه البقعة المهجورة، وأنّ ماريا القبطية ما زالت تُلَوّح بالمناديلِ على شاطئ الإسكندرية. غسّلني الليل بعبقه وأنا أهذي بين يدي هادي الذي تراءت له الأشياء في هذه اللحظة بألوانها الرائعة وبدا لي أنّه سينهض الآن عن كرسيّه، يمسكُ بيدي ونبدأ التجوال على متن مركبٍ من حديد يطفو فوق الماء ويسير محمّلًا بالقطن والسمسم والخشب، أقتربُ منه أكثر وأتبيّنُ لونَ وجهِهِ المزرقّ كأنّه خارج للتوّ من الحلم، أتركُ هادي، أُغلِق النفق، وأُلَوّح له بيدي، يقول لي لا تصطدم بالأشياء فالممرّات قليلة، انتظرني سأعود.

أحسّ بالزوغان وبالصَمَم يلاحقانني، لا أسمعُ زخّ المطرَ الذي بلّلني وهيّج أشواق التراب فيّ، أمي رفعت نظرها إلى صورةِ أبي المُعَلّقَةَ في صدرِ الغُرفَة وعادت لاضطجاعها قرب مدفأة الحطبِ. تطيش مفردات أمي المستهترة برجولتي، والمتشوّقة إلى أيّام أبي البعيدة كما هي في الصورة المعلّقة على الجدار، رجلًا بكامل عنفوانه، غليظ اليدين، قويّ البنية، ومن عينيه تُطلّ نظرة الحدأة، مستندًا إلى عصاه بشكل استعراضي، له شاربان كثّان، ضحكته فاترة وواثقة، شرواله أسود لامع مُطَرّز على جيبه، وصدرية ملوّنة مطرّزة، تَتَشَوّق أمي إلى تلك الصورة، أتركها وأصعدُ إلى غرفتنا، أقرع الباب وأدخل، مهرجان ألوان وروائح عطور نسائية مثيرة، عائشة وفاطمة في الفراشِ غارقتان في حديثٍ عميقٍ، أشارت فاطمة كي أغلق الباب وأدخل، سكتت عائشة. انسللت في فراشي، قلت لفاطمة أنّني أريد الذهاب معها إلى بيروت، كأنّها لم تسمعني وعادت للحديث مع عائشة التي بدت تأتيني كلماتها غامضة، خفيفة كطنين يشلّ أذنيّ، أغيب في الصور التي أحبّ، أنثى تلعب بالماء يحتضنها الماء وتتبلّل، تضطجع على عشب تحت سماء زرقاء وتترك أعضاءها للهواء، فاطمة تلعب بخصلة شعر عائشة وتتمعّن فيها وتصغي بانتباه لما تقوله، أحسست بخطورة الموضوع، خصوصًا أنّ فاطمة بدت منزعجة وحائرة قليلًا، وعائشة تروي باستسلام ليس من عادتها، أمورًا لا أستطيع سماعها، تضرب اللحاف برجلها وتعود مرّة أخرى لاستسلامها الهادئ، فاطمة تصغي وعائشة تروي. في الصباح، لم أعد أتذكّر شيئًا، أسمعتُ نشيجًا، أم أصواتًا هامسة، أم أنّني شممت رائحة الخيبة، أم رائحة الجنس المتصاعدة من فراش امرأتين مستلقيتين باسترخاء نادرًا ما أرى عائشة فيه؟! فاطمة بدت امرأة حقيقيّة، وهي تجول في أرضِ الحوشِ استأذنت بالذهاب لزيارة أهل علي ثمّ قبر أبي

بحسب ما قالت لأمي التي أصرّت على أن ترافقها في مشوارها، نهضت عائشة متأخّرة، لم تغمزني كعادتها ولم تقترح عليّ شرب القهوة على قرص الدرج، أعدّت قهوتها وعادت إلى فراشها، زليخة قالت أنّ الأيّام المقبلة لا تسرّ أحدًا وبدت حزينة، وقالت أنّ جدّتي ستموت لا محالة، جلدها يتساقط وعيناها تبيضّان.

لا أعرف كيف تحوّلت أيّامنا إلى هذا العبث المجنون، ومتى دخلت هذه الدائرة التي تودي إلى دوّامة من البحث اللامجدي عن أنفاس بشر عاشوا بكلّ ما أوتوا من حياة، رقصوا خلالها وتشاجروا ثمّ تصالحوا، تزوّجوا وأوغلوا في ملذّات الجسد وروعة العائلة الدافئة متناسين كلّ شيء ثمّ غفوا على سطح الأرض وماتوا من دون أن تتراءى لهم أنّ ما يفعلونه من لحظاتٍ وما يراكمونه من معانٍ باهتةٍ سيخلق أيّ إشكال، كثيرون منهم لم يطمحوا لأكثر ممّا يعرفون عن مواسم الجلبان والبامياء وروعة امتطاء البغال، من دون أيّ شعور بالخيبة، عاشوا كما تقتضي الحياة أن تعاش مليئةً، صاخبةً، ممتعةً، وأنا تحولت للبحثِ عن هذه الأنفاس التي تبخّرت في الهواء قادتني قدماي إلى كهف أحمد الجمل، دخلت الكهف وكان كلّ شيء مرتّبًا كعادته، لم أرَ أحمد، رأيت ورقة على الطاولة الواطئة مخربشًا عليها ما يُسمّى التوقيع وبضع كلمات قرأتها: عزيزي، رحلت ولن أعود، سأرسل إليك بطاقات ملوّنة من المدن الملوّنة، ارحل قبل أن يُصيبك التفكّك أو البلادة، قبلاتي لك... أحمد الجمل...

هل انتهى كلّ شيء؟! هل أترك كلّ شيء وألحق به وبأبي الهايم؟! هل أترك هادي العنّابي والتدوين كي أتشرّد على دروب الضوء في المدن الغريبة، حيث كلّ شيء يعيدك للسؤال ويحرّضك! تمنّيت لو أنّي رحلت مع أحمد، ساعدته في توضيب اللوحات التي حملها معه وترك لي ثلاثًا منها معلّقة على الجدار غير المستوي، كما ترك لي الكتاب الفرنسي مغلقًا، أصابني الدوار لحظة، أعدْتُ قراءةَ الكلمات، بحثت عن آثارِ خطواته الأخيرة وبعد ذلك استسلمت لدفء يشعّ من مكان ما، كانت الشمس تتسلّل إلى بوّابة الكهف وتقف على العتبة تقريبًا، كلّ شيء مبعثر، في الزاويةِ ألوان وفراش، سكاكين ومسامير وأوراق لملمتها. أعدت ترتيبها وما زالت حرارة الكلمات التي خطّها أحمد في لحظات متفرّقة من ليالي العنّابية تحتفظُ بنكهة خاصّة لديّ، رافقتني هذه الأوراق طويلًا حتى بعد أن تركت العنّابيةَ وجلت في المدن والعواصم، وكانت تضمّ أيضًا الكثير من البورتريهات لعنّابيين ولأشخاصٍ غير عنّابيين أجملهم بورتريه نشمة التي كانت بنظرتها الجريئة وصدرها البارز رمزًا لكلّ الأحلام الحبيسة، استعذبت الإقامةَ في الكهف وبدأتُ أبتعدُ من سيرة العائلة التي ما زالت تبحث أمي عن رجل لها، عائشة مهمومة وطوال زيارة فاطمة لم تفترقا، تتحدّثان دومًا، أمي أيضًا بدت قلقة، عصبيّة، وأحيانًا مستثارة من دون أيّ سبب، عائشة تكتب رسالة للمُرافِق وفاطمة التي ستعود إلى بيروت تعهدت بإيصالها بأيّ طريقة، كانت فاطمة قبل أن ترحل حزينة ومستعجلة

للرحيل، عادت عائشة إلى وحدتها تاركة أمي للدوران في أرض الحوشِ باحثة عن روائحَ قديمة ومنقّبةً في ثنايا الشقوق عن طعم للزمن، طَلبت منّي أمي ألّا أغادر المنزل وألّا أنام خارجه، عائشة لم تعد تكترث لحضوري، أصبحت منزوية وغير آبهة بأحد، في عينيها شراسة لم ألمحها من قبل، وجسدها لم تعد تعتني به كما كانت، كما لم تَعدْ لاستقبال فتيات العنّابية في غرفتها أو زيارة جدّتي، بحثت عن هادي لم أجده وفي الكهف انتظرت الكثير من الأشياء، أحسستُ بالفقدان والوحدة والملل وبدأ الزمن يفقد بهجته، والبحث ما عاد يعنيني كثيرًا، أمي أجّرت الأرض وبدأت تركن إلى الصمت كثيرًا، وقلّة الحركة. في الليل، الصمت يخيّم على أرجاء الغرف، الأنفاس هادئة الأضواء خافتة، أصبحت أمي تغلق باب الحوش، منذ زمن بعيد لم أرَ باب حوشنا مغلقًا، أو لم أره مغلقًا قطّ، أمي وخالتي تتكوّران قرب مدفأة الحطب وغالبًا صامتتين، ثمّ ناعستين، ونائمتين، العنّابيون لم يأبهوا بالتغيّرات الجديدة، خصوصًا أنّ جدّتي لم تعد تستقبل أحدًا. الشتاء بدا باردًا، وقالوا أنّ الأولياء يأتون كلّ يوم إلى غرفة جدّتي، تهذي معهم وتعربُ لهم عن سخطِها لما حَلّ بعائلتها ولِمَا حَلّ بالعنّابية وكثيرًا ما توبّخهم أو تزعل منهم جميعًا، وقالوا أنّ زليخة ترى هؤلاء الأولياء وهم يتأبّطون أحذيتهم بملابسهم البيضاء الفارهة ورائحتهم العطرة يملأون الفضاء ثمّ يحطّون على حوافّ النافذة وحول فراشِ جَدّتي، تتعالى أصوات المزاهر والأصوات العذبة منشدة، وأصوات أخرى مرتّلة سورًا من القرآن. زليخة لم تتكلّم شيئًا بل أصبحت أكثر صمتًا وجدّية، قالت أنّ جدّتي أورثتها كلّ الأسرار وأنّها خليفتها على هذه الأرض كما أوصتها بالزواج ثمّ بالتفرّغ لأمور عبادتها وشؤون العائلة كي ترثَ كلّ شيء، وأضافت أنّ جدّتي تعرف كلّ شيء وجسدها يتفتّت، ولا بدّ أنّ الموت واقف في ركن قريب من باب غرفتها.

كانت نوبات الصّمم تكثر حين أسيرُ وحيدًا في الدروب أو حين أزيح الصخرة الكبيرة كي أدخل باب النفق الذي لم يعد يغريني كثيرًا، ولم تعد أحاديث هادي تجذبني. أحسستُ بالشوقِ الشديدِ إلى أبي الهايم وأحمد ونشمة. كرهت هذه الوحدة. قال لي هادي أنّني لن أصل إلى نهاية الحكاية وأنّ التدوين مستحيل، لم أكترث كثيرًا، ولم أحسّ بأنّي فقدت شيئًا عزيزًا، ما عدت أخرج كثيرًا من الكهف، أتسلّى بأوراق أخطّ عليها كلمات لا معنى لها، وأستمع إلى علي الجمل الذي بدأ يزورني أحيانًا ويشرح لي أنّه قد عاش ألف عام قبل هذه الأيّام، وأنّه ما زال طفلًا ينتظر أمه التي تركته هنا كي تجلب له السكاكر ثمّ يضحك بهدوء ويصمت ثمّ يبكي وينهض فجأة، يرتّب ثيابه الرثّة والقذرة ويستدير بطريقة عسكرية ويتابع طريقه نحو البراري. أجلس في الغرفة مع عائشة وأراقب صمتها ونظرات التحدّي في عينيها، وحين أمرّ بالعنّابيين لا أكترثُ لتبادل الحديث، في ما بعد وصلتني رسالتان من أحمد في البريد الذي لا يصل إلّا مصادفة، في رسالته الأولى قال أحمد أنّه ما زال مشرّدًا، وأنّه نام في الحدائق

وبعد ذلك عمل في مطعم صغير مقابل أكله ونومه ونقود قليلة لا تكفيه كي يدخّن، وفي الرسالة الثانية التي بعث بها بعد شهرين، كتب أنّ أوضاعه تتحسّن وأنّه التقى خالي أبا الهايم ونام عنده، وأنّ خالي يسلّم علينا جميعًا وأنّه يعمل مع فرقة نشمة في أحد الكباريهات، وقال أحمد أنّ خالي ما زال كما هو رجلًا شهمًا، كريمًا، أنيقًا وأنّه سعيد قرب نشمة التي طلبت ذلك من خالي لأنّها تحبّه ولا تستطيع فراقه، ونشمة تأتي كلّ ثلاثاء متنكّرة إلى بيت خالي الذي يتألّق من جديد بين فِصّةِ يديها. كتب لي عن العاصمة وعن الفنّ وعن لوحاته، عن وجه الله، عن الأرصفة والباعة المتجوّلين، عن معرضه المقبل الذي سيكون في إحدى صالات العرض في العاصمة وعن الألوان، عن كلّ شيء. فرحت بالرسالتين اللتين وصلتا دفعة واحدة، قرأتهما واسترخيت في الكهف المعدّ للغبار، وللهجر، للملل. كم وددت لو أكتب لأحمد عن أوضاع أبيه التي ازدادت سوءًا وجنونه الذي كشف لي قسوة العنّابيين وهم يقهقهون من أكتافه العارية وهو يهزّها كراقصة محترفة، لو جعلته يعترف لي بحقيقة مشاعره الغامضة، وإن كنت لا أصدّق حقيقة رغبته في قتل هذا الأب الذي أصبح حطامًا ومجنونًا. متى ينتهي هذا العبث؟ سألت هادي فبدا صوتي متهدّجًا، ضحك وأشار لي كي ألحق بخطواته، كان يقفز عن الأرض ولا أرى إلّا آثار خطواته في أرض بعيدة كأنّي أراها أوّل مرّة. قال لي أنّ هذه البيوت البائسة تدعى عنّابية، وهي التي جعلته يُمسك بأوّل الأسرار، توغّل في بيوتها، في رائحة أزقّتها وستكتشف كلّ الأشياء، لكنّي لم أعد راغبًا في إعادة رسم الخرائط، ولماذا الخرائطُ أصلًا، أكان عبدالملك بن مروان إلهًا كي نعيد البحث عن قوافله؟ سألته. ما عادت رسائلُ جدّتي الملفوفة بعناية والموضوعة في زجاجات مغلقة بإحكام والمُعَدّة للقذف في البحر تُغريني، أصبحت نزقًا وأكثر وحدةً كأنّني أقترب من حكمة الأشياء، أمي لم تعد تكترث لحضوري، أصبحت توصيني فحسب بأن أغلق الباب الخارجي وأنزل الرتاج جيّدًا، كما أنّها كثيرًا ما كانت تنهض في الليل، تعبر أرض الحوش، تصلُ إلى الباب، تطمئنّ إلى إغلاقه وتعود إلى فراشها الذي تركته دافئًا، كأنّها هرمت دفعة واحدة حين صعدت إلى غرفة عائشة محاولة تخفيف غضبها وشكوكها التي قَضّت مضجعها وهي تراقِب حركتها المتباطئةَ وجسمها المخفي بأثواب فضفاضة بدأت ارتداءها محاولة إخفاء شيءٍ ما، وقفت أمي أمامها محاولة الاستفسار بهدوء نسائي، وببرود شديد قالت عائشة أنّها حامل، لم تنهض من فراشها أو تحاول إخفاء أيّ شيء أو التمويه، أشاحت وجهها فحسب، حاولت أن تركّز نظرها على شيء ما، زليخة قالت لي أنّ أمي كادت تُشَلّ وعُقدة لسانها لم تُفَك إلّا بعد أن أقنعتها زليخة بأنّ عائشة تمزح معها أو تلعب بأعصابها كعادتها في المزاح الثقيل، وصفت لي زليخة أمي وهي جالسة قرب جدّتي تنتحب على مخدّتها وهي تخبرها بما حدث، ثمّ في ما بعد وهي تستعيد قوّتها وتعود مرّة أخرى إلى غرفة عائشة، أغلقت الباب وراءها وتعالت الأصوات بعد قليل، أمي مهتاجة، صوت ارتِطام الأشياء، صرخات

عائشة المكتومة وخُصل من شعرها بقيت في يد أمي القوية. في الصباح، خرجت عائشة بوجه أصفر والكدمات على جبينها وخدّيها وأمي تجرّها وراءها وأمرتني بمرافقتهما إلى عفرين، فرافقتهما من دون أن أعرف السبب وما حصل، وفي عيادة الطبيب بقيت في غرفة الانتظار الباردة، بينما دخلت أمي وعائشة وخرجتا بعد نصف ساعة وفي ما بعد عرفت أنّ الطبيب أكّد الحمل وأنّه في شهره الرابع ولا مجال لأيّ عملية إجهاض، وهي التي رفضتها عائشة وتكلّمت جملًا قصيرة، قوية، حازمة معلنة تمسّكها بالجنين، عدنا جميعًا من عفرين، أمي استأجرت سيّارة خاصّة أوصلتنا إلى مدخل الزقاق المؤَدّي إلى باب حوشنا ولم تتكلّم أيّ كلمة، دخلت وأغلقت الباب وراءها، أعادت تصليح الأقفال وزادت الرتاجات وأوصت السائق حمّود على أقفال جديدة وضخمة من حلب أتى بها في اليوم التالي، رَكّبها مُستغربًا وبرّرت أمي بأنّها أوامر جدّتي، وفي مساء اليوم نفسه بعدما عدنا من عفرين، كنت تائهًا في البراري، أبحث عن مفردات ضائعة وعن خطوات ممحوّة، عن روائح أعرفها ولكنّي لا أتشمّمها كما يجب، طفت في البرّية الشرقية، دخلت النفق وقلت لهادي العنّابي حين رآني حائرًا، أنّ كلّ ما قيل هو أكذوبة كبرى وأنّ الحياة وهم كبير لا يلبث أن يتغلغل في أيّام البشر فيصدّقون هذه الأكذوبة ويعيشونها إنّما الحقيقة الوحيدة هي الموت، أشار لي هادي بيده أنّ هذا هراء ليس من مهمّتي، وأنّ العنّابيين حين قالوا عنه مجنون لم يكونوا مخطئين، إنّما كان يجب أن يحدث ما يحدث ليحتفظ بصفائه وصورة ماريا نقيّةً وذكرى تلك المراكب والمدن. حين عدت ليلًا إلى المنزل، كانت أمي منتظرة أوّل مرّة قدومي، أشارت لي أن ألحق بها إلى غرفتها، أحكمت إغلاق الباب الخارجي، قالت لي أنّ أختي عاهرة ومذنبة ولطّخت شرف العنّابية والعائلة، ناولتني سكينًا لم أرها من قبل وأضافت أنّي الرجل الوحيد الذي يحقّ له إعادة هذا الشرف والانتقام له، وصرخت بحدّة أنّني يجب أن أقتل عائشة، أن أذبحها كما يذبحون الديوك والدجاجات وأنّها ستقف على العتبة وتزغرد كي يسمع كلّ الناس زغاريدها وأنّي لن أدخل السجن، استغربت أمي برودي وشرحت لي التفاصيل كافّة، أخذت السكّينَ من يدها، ولم أتفوّه بكلمة، وفي الصباح قلت لها أنّني لن أذبح عائشة، كانت تستجير أن يأتي أحد ويخلّصها من حيرتها، لم تسألني عن السكّين لكنّها غرقت في صمت طويل لم تخرج منه مطلقًا إلّا مرّات نادرة وقليلة، وبدا الهرم على وجهها الذي اكتسب قسوة لم أكن أتوقّع أن تتجلّى في تجاعيدها هكذا، قالت يجب أن أعيد النظر في ذاتي وتوسلت إليّ ألّا أتركها، أن أغيّر عاداتي وأصبح رجلًا كما تقتضي الرجولة كي أكون ذكرًا مهابًا يأمر وينهى، وقبل كلّ شيء عليّ ذبح عائشة كما يذبحون الديكة أو كما ذبح أحد العنّابيين ابنته حين رآها بين أحضان رجل لم يفصح أحد عن اسمه، يومذاك احتفلت العنّابية وتأهّبت للدفاع عن الرجل الذي غسل عاره بيده، لم أدرِ كيف يستطيع أحد ذبحَ هذه العذوبة في عيني عائشة التي تآمرت معها كثيرًا ضدّ كلّ الأشياء

التي بدأت تفقد بريقها وتدير لها ظهرها، أمي أغلقت الباب نهائيًّا بأقفال ضخمة ولم تعد تسمح لأحد بزيارتنا، صامتة أغلب الأوقات ثمّ جالسةً تنكش الأرض أمام باب غرفة جدّتي التي لم تستطع التعليق بأيّ حرف على حالة عائشة، بل تجلّى تعليقها كما فسّرته زليخة بطريقتها حين أمسكت بالسكّين التي أهملتها قرب النافذة وهجمت على عائشة التي كانت لا تزال تتقلّب في فراشها محاولة النوم ورأت السكّين لامعة في الظلام، بان وجه زليخة في الظلام وهي تكزّ على أسنانها، مقتربة من عائشة التي لم تأتِ بحركة إلّا حين هوت يد زليخة بالنصل اللامع، جرحت عائشةَ جرحًا بليغًا، أمسكتها من يدها وقالت هذه أفعال رجال، ولا أقبل أن أذبح بيد فتاة، زليخة بكت وذهبت تشعل الضوء كي تضمّد جرح عائشة ثمّ، وهي تُحاول التكفير عن خطيئتها كما قالت في ما بعد لي، وهي ترفض أيّ كلمة في موضوع زواجها بنجيب الذي جاء إلى باب دارنا وانتظر ليفتح له، ثمّ أعاد الكرّة، لم يُجدِ انتظاره ثلاثة أيّام متواصلة كي يحظى برؤية زليخة أو أمي، نجيب قرع الباب من دون جدوى، بعد ذلك أرسلت إليه زليخة أنّها لن تتزوّج مطلقًا فالرجال دنس وأنّها ستموت طاهرة، لن يمسّها رجل وستعيش بين أردية الأولياء والصالحين الذين يقفون كلّ يوم أمام نافذة جدّتي كالعصافير الملوّنة، يدقّون المزاهر ويطردون الأشباح التي هامت في المكان وأغرت عائشة لتتخلّى عن طهارتها، بكلمة مختصرة رصينة أعلنت أنّها لن تتزوّج ولا تريد أن تسمع هذه السيرة مطلقًا، زادت حجابها وبدأت تتحاشى النظر إلى أشياء الذكورة.

السكّين التي عادت إلى مكانها لم يقربها أحد، الجميع ينظر إليها ولا يقربها أحد، أمي تفتح باب الدار مرّتين في الأسبوع، تخرج خلالهما لزيارة قبر أبي وبيت خالتي، تجلسُ قرب خالتي من دون أن تتكلّم، ثمّ تغادر وهي ترى الدموع في عينيها ورجتها أمي ألّا تحاول زيارتنا من دون أن تقدّم تفسيرًا مقنعًا، ظهورها الحازم، ومشيتها الواثقة ثمّ حديثها مع الذي يأتينا بالماء مرّتين في الأسبوع منع العنّابيين من التكهّن بأنّ بيتنا أصابه مسّ من الجنون، الجميع خَمّن أنّها أوامرُ جدّتي التي لم يعد أحد يراها وبدأت تنسحب رويدًا رويدًا من ذاكرة العنّابيين الذين اهتمّوا بالتغييرات الجديدة أوّل الأمر ثمّ نسوا كلّ شيء كعادتهم.

بعد هجوم زليخة بالسكّين على عائشة، بدأت أمي تنظيف الإصطبل الذي كان مخصّصًا للبغلين اللذين عبق المكان برائحة أظلافهما والبخار المتصاعد من مناخيرهما زمنًا طويلًا، خصّصته لعائشة كي تدفن في الحياة مع مولودها الذي بدأ يتكوّن في بطنها وقد غدت هادئة، أكثر هزءًا ورصانة وقوّة كانت تنبعث من عينيها وتختفي، ومن ثمّ تعيد إليّ الثقة في أنّها تستطيع تجاوز هذه المحنة ببساطة، هازئة بالموت الذي لم تعد تهدّد به أمي وإن كانت تضمره في كلّ تصرّف من تصرّفاتها كأنّها تبحث وحسب عن اليد التي ستمتدّ إلى السكّين وتمرّرها على رقبة عائشة لتنهي هذه المهزلة التي بدأت فصولها تكبر ودقائق

صمتها تتراكم كأنّها ستنفجر معها في أيّ لحظة، وحينئذ تتشظّى الفضيحة وتتناثر من الأفواه وعلى الجدران في العنّابية وباقي الأماكن التي ما زالت تدافع عن الطهارة بالدم المرشوش على العتبات، قالت عائشة أنّ المكان الجديد ملائم تمامًا لها، حيث تستطيع الاضطجاع طوال اليوم في الظلام وتتذكّر رائحة ذلك الرجل الذي ترك وراءه كلّ هذه الفتنة، كأنّ العبق ما زال يتغلغل في مسامّها التي بدأت تحدّثني حول التفاصيل التي لا أعرف، عن وجوه بعيدة تأتيها في المنام ومدن مسترخية عند أكتاف البحر ثمّ تضحك وتذكّرني بأغانٍ تتحدّث عن الفراق والحزن والغرام، وتقول لي أنّ كلّ ماسأدوّنه ستمحوه الريح وتذرو صفحاته الأيدي العابثة فلا فائدة من التدوين. بدأت تشغلني فتنة السرد حين أنتظر هادي ليخبرني بكلّ الأشياء التي كنت أتوقّع أن يقولها لي عن المدنِ الغريبة والمراكب والحدود الحقيقية التي لا تحدّ، نوبات الصمم بدأت تزداد، خصوصًا حين أقترب منه وهو جالس على كرسيّ حديدي ضخم وسط البراري، تنزاح حدود المكان وتغيب التفاصيل الثابتة، هادي على كرسيّ حديدي وسطَ البراري أنيق، قلق، تفوح من يديه روائحُ عطورٍ غريبة، يقول كلامًا قليلًا لا أسمعه، أمعِن فحسب في حركةِ الشفَاه التي تعرفها. الجملُ المتراصّة تجعلني أبحث مرّة أخرى عن معاني الأشياء وأتساءل هل للسردِ كلّ هذه الفتنة؟ نوبات الصمم تغيب حين أكون وحيدًا في كهف أحمد الجمل، فأسمع من جديد صرير الرياح، وفي ما بعد صوت آهات فطّوم وهي بين يديّ تتجلّى بعريها كجسد لإلهة من زبد يحتضن كلّ الألوان، حين تتعرّى وتغتسلُ في الزاويةِ المعدّة للاغتسال، تأتيني مبلّلة، عبقة، هامسة أن أفتنها وأذهب بعيدًا في أعضاء أنوثتها التي قالت لي أنّها تنفتح كلّما لامست جسدي، غبت في اللذَة الصاخبة المداهمة كقافلة من حنين وأقحوان وزبد وعسل قلت لها أنّ لشفاهها مذاقه، أستعيد طعم الأشياء وحقيقتها، وكلّ شيء فعلته كان عبثًا، لكنّه كان ضروريًّا كي أستطيع الهزء بهادي، وهو يناديني ويقول أنّ الخرائط موجودة في جدران المنازل المحيطة بالمركز م. قالت لي فطّوم أنّها لن تستطيع أن تأتي إلى الكهف وأنّها ستنتظرني كلّ ليلة في بيتها، غدت عائشة أكثر قربًا منّي وأصبحت لقاءاتنا في الإصطبل أكثر حميميّة، قلت لها أنّ نوبات الصمم تلاحقني وأحيانًا لا أستطيع سماع حديثها إلّا بشكل متقطّع، أخبرتني بأنّها ما زالت تدهن جسدها بالكريمات وتحافظ على كلّ مسماة فيه، وموعد ولادتها قد اقترب كثيرًا وأنّها متشوّقة كي تنجب في هذا الظلام كائنًا يرى النور هنا ومن ث يعيد سيرتي في تدوين الحكاية والبحث عن أصول الحقائق ودروب القوافل التي سيطر عليها قطّاع الطرق وجعلوا التدوين الحقيقة الأكثر قسوة إلى درجة أنّ القرباط الذين كانوا يملأون العنّابية بهجة وألوانًا وروائح أقسموا على ألّا يعودوا إلى هنا كما أخبرني أحمد الجمل في رسائله التي بدأت تصل كثيفةً، ملوّنةً ببطاقات ورسوم وصور فوتوغرافية لأحمدِ وهو مذهول على أحد الجسور في العاصمة

يستقرئ شيئًا بعيدًا أو كأنّه يتأهّب للانتحار، صور للوحاته، وصورة بيضاء وسطها خطٌّ أزرق كتب لي أنّها اللوحة الأزلية، وجه الله وصورته، وأنّها ما زالت في بدايتها، وقال في رسالة أنّه اكتشف أنّ الله يتغيّر بحسب المكان لذلك كانت جميع أوهامه حين كان هنا خاطئةً، وأنّه ما زال يعتقد أنّ بالإمكان البحث عن مبرّرات لوجود الكثير من الأشياء. كلام، كلام، كلام وألوان بدأت أفقد اهتمامي بها وأخبار عن خالي أبي الهايم الذي قال أنّه ما زال ينتظر كلّ ثلاثاء نشمة التي تأتي متسربلةً بالسواد. متخفّية عن جميع الأنظار، وخالي يسستيقظ كلّ ثلاثاء مبكرًا جدًّا يغسل الأواني والبلاط، يمسح الغبار عن النوافذ وأوراق النباتات يغيّر شراشف السرير والمخدّات، حتى يغدو المكان لامعًا، عابقًا بالعطور، تدخل نشمة وتغلق الباب وراءها، تخلع السواد وتتجلّى بين يديه طيفًا يمسكه ثمّ يفلت ويهيم في الفضاء، يقف على رؤوس أصابعه ويطير ثمّ يحطّ، ليعاود الطيران، امرأة من فضّة وعاج وأبنوس وريحان تنهمر بين يديه كأنّها المرّة الأخيرة تلتقيه أو أوّل مرّة بعد شوق دام قرونًا، العاشقان لا يتكلّمان مطلقًا تاركين اللغةَ للبلهاء، للذين يعتقدون أنّهم سيحقّقون المعجزات، أتخيّل نشمة امرأة ناضجة كما كتب لي أحمد في آخر رسائله، أحاول رسم تكوينها، شفتان من... أتخلّى فورًا عن مهمّة تافهة كهذه وأحاول نسيان الملامح التي شوّهت ذاكرتي عقودًا، نشمة طيف وامرأة تشع كالفضّة حين تضع رجليها في غرفة خالي الذي لا يتكلم أبدًا، يتيه فحسب في التفاصيل التي تعب الله كثيرًا في تجزئتها، ثمّ في إعادةِ لملمتها لتكون هكذا، امرأة من ريحان، أقول لعائشة عن خالي، تضحك وتقول لي أنّ خالي سيذبحها إن علم بالأمر، وكم ستكون سعيدة إن ذبحها بيديه الطريتين، وأوصتني إن فعل أن يعزف على قبرها ما كان يعزفه لنشمة كي تغرق في لُجّته، أمي لم تعد تعنيها كثيرًا الأخبار من الخارج كأنّها قرّرت كأبي أن تموت هكذا وحيدة، صامتة، غير آبهة بشيء، المذياع الوحيد المعلّق على جدار غرفتها قرب صورة أبي أعطته للذي ما زال يأتينا بالماء على حماره الأبيض مرّتين في الأسبوع من دون أن ينبس بأيّ حرف كأنّه مُعدّ لهذا الدور منذ آلاف السنين، يوقف حماره على باب الحوش ثمّ تأتي أمي بالعلب تملأها بالماء وتغلق الباب وراءها، تقفل كُلّ الرتاجات والأقفال السوداء الضخمة ثمّ تعود مرّة أخرى إلى دورتها المعتادة، تحضّر الطعام، توزّعه بينها وبين عائشة التي تمدّ إليها صحنها من نافذة الإصطبل وأحيانًا من الباب، تدخل، تستطلع المكان، تضع الطعام وتخرج، وبين جدّتي وزليخة التي غالبًا ما تساعدها في أعمال المنزل من دون أن تتحدّثا بشيء، زليخة لم تعد تحدّثني كثيرًا حتى حين أزور جدّتي، أدخل غرفتها أُحِسّ بأنّي غريب أو بأنّ أحدًا لا يشعر بوجودي، أراها وهي تتفكّك، الأحاديث بدت تشَكل لي عبئًا لا أستطيع احتماله، خصوصًا أنّ الصَمَم بدأ يستقرّ ويمنعني حتى من سماع صرير الريح التي هبّت شديدة في هذا اليوم الذي أتى عاصفًا، غير متوقّع، فقبع العنّابيون داخل بيوتهم، وأفسح لي المجال للسير هادئًا في

طريقي إلى بيت فطّوم ودخول غرفتها المنارة بضوء خفيف، غرفتها التي بدأت أحفظ تفاصيلها جيّدًا، الفراش وسطها وامرأة تنتظر كي آتي، أخلع ملابسي وأتدثّر من البرد المفاجئ بجسدها الحارّ وأغيب في النشوة التي تمنحني أحاسيس مختلفة لضرورات الوجود وإعادة البحث عن هادي الذي أخبرني بأنّه سيغيب حالما أصل إلى نهاية النفق الذي أسير فيه ولا أعرف إلى أين سيؤدّي بي، كلّما استطال النفق ازدادت شكوكي ويقيني في أنّ هادي فعلًا ليس أكذوبة اخترعها خيالي المريض وفرضها على تاريخ رُوِيَ مصادفة وتخبطّت فيه أقدام الفاتحين المنتصرين والمهزومين، أجلس في النفق كأنّي أسمع ويغيب صممي، أسمع عائشة وهي تلد، ليست وحيدة، أمي تساعدها وجدّتي أيضًا وزليخة تقف أمام باب الإصطبل تأتمر بأوامر أمي التي دَبّ نشاطٌ كبير في أعضاء جسدها، وهي تحاول جعل ولادتها سهلة ومأمونة، أمي تبكي وتتوتّر يداها وهي تسحب المولود الذكر الذي اتّفقنا أنا وعائشة على تسميته، ومنحه لقبًا جديرًا بذكرٍ وُلِدَ هكذا من دون مقدّمات، سألتني عائشة وهي تتمعّن فيه، أليس جميلًا؟! حملته ودارت في أنحاء الإصطبل وفاطمة التي ازدادت زياراتها وتكثّفت أصبحت تمضي أوقاتًا طويلة مع عائشة ومع أمي، محاولة استرضاءها والغفران لعائشة أو تدبير أيّ وسيلة تعيد الأمور إلى نصابها لتزويجها بأبله أو لقيط أو حتى برجلٍ يُتّفق معه على ستر هذه الفضيحة التي بدأت تتسرّب إلى العنّابية وتنتشر على موائدها من دون أيّ يقين أو جزم قاطع، أمي لم تكترث كثيرًا لكلمات فاطمة، وبدا لي صمتها موافقة مبدئية على التصرّف وتحريرها من هواجسها التي أحالتها إلى امرأة هرمة، عائشة رفضت وقالت لفاطمة أنّ مصيرها هي التي ستكتبه وستخطّه كما يحلو لها، وأنّها ستنتظر فحسب أن يقف طفلها الذي سمّيناه نحن، على رجليه كي يطأ أرض العنّابية وتلامس قدماه ترابها لتغادر بعدها إلى المكان الذي ستعيد بناء كلّ شيء فيه، وقالت لفاطمة التي أخبرتها بأنّها لم تستطع العثور على المُرافِق الذي قال ابن عمّي أنّه بعث به إلى خارج القطر لأمر مهمّ يتعلّق بأعماله ولم يستفسر النائب عن شيء، سألها فحسب كيف أتت وحيدة وكيف حال زوجها وأمي وجدّتي؟ أسئلة اعتيادية غير حارّة كما قالت فاطمة وهي تعد إن أتى إلى هنا بأنّها ستبهدله أمام الجميع ولن تخاف من كونه نائبًا. فاطمة تبدو رسولًا مقنعًا حين تتحدّث مع أمي عن إعادة تسوية الأوضاع التي لم تسوّ، والتي بدت للجميع أنّها بحاجة إلى قيامة، قلت لعائشة أنّ طفلها قد يغدو أجمل إن سرقنا له النور، فاطمة جلبت معها ألبسة زهرية وملوّنة وبيضاء وأغذية وعطورًا وألعابًا وثوبًا جميلًا لعائشة بدا في الضوء الشحيح الذي أتت به أمي إلى الإصطبل ملوّنًا بألوان زاهية، عائشة بدت منهكة ومتعبة كأنّ هذا الإصطبل قد بدأ يأكل من عمرها ويدفنها في الحياة كما قالت أمي وحذّرت فاطمة وحذّرتني من أيّ محاولة لإخراجها وطفلها حتى إلى أرض الحوش وأقسمت بأن تطردَ الجميعَ وتغضب علينا جميعًا، ثمّ قالت في نوبة من الكلام القصير

المتردّد من شفتين مرتجفتين أنّها ستقتل نفسها وأنّها نادمة. لماذا لم تفعل ذلك؟ عائشة باستسلام طلبت منّا أيضًا ألّا نتحدّث في هذه الأمور، وقالت أنّها غير متضايقة من مكانها الذي حاولت أن تضفي عليه من روحها الكثير إلّا أنّه بقي نتنًا ورائحة براز تنبعث منه لا تستطيع العطور منعها من التسرّب إلى أنفي الذي غدا أكثر حساسية من الروائح بعدما استوطنني الصمم نهائيًّا وأصبحت تنتابني نوبات سمع، كنت في البداية أظنّ الأمر ممتعًا وبعد ذلك بدأت أتضايق من تحديقي في الشفاه كي أُخمّن ما يُقَال وحين تلقّني فطّوم بين ذراعيها لا أستطيع رؤية شفتيها بدأت أبحث عن المفردات التي كانت تنعشني بذاءتها حين تهمسها في أذني وتتلوّى كضوء يحارب الخدوش وثقوب الأبواب المغلقة، بدأت أبحث في نهايات أصابع يديها عن هذه المفردات وأحاول ترجمة كلّ لمسة كي أستعيد تلك البهجة الرائعة وأسرار ذلك العالم المزدهي والمخفي من اللغة التي غدت صباحًا على شفاه العنّابيين وهم يثرثرون بقاموسهم الضيّق عن أسعار البامياء وجنون هادي، وفي ما بعد عن طيش خالي وفضيحتنا الكبرى، وقد قلت لعائشة أنّ الفضيحة لا تنتظر وإن اضطرّت تسرّبت عبر مسامّ الجدران الكتيمة، اللغة بدت لي عالمًا من الألغاز الآن وهي تتشكّل في ذاكرتي التي بدت مضطربة، مشوّشة، وأنا أبحث عن هادي الذي رأيته منذ أيّام قليلة جالسًا في مكانه على كرسيّه ممعنًا في الانتظار، قلت له أنّي وجدت المخطوطات والمفاتيح الصدئة وأبحث الآن عن الأبواب، أشار لي أنّه لا بد من أن يتركني ولن أصعد مرّة أخرى إلى منارة عنّاب وأنّ المركز م قد اتّضح لي بما أنّني وجدت المخطوطات مرمية في نهاية النفق الذي لم أعد أكترث له كثيرًا، خصوصًا بعد ولادة الطفل الذي سمّيناه وبدأ يضرب وجهي بيديه الشاحبتين ثمّ وعائشة تحاول جاهدة تعليمه المشي كأنّها قد وصلت إلى نهاية المطاف وأنّها اشتاقت إلى الضوء والبراري وأصوات البنات في غرفتها والجلوس على قرص الدرج وارتشاف القهوة ومناكدة أمي والهزء بكلّ شيء والتدخّل في أسرار حياة كلّ العنّابيات اللواتي ما زلن يتعرّفن إلى أوّل الرائحة للذكورة المشتهاة، بدت مهمومة، حزينة، قاسية مع الطفل الذي تريد اصطحابه من يده كي يطأ بقدمه التراب، تفرح بمحاولاته، ويلفّها صمت أرض الحوش الذي لا يقطعه سوى حركة أمي البطيئة وحركة زليخة التي زارت عائشة مرّات عدّة في الإصطبل، بكت، بكت، وقالت أنّها تصلي ليل نهار كي يغفر الله لها واقترحت عليها أن تأخذ الطفل وترميه أمام أحد المنازل أو أن تُعطيه للقرباط وهي تتدبّر الأمر في ما بعد، عائشة لم تتكلّم، تشبّثت فحسب بالطفل الملفوف بأقمطته والباحث في الظلام عن معنى لهذا السقوط، والذي سيبقى يحمل رائحة مكانه عالقة في جلده وفي مسامّه حتى وإن تعمّد بالبحر كما كانت عائشة تقول حين تبدأ الحنين للأزقّة والشوارع والمدن التي رسمتها، قالت، البحر سيغسل جراحه وينظّف جلده من رائحة الأقبية والإصطبلات، زليخة فعلًا تصلّي ليل نهار وتتوجّه بالدعاء بينما

الغبار يغطّي جدّتي التي بدأت تكشّ وتصغرُ والجدار أمام ناظريها يقف كأنّه يتحدّاها ولا يريد الإفصاح عن أولئك الرجال المُعَمّمين الآتين على خيولهم من وراء الهضاب والرافعين أذرعهم والبياض يجلّلهم، هكذا قال لي هادي أنّ المخطوطات ستقول لك كلّ الحقائق، لكنّه لم يقل لي أنّ اختفاءه سيجعلني رجلًا تائهًا وتافهًا، أصمّ من دون أن يدري الآخرون أنّني تائه وتافه وأصمّ وعاجز حتى عن البوح باسم طفل عائشة، كلّ الأمكنة لم تعد تغريني بالولوج إليها، ولم ألحظ أنّني لم أصعد إلى غرفة عائشة منذ ذلك اليوم الذي أمسكت به أمي شعرها الطويل وجرّتها إلى ذلك الإصطبل النتن الذي بدأت أكرهه وقلت لعائشة أنّني لم أعد أكترث كثيرًا للقيامة التي تنتظرها زليخة ولا للرجل الذي سيأتي ويمنح أمي شعورًا بالطمأنينة ولا للرجال المعمّمين الذين سيفصح عنهم الجدار حين يتهدّم بعدما تنهي جدّتي نهشه وتفتيته.

لم أعد أنتظر شيئًا، صمتت عائشة وبدت لي عيناها في الظلام رائعتي الجمال ثمّ رأيت شفتيها كأنّهما تقولان أنّ الطفل بدأ يقف على رجليه ويمشي وأنّ الفصول التي مضت، والتي لم نعدّها ومواعيد الماء الذي يأتي مرّتين في الأسبوع فيتحرّك الباب الضخم وتفتح الأقفال لاستقباله لم تعد تهمّها في شيء، وأنّ ذلك اليوم قد اقترب كثيرًا ثمّ نهضت، لملمت أشياء الطفل كأنّها تستعدّ للرحيل، أمسكت بيد الطفل وسارت به إلى نهاية الإصطبل وعادت به، ثمّ سارت به وعادت وتركته فبدأ يترغل ويصفّق ويدور على نفسه وصوته يملأ الفضاء، قالت سنرحل، قلت لها وأنا أيضًا قلت لزليخة أن تتولّى أمور فتح الأبواب المقفلة، وكأنّني استعدت نشاطي، جلست في النفق. أيقنت أنّنا نستطيع أن نخرج منه إذا كان الإصطبل هو مركز الدائرة م. وكأنّني ندمت لأنّي لم أحفر النفق كي يصبح متنفّسًا لعائشة وطفلها الذي بدا مبتهجًا حارّة أصابعه التي أمسكتها في ذلك الفجر قبل أن تستيقظ العنّابية وكانت زليخة تفتح الأبواب لتخرج عائشة بفستانها الملوّن، المزركش بأشجار تشبه أشجار الفستق وورود صغيرة أنيقة تمنح جسدها الذي بدا لي محافظًا على مكامن فتنته بالصدر الناهد، وأصرّت على أن تفتح زرّها العلوي ليعود متألّقًا بصفائه كبلّور معتّق يشفّ في سماء مشتعلة الأضواء وبانسيابية خصرها، وحرارة عينيها اللتين لم أعرف أنّ لهما كلّ هذا السواد والبريق؛ تمسك عائشة بيد الطفل وأمسك باليد الأخرى، ترسل نظرات امتنان لزليخة التي سرقت المفاتيح من على خصر أمي وفتحت البوّابات أمام أقدامنا، أرض الحوش ثمّ الباب الخارجي الذي مررنا تحت قناطره وجلست عائشة متفحّصة الرجال قرب زاويته، ثمّ الزقاق الضيّق المفضي إلى ساحة العنّابية فالدرب الذي مشاه قبلنا عنّاب، عائشة ابتهجت بالصباح كأنّها تودّ الطيران، انفتح المشهد أمام أنظارنا وروائح الصباح عبقت في رئتيّ، والسكون الذي يحيط به، لا أسمع جلبة عائشة، الطفل يسير بيننا مبتهجًا، فرحًا كعصفور صغير، ابتعدنا من العنّابية والشمس بدأت تشرق، كانت السهول أمامنا تدعو إلى طيران حرّ لا

يتوقّف، تمعّنت بالطفل الذي سمّيناه، تفحّصت تقاطيعه، بثوبه الزهري ورجليه الحافيتين كما أرادت له عائشة أن يطأ أرض العنّابية قبل أن يغادرها وتقاطيعه الناعمة، بدا لي جميلًا، ورأيت عينيه تجوبان ولا تستقرّان، يتخبّط في الطريق ويزداد تمسّكه بيدينا، انفتحت أمامنا عفرين بجبالها وغابات الزيتون التي تزداد فتنة حين يداعبها الصباح، تنشّقت عائشة الهواء النظيف ملء رئتيها، سألتني وهي تُشير إلى الطفل الذي سمّيناه: أليس جميلًا؟ قلت لها نعم جميل لكنّه أعمى.

**حلب**

**صيف 1993 – ربيع 1996**